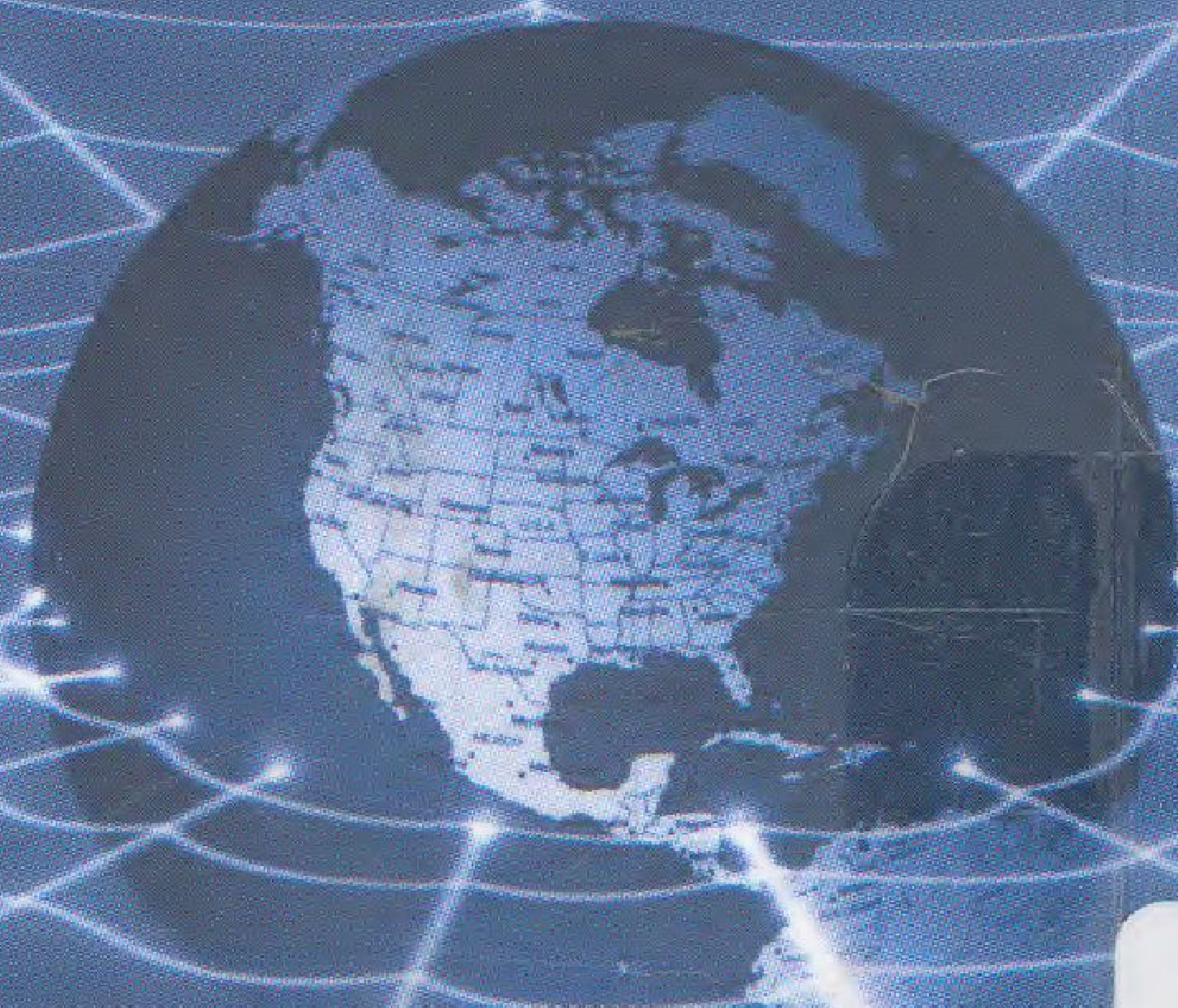
فخاخ التفاوض وحروب المعلومات

أ.د. حسن محمد وجيه







فخاخ التفاوض وحروب المعلومات

دراسة من واقع التفاعلات الدولية والعربية

أ.د. حسن محمد وجيه

خبير لغويات التفاوض والحوار الدولي



اسم الكتاب: فخاخ التفاوض وحروب المعلومات.. دراسة من واقع ملفات «صراع الحضارات» و«حرب الدخان والإدمان».
المؤلف: د. حسن محمد وجيه.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2008م.
رقم الإيداع: 22275 / 2007
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-4161-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس: 33462576(02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) - فاكس: 38330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 25909827 (02) - 25908895 (02) - فاكس: 25903395 (02)

مركز خدمة العملاء: 25909827 (02)
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
ت: 2221866 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كل من أ.د. نادية مصطفى، أ.د. سيف عبد الفتاح، د. هبة رءوف وكل العاملين فى برنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، فلهؤلاء أقدم شكرى وعرفانى الخاص للتفاعلات الراقية والثرية بصفة عامة وحول موضوع هذا الكتاب بصفة خاصة... كما أود أن أعبر عن عرفانى لهذه الأسرة العلمية الكبيرة بهذه الكلية العريقة التى شجعت واحتضنت الجهود العلمية المتواضعة التى قدمتها منذ بداية مسيرتى فى هذا الدرب الطويل والشاق... والله ولى التوفيق.

لماذا هذا الكتاب؟

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، أما بعد فإن عملية بناء مهارات التفاوض والحوار بصفة عامة هى عملية مركبة ومعقدة وتحتاج إلى اطلاع وثقافة وتدريب متواصل إلى أن تستطيع أن تكسب جولات التفاوض بالإعداد الجيد والتنفيذ الدقيق والمتابعة المستمرة، وفى واقعنا الثقافى - الذى لم نتعود فيه على ثقافة التفاوض الفعال - نحتاج كذلك إلى نوع خاص من **النضال التفاوضى** لترسيخ مبادئ ومفاهيم وتقنيات هذه الثقافة التى نحتاج إليها فى حياتنا اليومية والإدارية والسياسية والإعلامية وفى بناء الفريق وفى كل الأعمال التنموية. ولقد قدمنا العديد من الدراسات المبنية كلها على تجارب واقعية لنستقى منها أدوات ومهارات التفاوض. ومن خلال هذا الكتاب تحديدًا نركز على مفهوم «**الفخ أو الكمين التفاوضى**» وأنواعه وخصائص عملية التفاعل سواء بالحوار أو التفاوض فى سياق ومناخ **غموض المعلومات ونقصها وحروبها**..

وهو سياق نجابهه ونتعامل معه سواء كان التفاوض في موضوع كصراع أو حوار الحضارات أو الثقافات أو كان في مجال إدارة الأعمال الاقتصادية أو في التفاعلات السياسية أو الإدارية وحتى المجتمعية والأسرية في بعض الأحيان والظروف.

ولذلك نستقي من ملف تفاعلات ما سمي بحوار أو صراع الحضارات تحديدًا عددًا من أنواع كمائن أو فخاخ التفاوض Negotiating Traps التي نراها كذلك ولو بصور أخرى في السياقات المختلفة. من هنا، وإذا أردت أن تتجنب هذه الكمائن ولا تقع ضحية وفريسة لمن ينصبونها لك في الحوار والتفاوض، فقد أُعدَّ هذا الكتاب لهذا الغرض الذي يصب مع جهود أخرى متكاملة في رفع مهارات وأساليب التفاوض في واقعنا الثقافي واستنهاضه للانطلاق إلى آفاق التنمية والإبداع في المجالات كافة... ومن أهم أنواع كمائن التفاوض التي نحللها للكشف عنها ما يلي:

- فخ البقاء في سجن الانطباع الأول.
- فخ منطقة الأمان الوهمي.
- فخ التأطير الخاطئ.
- فخ التنبؤ الخاطئ.
- فخ المصطلح المتضخم.
- فخ الاصطدام بالآخرين وعدم القدرة على نحت الأرضية المشتركة.
- فخ المعلومات الناقصة (Missing Information).

- فخ المعلومات الخاطئة (Misinformation).
- فخ المعلومات المغلوطة (Disinformation).
- فخ افتقاد القدرة على إدارة الأجندات والسيناريوهات المتنازعة.

كل هذه الأنواع هى موضع التركيز فى هذا الكتاب من خلال أمثلة من واقع التفاعلات من ملف حوار الثقافات وصراع الحضارات على وجه الخصوص وكذلك من واقع ملف ما أسميته بملف «حرب الدخان والإدمان»...

تمهيد

■ **أسئلة هذا الكتاب:**

١- كيف تتجنب «الفخ التفاوضى» الذى ينصب لك فى أى سياق تفاوضى؟

٢- ماذا عن أنواع الفخاخ التفاوضية؟ وفخاخ مباريات المعلومات؟

٣- فى الملف السياسى: هل وقع السادات فى فخ كيسنجر أم العكس.

٤- ماذا عن «فخ الإسلاموفوبيا» وهل وقع بعض علمائنا فى فخ الفتاوى الخاطئة والمسيئة لنا جميعًا، وماذا عن فخاخ «صدام الحضارات» و«نهاية التاريخ» و«الاختزال العلمانى»؟

٥- ماذا عن فخاخ «حرب الدخان»؟ وما السبيل للتعامل مع مستويات هذه الحرب؟

٦- ماذا عن فخ «المادية المجحفة» طبقًا للأمير تشارلز؟

٧- كيف وقع توماس فريدمان فى فخ «أخلاق القرية»؟

٨- كيف وقع بابا الفاتيكان فى فخاخ «الخطايا الأكاديمية السبع»؟

■ **أقسام هذا الكتاب:**

نقدم من خلال هذا الكتاب مجموعة من الدراسات المتكاملة التى نركز من خلالها على فهم ورصد فخاخ التفاوض والكشف عن

آلياتها من أجل أن يتعامل المفاوض المعنى بفاعلية تمكنه من تجنب السقوط فى براثن هذه الفخاخ التى قد تكون معدة مسبقًا من قبل المفاوض الآخر أو تلك الفخاخ التى تحدث بتلقائية من جراء التفاعلات أو عدم إدراك تداعيات ونتيجة قرار تفاوض غير مدروس.

ونقدم فى هذا الكتاب أربعة ملفات تفاعلية أو حالات تفصيلية Cases رئيسية:

الملف الأول ونقدم من خلاله دراسة الحالة الأولى وهى بعنوان: **«فخاخ التفاوض وحروب المعلومات: من وقائع ملف حوار الحضارات وصدامها إلى واقع التفاعل الاجتماعى والسياسى»**.

والملف الثانى يتضمن دراسة الحالة الثانية وهى بعنوان: **«فخاخ التفاوض على مائدة الدبلوماسية العربية: نحو هندسة عربية لدبلوماسية التعامل مع السياق الدولى الحرج»** (دراسة من منظور لغويات التفاوض والتواصل عبر الثقافات: نحو موسوعة للمصطلحات الدولية التفاوضية من منظور عربى).

ويتضمن الملف الثالث دراسة الحالة الثالثة وهى بعنوان: **«فخ ثنائية الإدمان والتدخين: إشكال الإدمان والتدخين كحرب منخفضة الوتيرة وكتهديد للأمن المجتمعى والقومى: تحليل لأوجه الخلل فى إدارة الأزمة الممتدة وفى خطاب المعالجة المجتمعية والإعلامية»**.

أما الملف الرابع والأخير فيتضمن مجموعة من الأمثلة التحليلية تتمثل فى الموضوعات التالية حسب ورودها:

١- ماذا عن «فخ الإسلاموفوبيا» ونور محمد ﷺ؟

٢- كيف واجه چيمي كارتر فخ الإعلام الأمريكي وفخ اللوبي الصهيوني في أمريكا؟

٣- الأكاديمي والدبلوماسي وفخ «قرار مجلس الأمن المفترض رقم ١٧٩٩».

٤- كيف وقع بابا الفاتيكان في فخ «الخطايا الأكاديمية السبع»؟

٥- بمناسبة مرور ٣٠ سنة على كامب ديڤيد: هل وقع السادات في فخ كيسنجر أم العكس؟

٦- فخ عدم اعتبار السيناريو الأبسط: «مصر وسيناريوهات منع المرور في شوارع نيويورك».

مقدمة دراسة الحالة الأولى بعنوان

فخاخ التفاوض وحروب المعلومات: من ملف حوار الحضارات إلى واقع التفاعل الاجتماعى والسياسى عبر الثقافات

المشكلة التى نتناولها فى هذه الدراسة لها نطاقها الأوسع بطبيعة الحال، فبؤرة التركيز تتمثل فى تسليط الضوء على أهمية التمكن من إدارة السيناريوهات المتنازعة فى مسألة حوار الثقافات، أو ما يسميه البعض «حوار الحضارات» أو «حوار الأديان» فى ظل حالة من عدم الثقة المتبادلة بين العالم العربى الإسلامى والغرب؛ وذلك لما تم اكتشافه من الحجم الكبير لنوعية فخاخ أو كمائن التفاوض (Negotiating Traps) وحروب المعلومات (Information Wars) لكن المشكلة ذات النطاق الأوسع تتمثل هنا، ليس فقط فى مجال حوارات الثقافات والحضارات والأديان، بل فى فعل التفاوض غير الأخلاقى سواء فى الداخل أو فى الخارج أو بين الداخل والخارج؛ حينما يقوم أحد المفاوضين باكتشاف فخاخ تفاوضية أو حروب معلوماتية بمستوياتها، والتى تتمثل فى وجود معلومات ناقصة أو معلومات خاطئة أو معلومات مغلوطة. وهو الأمر الذى سوف نقدم له أمثلة توضيحية وتفصيلية على مدى هذه الدراسة. وإذا كانت مادة هذه الدراسة وأمثلتها تركز أساسًا على ملفات ما عُرف بحوار الثقافات

أو الحضارات أو الأديان، فعلى الرغم من أهمية هذه الملفات الكبرى فى الكشف عن طبيعتها والتعامل الحذر والمنهجى معها، فإن العمق المعرفى لهذه الدراسة يتمثل فى التركيز على مفاهيم مباريات المعلومات Information Games وطبيعتها، وكذلك أنواع «فخاخ التفاوض» التى قد نصادفها فى أى سياق تفاوضى محتمل، سواء كان ذلك فى السياق التفاوضى اليومى أو الإدارى أو الإعلامى أو السياسى.

وإذا كان الهدف الرئيسى من هذا البحث هو توضيح حجم الأزمة القائمة فى حوار الثقافات والحضارات، فإن هذا البحث معنى كذلك بالإسهام فى التأصيل النظرى «لعمليات ولغة الحوار من حيث القواعد و المبادئ والمفاهيم»، على أنه من المهم الخوض أولاً فى معنى التأصيل. وهنا نجد أن أكثر أشكال التأصيل شيوعًا فى واقعنا يتمثل فى فهم الكثيرين لهذا المفهوم على أنه الدخول فى مقدمات طويلة لشرح الجذور وأصول الكلمات عند نقل المصطلحات وتوطينها، ومحاولة الاسترشاد بكلمات فى أصل اللغة العربية، وبالتالى يرى هذا النفر أن التأصيل يكاد يكون بمثابة التعريب للمصطلحات وللخطابات العملية المختلفة.. وبكلمات أخرى، العودة إلى أصول الشىء وتوطين هذه المصطلحات طبقًا لما لدينا من فكر وقيم.

وإذا كان هذا المنظور من التأصيل واردًا ولا نختلف بخصوصه، فإننا لا نريد التقوقع فى حدوده فقط، بل إن التأصيل النظرى لابد أن يتخطى ذلك إلى ما أسميه «**التنظير التأصيلى**»؛ أى أن نسهم فى «**التنظير العلمى**» على الساحة الدولية للظواهر والقضايا التى نتناولها بالدراسة، وذلك من خلال منظورى العلم التقنى ونظام القيم العليا لثقافتنا العربية الإسلامية.. وهذا ما أتبناه فى طرحى

لمنظور «لغويات التفاوض» الذى قدمته وأتبناه فى دراساتى العديدة، والمتمثل فى الانطلاق من البعد التقنى العلمى لفهم وتحليل ظواهر التفاعل الحوارى والتفاوضى وفى إدارة الأزمات والمنطلق كذلك من القواعد المقصدية للإسلام.

وإذا كان جوهر المنظور العلمى الذى نتبناه هو «لغويات التفاوض» ـ وهو منظور قمنا بتأسيسه على المستوى الدولى النظرى ونسعى من خلاله إلى الفهم المتعمق لظواهر لغة التفاوض والحوار وديناميكياتها وعملياتها المركبة ـ فإن هناك مفاهيم عامة عبر السياقات المختلفة سواء كان التفاوض اقتصاديًا أو سياسيًا أو قانونيًا أو اجتماعيًا، ولكن الخبرة العملية فى التفاعل مع كل سياق قد أظهرت كذلك خصوصيات لكل مجال.. من هنا فإن الحديث عن فهم عمليات لغة الحوار والتفاوض وتأصيلها نظريًا لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال تقديم رؤيتنا العلمية المنطلقة من القواعد المقصدية للإسلام بخصوص ما عُرف بحوارات الأديان وحوارات الثقافات وحوارات الحضارات، فلقد حظى هذا الموضوع بعدة نظريات، مثل «نظرية صدام الحضارات» التى قدمها صموئيل هنتينجتون بعد أن انطلق من تنظيرات أخرى فى ذلك الاتجاه قدمها قبله برنارد لويس وطورها فيما بعد فوكوياما.. وتأخذ أشكالاً عديدة تعرضنا لها فى دراسات سابقة[1]، كذلك تصور البعض أن حوار الثقافات والحضارات والأديان ينطلق من خلال نظرية «الهيمنة الثقافية» وأن تلك الحوارات تتسم بالتبعية وتدور فى إطار صراع الثقافة المحلية ضد ثقافة الهيمنة الساعية لفرض منظورها على

(١) راجع لكاتب السطور: حروب الهوية ومستقبل التفاوض مع الغرب: نحو المشروع العربى لإدارة النوازل الدولية واستباقها، المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠٢م.

العالم، وسوف نقدم تفنيدًا لهذه النظرية وغيرها فى هذه الدراسة، وكان هناك كذلك تنظير ودراسات من جهات كبيرة لمفهوم الحوار وقواعده وعملياته، كما قدمها الفاتيكان مثلاً، خاصة فى إطار ما عُرف بالحوار الإسلامى - المسيحى فى عهد البابا بولس، بابا الفاتيكان السابق، وهذا عكس ما مارسه البابا الحالى للفاتيكان الذى نناظر طرحه فى هذه الدراسة كذلك، فهناك من قام بالتنظير لجزئيات معينة كجزئية «فهم المشترك الثقافى» وما هو وكيفية الوصول إليه، والذى تردد بشكل «إن وأخواتها» دون تفصيل دقيق من المنظور التفاوضى؛ مما يجعل الحديث عنه وكأنه مشترك يوضع فى قابس «كُبْس للكهرباء» فيؤدى عمله.. فلقد وصل بعض الساعين فى هذا الاتجاه من التصور الوردى إلى حالة من اليأس، وهناك نظريات للحوار من المنطلق الدينى البحت، سواء من الدين الإسلامى أو المسيحى، إلى آخر ذلك من محاولات للتنظير والتأصيل على عدة محاور وأرضيات فى إطار هذا المجال المتسع، ولقد أدى وجود هذه «النظريات» إلى وجود من يتبناها ولا يرى غير الزاوية التى طرحتها كل نظرية، وبعضهم يرى صحة هذه النظرية أو تلك بشكل تعميم مبالغ فيه وشبه إطلاقى، جعله يأخذ مواقف بعينها من حوار الحضارات والأديان والثقافات.. وسنرى فى هذه الدراسة كيف وصل الأمر بمفكرين كبار لأن يقولوا مثلاً: «أنا ضد حوار الأديان»، وآخرين قالوا: «إن كل هذه المؤتمرات والاجتماعات ليست إلا كمائن لنا...» وأن يقول أحدهم: «أنا قررت عدم المشاركة فى أى حوار».

وذهب البعض إلى القول بأن «الأمر لا يعدو كونه السعى للهيمنة؛ ولذلك لا بأس أبدًا من مقاطعة كل هذه المؤتمرات والجهود»، وهناك من مارس الحوار فى ظل هذه التجمعات الدولية من منطلق معلومات

قاصرة أو ناقصة أو خاطئة تمامًا، وراح ومعه نفر آخر ضحية «حروب المعلومات» أو «الحروب النفسية» التى تشن أو (فخاخ التفاوض) التى تنصب، خاصة ضد «العالم الإسلامى» فى إطار هذا الموضوع المتسع كما ذكرنا.

وقبل أن أحاول وضع كل هذه التوجهات موضع الدراسة التحليلية من خلال خريطة ذهنية نستخدمها كأداة للتقييم وللرؤية الاستراتيجية لمجمل خريطة التفاعلات من منظور لغويات التفاوض لتمحيصها وتنفيذها، ونضع هنا تصورًا استراتيجيًا علميًا ينطلق من المقاصد التالية:

١- إن الانسحاب من هذه الجبهة التفاعلية الصعبة المتعلقة بحوار الثقافات والأديان لا يتفق نهائيًا مع المقاصد الكبرى للسلام، وللانتماء لهذا الوطن بتاريخه العريق وثقافته الممتدة فى التفاعل مع العالم عبر آلاف السنين.. فنحن نمثل حضارة منفتحة وتفاعلية مع العالم، وليس لها أن تتقوقع مهما كانت الصعوبات والظروف.

٢- إنه ومع التسليم الافتراضى بصحة هيمنة نموذج أو نظرية صراع الحضارات واستخدام «الحوارات» كغطاء ممنهج للسيطرة على العالم العربى الإسلامى، ينبغى لنا - ومن منطلق عمق قيم ثقافتنا والمقاصد الكبرى للإسلام - أن نتصدى لهذا العداء الجائر بأساليب علمية مبتكرة. أليس على الأقل من الواجب علينا إنشاء مصدات لامتصاص آثار الحرب النفسية التى تدار من خلال نموذج صدام الحضارات، ومحاولة دوائر بعينها تفعيله، وعدم تمكين من هم وراء هذا النموذج أن يحققوا الهدف من تفعيله، وهو

بالتأكيد ليس فى مصلحتنا ولا ينطبق على توجهات المقاصد الكبرى لقيمنا وثقافتنا وديننا؟

٣- إن التحليل الأولى لعينات كثير من تفاعلات حوار الحضارات أو الثقافات أو الأديان، أو ما يسمى بالحوار الإسلامى ـ المسيحى، أثبت وجود أخطاء وتجاوزات تبتعد عن العلم ومقاصد الدين معًا على الجانبين؛ الجانب الغربى أساسًا والجانب الممثل للعالم العربى الإسلامى على السواء، وهو الأمر الذى يستدعى التدخل العلمى الصارم لتوضيح أوجه الخلل هذه، والتى ستكون السبب فى إهدار أمور كثيرة وترسيخ حالة اللاحوار القائمة، هذا حتى إذا غاب عن الساحة منظرو «صدام الحضارات وأصوات التعصب والكراهية فى عالمنا، فستظل مشكلة افتقاد الأبعاد التقنية العلمية فى السعى لنحت الأرضية المشتركة الصعبة وإدارة الأجندات مشكلة قائمة.. من هنا، فإن هذه الدراسة تتعامل مع هذا البعد كبعد حيوى يحتاج إلى المعالجة العلمية والأخلاقية معًا».

هل نحن بصدد التعامل مع مشاكل الحوار والتفاوض عبر الثقافات والأديان والحضارات أم نحن بصدد إدارة أزمة ممتدة؟!

تتأرجح حالة حوارات الثقافات والحضارات والأديان بين من يرى أنها ذات حالات متفاوتة فهناك حالات قليلة من الانسياب والنجاح أو حالات من «تحصيل الحاصل»، ومن يرى أننا بصدد أزمة عميقة ممتدة بين العالم العربى الإسلامى والغرب، وأن هذه الأزمة إذا لم تتم إدارتها من الطرفين بشكل إيجابى، فإنها ستكون ـ إن لم يكن هذا هو الحادث فى حالات بعينها ـ فى حالة انزلاق أزمة حوار الثقافات هذه لأزمات متعددة "Crisis slide" ستؤثر سلبًا على الجميع فى هذا العالم.

ولقد شبهه الكاتب محمد سيد أحمد فى مقال له «حول صدام الحضارات» بالأهرام بأنه ـ أى هذا الصدام ـ قد يتحول فى أى لحظة إلى «تسونامى» كبير كالذى أطاح بالآلاف فى لحظات بجنوب شرق آسيا.

ويقول زين العابدين الركابى فى مقال له بعنوان «مخاطر حضارة جديدة: نزول العداوات إلى ساحات الشعوب» (الشرق الأوسط ٤/١٢/٢٠٠٤): «إن نموذج صدام الحضارات قد تحول بالفعل إلى شوارع هولندا مؤخرًا بعد مقتل المخرج الهولندى (ثيوفان جوخ) على يد مسلم مغربى مقيم فى هولندا، وما تبع ذلك من أحداث عدائية وصارخة ضد المسلمين فى هولندا».

وأتذكر فى هذا الصدد أنه عقب وفاة ذلك المخرج الهولندى، اتصلت بى صحفية من هولندا وسألتنى: «ما رأيك فى قتل هذا المخرج؟» فقلت لها: «أنا ضد القتل، وكان يمكن المطالبة بمحاكمته، ولكن دعينى أسألك مجموعة من الأسئلة: ما رأيك فى الفيلم الذى أخرجه «الإخضاع رقم ١ Submission one» وحجم التعديات الصارخة التى قد تستفز الحجر إلى أبعد الحدود؟ هل من اللائق أن تصل التعديات على معتقدات الآخرين إلى هذا الحد؟ وماذا عن عرض مثل هذه الأفلام على الجمهور العام؟ ألا يوجد من الغربيين من يُستفز إلى هذا الحد الذى وصل إليه ذلك المشاهد المغربى إذا ما تم الاعتداء عليه؟ هل المسئولية هنا مسئولية المستفز فقط أم مسئولية من تم استفزازهم فى منطقة العقائد التى ينبغى أن تحترم تمامًا من الجميع وطبقًا لكل الأعراف والقوانين الدولية والمحلية عبر العالم كله؟!».

وإذا قمت بتجميع عناوين جرائد المعارضة الخاصة فى واقعنا الثقافى، لوجدت فى كل منها عددًا كبيرًا مما يرصد من الكتب

أو البرامج الإعلامية المليئة بالاتهامات والشتائم الموجهة لرموز الدين الإسلامي حتى وصلت إلى الرسول ﷺ، ورغم أنني ضد إعادة إنتاجها من قبل هذه الجرائد المحلية، فإن هذا ما يعكس حقًا أننا قد أصبحنا في حالات تفاعلات معبرة عن عمق الأزمة الممتدة التي علينا أن نديرها؛ إما للخروج من مسار انزلاقها إلى الأسوأ في أقل تقدير، وإما للخروج إلى آفاق بناء الثقة وإلى العمل الإنساني الخلاق المشترك؛ للتغلب على المشاكل الحقيقية للجميع في هذا العالم.. كان كل ما سبق بمثابة تصوير للنطاق الأوسع لمشكلة هذه الدراسة.

وفي نهاية هذه الدراسة، أود أن أتوجه بالشكر للدكتورة نادية مصطفى رئيس برنامج حوار الحضارات بجامعة القاهرة؛ لأنها سمحت لي بإعادة نشر بحث أولي قدمته عن هذا الموضوع الذي أعرضه في هذه الدراسة التفصيلية، والذي كان في سياق المشروع النظري الأول المدرج في الخطة العلمية الأولى لبرنامج حوار الحضارات بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة.. كما أتقدم بالشكر للقائمين على النشر بشركة نهضة مصر العريقة لعنايتهم وتشجيعهم.. والله ولي التوفيق، وهو وحده المستعان.

المشكلة المحددة لهذه الدراسة:

تتمثل المشكلة الرئيسية التي تتعامل معها هذه الدراسة في وجود فهم قاصر أو محدود لتقنيات الحوار والتفاوض ومفاهيمها؛ مما أدى إلى وجود أخطاء تفاعلية كبيرة على كل من الجانبين العربي والإسلامي، وهو الأمر الذي ينبغي رصده والكشف عنه والسعي للتصدي له من أجل ترشيد حوار الثقافات والأديان بعيدًا عن أوجه الخلل القائمة، كما أن المشكلة ـ في شق آخر لها ـ تتجسد في الفهم

القاصر والمحدود لمفهوم الأرضية المشتركة Common Ground وصياغتها، فالبعض يتحدث عن هذا المفهوم المركب بأسلوب «إن وأخواتها» أو بعقلية (الينبغيات) أو ما نتمناه (Wishfull thinking) دون إدراك لمشاكل الصعوبات الإدراكية المتعددة Perceptual Problems من ناحية، وإدراك أن نحت أو صياغة الأچندة المشتركة يتطلبان من الناحية الأخرى إدارة فعالة للأچندات والسيناريوهات المتنازعة واتخاذ مواقع وتحركات ديناميكية على عدة محاور لصياغة تلك الأچندة المشتركة فى حوار الثقافات والأديان، وذلك فيما يتعلق بكل خطاب من الخطابات السبعة ذات النطاق التواصلى الأوسع التى قمنا برصدها من خلال ما سميناه «الخريطة الذهنية لخطابات حوارات الثقافات والأديان»، والتى نعتبرها بمثابة أداة تقييم استراتيجى أساسية Strategic Assessment Tool، تتيح لنا الفهم الديناميكى والمتعمق لطبيعة مفاهيم وعمليات الحوار والتفاوض المتعلقة بكل خطاب من الخطابات السبعة التى حددناها ورصدنا ملامحها الرئيسية، فمثلاً هناك أرضية مشتركة ذات طبيعة خاصة لكل حالة ولكل نوع من الخطابات، بما فى ذلك ما يتعلق بالحوار الدينى (الثيولوجى) مثلاً، وبعيدًا عما ينطق به هذا المفكر أو ذاك فى واقعنا الثقافى أو فى الغرب ممن يطالبون بغلق باب الحوار الدينى ـ الدينى؛ حيث يقول د. سليم العوا مثلاً: «أنا ضد حوار الأديان» أو كما قال بذلك أيضًا آخرون، منهم الفقيه د. محمد رأفت عثمان: «إن هناك أرضية مشتركة ذات طبيعة خاصة فيما يتعلق بكل خطاب، وحتى بخطاب صدام الحضارات، تتمثل فى إنشاء رءوس كبارى، مع قطاعات واسعة من الرأى العام الأمريكى والعالمى؛ لمنع أصحاب هذا النموذج من تفعيل وإحداث المزيد من التعبئة الجائرة وكشف

ضعف وتلفيقات حججهم بشكل مباشر وغير مباشر.. إلى آخر ذلك مما تتعرض له الدراسة بالتفصيل وبدراسة حالات محددة بعيدًا عن التجريد النظرى الإطلاقى والتعميم الزائد البعيد عن دراسة الحالات المحددة عند تناول أمر الحوار والتفاوض والتنظير بشأنهما فى واقعنا على وجه الخصوص.

أسئلة الدراسة وبياناتها التفاعلية Data:

١- ماذا عن طبيعة الخطابات والأچندات والسيناريوهات المتنازعة التى تحويها الخريطة الذهنية Cognitive Map الخاصة بحوار الثقافات والأديان والحضارات الراهنة؟

٢- ماذا عن الخصائص اللغوية والثقافية والحجج التى يتم تداولها فى إطار كل من الخطابات ذات النطاق التواصلى الأوسع المتضمنة فى إطار كل خطاب من خطابات الخريطة الذهنية؟

٣- ماذا عن طبيعة أوجه الخلل القائمة فى التفاعلات الحوارية والتفاوضية بين الواقع العربى الإسلامى والغربى من خلال حالات تفاعلية محددة؟

٤- ماذا عن بعد «نحت الأرضية المشتركة» ومستوياتها المختلفة بخصوص كل خطاب من الخطابات السبعة لإدارة الأچندات المتنازعة فى حوار الثقافات ولصالح مباراة يكسب منها الجميع؟

٥- ماذا عن عملية التقنية اللازمة لبناء وصياغة السيناريوهات الحاضنة Nesting Scenarios فى حوار الحضارات والثقافات؟

٦- ما المقصود بـ«تفاعلات النظم System Dynamic» كتقنية حيوية لتحليل الخطاب وإدارة الأچندات المختلفة؟

٧- ماذا عن فخاخ التفاوض (Negotiation Traps) فى إطار ملفات التفاعل فى حوارات الثقافات والحضارات والأديان وأهمية إدراكها؟

٨- ماذا عن منظور المقاصد الكبرى للإسلام فى إطار فهمنا لتفعيل حوار الثقافات والأديان والحضارات نحو مباراة يكسب منها الجميع؟

٩- ماذا عن القناة التفاعلية المطلوب تدشينها؟ وما سمات التفاعل المطلوبة بخصوصها؟

بيانات هذه الدراسة (Data):

ينقسم بنك بيانات هذه الدراسة إلى جزءين رئيسيين هما:

(أ) ملف مجموعة البيانات رقم (١) Data Set # 1:

وهى بيانات قام كاتب هذه السطور بتنميتها على مدى زمنى طويل من الثمانينيات وإلى اليوم، وتخص بُعد التواصل عبر الثقافات وحوارات الثقافات والحضارات، وتشمل الكتب والدراسات والأبحاث والمقالات الصحفية، وتفاعلات المؤتمرات الدولية والندوات ومادة من على الشبكة الدولية للمعلومات Internet ووقائع تفاعلية كان الكاتب أحد أطرافها، وقد سجلها فى مناظرات فى وسائل الإعلام العربى والدولى.

(ب) مجموعة البيانات رقم (٢) Data Set # 2:

فهى بيانات حلقتى نقاش خاصة تمتا بين عدد من الشخصيات الدولية البارزة التى شاركت فى المؤتمر الدولى السنوى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف عام ٢٠٠٤،

وتعتبر بمثابة تقنية (إجراء تفاعلات الخبراء وتسجيل أحكامهم. (Group Dynamics & Expert Judgment).

إجراءات الدراسة:

١- تم فى المرحلة الأولى قراءة كم ضخم من البيانات الخاصة بموضوع الدراسة (ملفات بيانات حوارات الحضارات والثقافات والأديان)؛ وذلك بهدف استخلاص خطابات الخريطة الذهنية Cognitive Map وعناصرها التى نهدف من تشييدها إلى إيجاد أداة تقييم أولية Basic Assessment Tool تمكننا كذلك من الرؤية الاستراتيجية الكلية لخريطة التفاعلات بخصوص موضوع الدراسة (من خلال أساس البيانات رقم «١» Data Set # 1).

٢- القيام بتحليل السمات الرئيسية لكل خطاب من خطابات الخريطة الذهنية وتوضيح المقصود به من خلال تسجيل حالات تفاعلية واقعية.

٣- القيام بتحليل مجموعة البيانات (٢) وهى قراءة تحليلية لمسار الحجج المتبادلة بين الخبراء الدوليين حول نفس موضوع هذه الدراسة Argumentation Analysis؛ لتحديد مسار الحجج التى وصل عددها إلى ٢٤ حجة تتناول كل منها زاوية لطرح الموضوع، وهى مكملة البيانات لمجموعة البيانات رقم (١) ومفصلة لجزئيات من الخطابات المستخلصة منها.

٤- دمج الحجج الـ٢٤ تحت الحجج الحاضنة Nesting Arguments لتكون المادة الأساسية لصياغة السيناريوهات الحاضنة

Nesting Scenarios الرئيسية؛ لتقديم ثلاثة سيناريوهات، ومن ضمنها ذلك السيناريو المعيارى (Normative Scenario) الذى ينبغى أن يتم السعى لتحقيقه على المستوى العربى الإسلامى والدولى أيضًا.

٥- الاستطراد فى توضيح المتطلبات التقنية لإدارة الأچندات المتنازعة التى تضمنتها خطابات الخريطة الذهنية والسيناريوهات المتمخضة عنها (وهنا يتم رصد فخاخ التفاوض والحوارات القائمة والسعى لتجنبها).

٦- استخلاص مستويات نحت صياغة الأرضية المشتركة والتأكيد على القواعد المقصدية للإسلام فى هذا الإطار.

ـ الجزء الأول الملف رقم ١ ـ

تحليل لأهم عناصر خطابات الخريطة الذهنية الموضحة للتوجهات القائمة فى إدارة وممارسات حوارات الثقافات / الأديان

تمهيد:

نقدم فيما يلى ما أسميه بالخريطة الذهنية (Cognitive Map) العاكسة لتوجهات وحالات خطابات تفاعلية بعينها تدخل فى إطار شبكة التفاعلات المتعلقة بحوارات الثقافات والأديان القائمة فى عالم اليوم ذات النطاق الأوسع..

وهذا الرصد التحليلى للخطابات بمثابة أداة رئيسية للتقييم الاستراتيجى Strategic Assessment Tool ومحاكاة للرؤية الاستراتيجية لأرضية ملاعب التفاعلات وتقييم ما نراه على كونه سلبيًا أو إيجابيًا، وذلك بهدف ترشيد حركة التفاعلات الكبيرة الجماعية من خلال الإجماع على قواعد ومعايير (Standards) وأصول بعينها تمكننا من فهم الطبيعة المعقدة للغاية لإدارات الأجندات المتنازعة أو غير المتجانسة بهدف التمكن من نحت وصياغة الأرضية المشتركة التى تمكن الأطراف ـ ذات التوجه الإيجابى والعادل ـ من منع العدوان وإفشاء السلام العادل بعيدًا عن المعايير الازدواجية، وخلط الأوراق والصعوبات الإدراكية القائمة وهى الأرضية التى تمكننا من تعظيم الناتج الإيجابى

لحوار الثقافات والأديان والإمساك بالخطوط الصحيحة التى وإن لم تدفع بعمليات الحوار والتفاوض إلى الأمام، فإن ذلك يمكننا من إنشاء مصدات تفاعلية تمنع حدوث السيناريو الأسوأ على الصعيد العربى الإسلامى ذاته، وعلى صعيد العلاقات الدولية بين العالم العربى الإسلامى والغرب خاصة. وفيما يلى الملامح الدولية الرئيسية لخريطة خطابات حوارات الثقافات والأديان كما فى الجدول التالى:

الجدول رقم (١) الخريطة الذهنية لخطابات حوارات الثقافات والأديان

١	خطاب الحوار الدينى - الدينى (الثيولوجى) (وخطاب المساجلة والمناظرة، وخطاب المعرفة العلمية فى الواقع وفى أقسام الأديان المقارنة) [حالات توضيحية].
٢	خطاب «كمائن» حوارات الثقافات والأديان ومسألة الأجندة المتخفية فى الحوار [حالات توضيحية].
٣	خطاب وسيناريوهات المعلومات الناقصة وإشكالية «مربعات التفاوض السلبى» الخاصة بهذا المستوى.
٤	خطاب وسيناريوهات العداء الصريح وحملات المعلومات الملغومة والمعادية للإسلام فى الغرب.
٥	خطاب وسيناريوهات اللاحوار واللاتفاوض.
٦	الخطاب التفاعلى الباحث عن الأرضية المشتركة وصياغتها علمياً وأخلاقياً فى حوار الثقافات والأديان والحضارات.
٧	خطاب موضوعات التفاعل الدولى فى عصر العولمة وطبيعة التفاوض التنازعى والتعاونى فى هذا السياق عبر الثقافات والحضارات.

أهم العناصر التفاعلية فى خطابات الخريطة الذهنية الموضحة للتوجهات والتفاعلات القائمة فى إدارة وممارسات حوارات الثقافات والأديان:

(ملف البيانات رقم 1 - Data)

يتضمن ملف البيانات رقم 1 بهذه الدراسة عددًا كبيرًا من الكتب والأبحاث والمقالات ووقائع الندوات والمؤتمرات الدولية عن الموضوعات التى جاءت تحت مصطلحات «حوار الحضارات»، و«حوار الثقافات» و«حوار الأديان» أو «الحوار الإسلامى – المسيحى» وتابعها الباحث على فترة زمنية من الثمانينيات إلى اليوم (٢٠٠٥) أى على مدى الفترة من قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وبعدها؛ حيث أخذت موجة الأبحاث والمؤتمرات تحت تلك العناوين دفعة كبيرة. وفيما يلى أهم عناصر الخطابات الممثلة للحالة الحوارية التفاوضية أو اللاحوارية واللاتفاوضية لتفاعل الثقافات والأديان من واقع ملف البيانات رقم 1 لهذه الدراسة، وسنقدم لكل خطاب مسمى وأمثلة من واقع تاريخ التفاعلات.

أولاً - خطاب المناقشة والمساجلة الثيولوجية - الدينية البحتة:

وهو ما أسميه بالإنجليزية:

[Discourse of pure theological discussions & debates]

ولهذا الخطاب ثلاثة أمثلة رئيسية وهي:

(أ) حالة ممثلة للمناظرات (مثل تلك التي حدثت بين د. أحمد ديدات والقس أنيس شوروش چيمي سواجرت وما شاكلها[1]، وكالتي يقوم بها القس زكريا على قناة فضائية).

(ب) حالة الأبحاث الأكاديمية في عشرات أقسام «الديانات المقارنة» Comparative Religions في عشرات الجامعات عبر أنحاء العالم المختلفة.

(جـ) حالة المناقشة الثيولوجية – الدينية البحتة من قبل معتنقي الأديان المختلفة من باب التعرف على ـ وفهم ـ كل أصحاب دين للآخر... وهي التي قد ترتبط في حالات بعينها بعملية التحول من دين إلى آخر[2].

يتمثل هذا الخطاب الثيولوجي ـ الديني البحت في المستويات الثلاثة المذكورة أعلاه، وأخطر ما في هذه النوعية من الخطابات أن يتحول الحوار إلى مناظرات ومساجلات حادة وتناحرية أو استغلالية بأشكال عديدة، وخطورتها تتمثل في النزول إلى ساحة العامة، وليس المناقشات الجادة والهادئة بين أفراد يتعرفون بعضهم البعض في سياقات يحيط بها الاحترام المتبادل والابتعاد عن روح المساجلات والمناظرات والمشاحنات السلبية في مثل هذا النوع الحساس الذي قد يهدد استقرار المجتمعات، أو أن يستغل كذلك

(١)راجع على سبيل المثال لا الحصر: المناظرة الكبرى بين الشيخ أحمد ديدات والقس أنيس شوروش، ترجمة د. رمضان الصفتاوي، المختار الإسلامي ١٩٩١.

(٢)راجع على سبيل المثال:

Le Blanc, Abdul Malik, The Bible led me to Islam., Dar Al-Hady an, Riyadh S.A 1999.

فـى إحداث الـفـتن الـطـائـفـيـة الـديـنـيـة وانـتـشـار الـشـائـعـات الـخـاطـئـة والـحـالات المثيرة للجدال السلبى.

ولقد أجمع العقلاء من الجانبين على خطورة مثل هذا النوع من الخطابات التى تهدم أكثر مما تبنى، وتشيع روح المساجلة السلبية والتربصية، خاصة على صعيد العامة، وعلى سبيل المثال لا الحصر أُسجل هنا رأيًا لمفكر مسيحى معروف وهو «حليم جريس» برفضه لنشر شرائط مساجلات ديدات وسواجرت منذ فترة طويلة، ونرصد كذلك رأى المفكر الإسلامى الدكتور محمد سليم العوا الذى صرح برفضه لهذه النوعية من الخطابات حين ذكر «لقد سُئلت من جهة رسمية عندما كان المرحوم الداعية أحمد ديدات يقيم مناظراته مع القس چيمى سواجرت ويطبعها على شرائط فيديو: هل نوزع هذه الشرائط فى مصر مترجمة؟ فأجبت: لا يجوز توزيعها فى مصر، وفصلت كثيرًا فى هذا، وحتى الآن لم توزع هذه الشرائط فى مصر، وفى السودان أسلم (١١٠) قساوسة وسجلوا تجربتهم الإيمانية من المسيحية إلى الإسلام على شرائط وسألتنى إحدى الجهات التى كانت تريد أن توزع هذه الشرائط مجانًا فى مصر، فأفتيتهم فتوى «بأن هذا لا يجوز؛ لأنه يحدث شرخًا وفتنة فى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين المصريين ولا تفعلوا هذا»... وبالفعل لم توزع هذه الشرائط فى مصر حتى الآن... هذا موقفنا من إخواننا الأقباط، فنحن معهم وهم جزء منا ونحن جزء منهم، لكن الأديان لا تتداخل ولا تميع حدودها، فلكل دين حدوده وإذا ماعت الحدود بين الأديان ضاعت، ونحن لا نقبل ضياع الأديان»[1].

---

(١) حوار مع د. محمد سليم العوا، أجراه حسن عبد الله، مجلة نصف الدنيا العدد ٧٧٧، ٢ من يناير ٢٠٠٥م.

أسئلة سمات الخصوصية التفاعلية Interactional Feature بخصوص الخطاب الثيولوجي فى حوار الأديان والثقافات، لتؤخذ بعين الاعتبار فى البحث أو المناقشات المستقبلية وفى الحلقات التدريبية من قبل المهتمين بالحوار عبر الثقافات والأديان

تتمثل الأسئلة التى تحتاج إلى أن تناقش من قبل الخبراء فيما يلى:

١- ماذا عن الشروط الصارمة اللازم توافرها للخوض فى مثل هذا النوع من الخطاب الثيولوجي لإيجاد أرضية مشتركة لوقف سلبيات الخطاب السجالى (المستوى أ)؟

٢- ماذا عن تلك الشروط اللازم توافرها لترشيد طبيعة التفاعلات على الصعيدين الأكاديمي والدعوى الذى ينطلق من خلفية القانون الدولى (فى حق المعرفة The Right to Know) وفى أنشطة الدعاة من خلفية البعد الدعوى للأديان؟

٣- إذا كان من المهم تقسيم الخطاب الدينى إلى «خطاب دينى خاص» أو مغلق يتعلق بخصوصية كل دين وخطاب دينى مفتوح.. أى يتعلق بنظرة هذا الدين أو ذاك للآخر وللعلاقة معه[١]... فكيف نتعامل مع هذا التقسيم فى ظل الحملات الدعائية الجائرة ضد الإسلام فى الغرب بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وخوض الخائضين فى الخطاب الخاص أو المغلق للدين الإسلامى، وهو الأمر الذى يفتح مجال الحوار الثيولوجي البحت على مصراعيه؟

---

(١)راجع لكاتب السطور «الخطاب الدينى المؤسس فى مصر: الآليات والتوجهات» [قراءة لخطابات شيخ الأزهر والبابا والمفتى «تقرير الحالة الدينية» – مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، الأهرام ١٩٩٥].

٤- كيف نعالج المصاحبة التعميمية لتعبير «حوار الأديان» ليكون مرادفًا للخوض فى البعد الثيولوجى البحت فقط[١]... وليس التفاعل بين أصحاب الأديان لعلاج موضوعات ومشاكل مشتركة تخص كل البشر كمكافحة الفقر وكالسلام العادل ومعالجة المرض ومشاكل البيئة إلى آخره؟

حالتان تفاعليتان:

الحالة #1: ما بين الحوار الدينى وكتاب مايكل هارت «العظماء مائة...وأعظمهم محمد ﷺ»

فى واحد من لقاءات بعنوان حوار الثقافات لا الأديان، سأل أحد الحاضرين المحاضر الذى تحفظ على فتح الحوار الدينى - الدينى على مصراعيه، وكان السؤال من الواقع الغربى ذى الخلفيات والتخصص الدينى: «هل أنت بتحفظك على بعد الحوار الدينى - الدينى/الثيولوجى تدعو حقًا لحرية وانفتاح الحوار، أو أنك بالفعل مقيد ومصادر للحوار بهذا التحفظ؟».

فأجاب المحاضر بأن التحفظ ليس - ولا يمكن أن يكون - على الحوار الدينى - الدينى على الإطلاق، ولكن ما يتحفظ عليه هو ذلك الحوار الذى يتم دون الشروط المناسبة مثل العلم الكافى، وألا ينقل الحوار من هذا النوع بين العامة وإلى الإعلام عن طريق غير المؤهلين الذين قد يتسببون فى أجواء من التشاحن والبغضاء والفتن، من هنا فإن التحفظ والشروط من أجل عدم إيجاد أجواء التناحر أو السجال

(١)راجع وقائع مقابلة مع واحد من أبرز الفقهاء المصريين وهو د. محمد رأفت عثمان، وجاء عنوانها «لا لحوار الأديان، والإسلام ضد صدام الحضارات»، الأهرام الرياضى ٢٠٠٤/١١/٨م.

الدينى فقط؛ أى أن نضع القيد المانع لاحتمال حدوث «الفوضى» التى قد تنشأ من خلال ممارسة هذا النوع. وأضاف المحاضر: إن ممارسة الفكر التبشيرى فى الحوار مع عامة الناس فى دولة إسلامية مثلاً تعتبر لدى المسلمين حالة من العداء والعدوان... ولكن الحوار المنضبط بهدف التعرف والمعرفة لا غبار عليه... فمثلاً عندما يتطرق الحديث لكتاب مثل كتاب المفكر الأمريكى الشهير مايكل هارت ـ وهو عالم متخصص فى الرياضيات والقانون ـ بعنوان «المائة: قائمة بأكثر الشخصيات تأثيرًا فى التاريخ»[1]. تتم مناقشة الكاتب كما يحدث اليوم فى أسباب وضعه للرسول محمد ﷺ رقم (١) على قائمة أكثر عظماء التاريخ تأثيرًا فى تاريخ البشرية، وهو الأمر الذى فتح النقاش فيه مايكل هارت وهو أستاذ أمريكى معروف ـ غير مسلم (مسيحى كاثوليكى) ـ وطالب كل من لديه من أسباب مخالفة بأن يتقدم له بها، وكذلك كل من لديه شخصيات لم ترد فى قائمة المائة شخص التى وضعها، وقد وضع رسول الإسلام ﷺ رقم (١) فى القائمة لأسباب موضوعية تتعلق بمعايير ما يعرف فى علم الإدارة بمعايير وسمات «القائد التحويلى أو المغير» لآفاق الأوضاع على نحو إيجابى "Transformational Leader"؛ كما كان يغير هذه القائمة على مدى السنين طبقًا لما يأتى إليه من بيانات مستجدة ممن يحاورونه، ولكنه كان فى كل سنة يُحَدِّثُ كتابه الشهير هذا ويغير مواقع الكثيرين بعد النقاش معه، لكنه كان يضع الرسول محمدًا ﷺ على قمة القائمة (رقم ١). ولقد رصد الباحث المصرى د. على الزهيرى مثل هذه النقاشات الدائرة حول هذا الموضوع فى الغرب فى إطار رسالة للدكتوراه (من

(1) Hart, M; H., The 100: Aranking of the most influential persons in History. N. Y, Kensington. Publishing 1978.

جامعة هوارد الأمريكية) عن السمات القيادية لشخص الرسول محمد ﷺ[١]، فهذا الحوار وإن دخل فى دائرة علوم الإدارة وعلوم الاجتماع وصناعة القرارات فإن بُعْد الحوار الدينى ـ الدينى يظل عاليًا ومرتفع الوتيرة للغاية، ولكن فى إطار المعرفة الموضوعية، ولمَ لا...؟! فهكذا كانت مثلاً مناقشة رسالة دكتوراه فى أروقة جامعة هوارد، وهنا أقر الجميع فى تلك المحاضرة أن الحوار الدينى ـ الدينى إذا دخل فى إطار المعرفة الموضوعية ومبدأ القانون الدولى «فى حق الآخر لأن يعرف (فى أى مجال)» فلا بأس. من هنا قد لا يكون من العملى أن نسمع من يقول: «لا للحوار الدينى ـ الدينى على الإطلاق!» لأن فى ذلك تعسفًا وانغلاقًا، ولكن نعم لترشيد الحوار وضبطه بما لا يسبب المشاكل والفتن... ولا للوصول بهذا النوع من الحوار الذى يحتاج إلى علماء من المتدينين من أصحاب الديانات المختلفة، فالخطر أن ينزل إلى مستوى الدهماء أو الجهلاء أو مثيرى الشغب والفتن فى أى مكان فى العالم.

الحالة التفاعلية #2، ما بين حديث جورج ليونارد كارى كبير أساقفة كانتربرى فى الأزهر والتحذير من الحوار الدينى ـ الدينى

فى أثناء زيارة لى لألمانيا للمشاركة فى فعاليات عن حوار الثقافات والأديان مؤخرًا (أكتوبر ٢٠٠٤) سلمنى أحد الباحثين الألمان مقالاً نُشر فى صحيفة فرانكفورتر ألجامين الألمانية فى ١٥/٥/٢٠٠٤م[٢] ودار حول محتواه حوار بينى وبينه من عدة أوجه،

(١) للتفاصيل راجع أطروحة على الزهيرى بالإنجليزية:

Zohery, Ali, Thematic Analysis of Values in The public Communication of Prophet Muhammad, Adissertation, Howard University, Washington D.C. 2004.

(2) Goerlach, Alexander, Die neve Weltunterordung # 113, 15.05.2004, seite 45.

ولكن كان جوهر هذا المقال عن موضع «الحوار الديني - الديني/الثيولوجي» وإن كاتب المقال يتحفظ على هذا الحوار وأحسبه محقًّا إن جاء التفاعل مقحمًا أو اتسم بالعدوانية أو الاستعلاء من أحد أطراف الحوار، ولكن المقال كان مليئًا أيضًا بالأخطاء والادعاءات غير الصحيحة والافتعال من جانب كاتبه - مع الأسف - في أجزاء ليس الدخول فيها موضوعنا هنا... ولكن ما تمخض عن إثارة موضوع هذا المقال هو أن أشرت إلى خطورة ما يشبه مطالبة الآخرين فى العالم الإسلامى بموقف دفاعى اعتذارى، فى الوقت الذى تمارس فيه آلة الإعلام الغربى أسوأ الصور الممنهجة لاغتيال الشخصية العربية الإسلامية، كما توجد الكثير من الممارسات التى تأثرت بهذه الصور السلبية فى أفعالها وردود أفعالها من الجاليات المسلمة، الأمر الذى تنبه إليه كل المنصفين فى العالم وليس أبلغ من ذلك دعوة كوفى عنان التحذيرية المتكررة، من خطورة ربط الإرهاب بالإسلام (وكان آخر هذه النداءات فى فبراير ٢٠٠٤م).

وهنا وعندما سُئلت عن اقتراحاتى لهم للمشاركة فى رفع الحملة الجائرة ضد الإسلام، قلت لهم على سبيل المثال لا الحصر، إن المجلس البريطانى الإسلامى فى لندن قام مؤخرًا بطبع ونشر كتب تصحح الأخطاء والصور السلبية الجائرة ضد الإسلام والمسلمين، وحظيت هذه الفكرة هناك بتجاوب العديد فى بريطانيا وتعاطفهم معها كجزء من تصحيح الأخطاء وخلق الأجواء الإيجابية للتفاعل الإنسانى الإيجابى والخلاق، فقال الباحث الهولندى الذى كنت أتحاور معه: أنت تريد أن تنشر الإسلام إذن؟!... والمقال موضوع المناقشة وغيره من مقالات أخرى كانت تهاجم الأزهر لإرساله دعاة إلى ألمانيا خاصة من كلية

اللغات، وهذا الأمر من الأمور ذات الحساسية، فكانت إجابتى هى أن بألمانيا عدة ملايين من المسلمين، وتوعيتهم بجوهر الدين الإسلامى الحنيف هى فى صالح ألمانيا وغيرها، وأن الموفدين من الأزهر يلتزمون أشد الالتزام بالابتعاد عن أى أمور حساسة، وأن الإسلام والمسلمين ليسوا بحاجة لمن يدخلون إلى الدين الإسلامى، ولكن إذا جاء إليهم من يسألهم ليعرف ويناقشهم فعليهم أن يناقشوه، ففى هذا الحد الأدنى من الحرية المسئولة والكرامة الإنسانية التى تسمح بالحوار المنفتح الذى تراعى فيه كل أساليب الكياسة والاحترام المتبادل ومراعاة شعور وعقائد الآخرين، وأن الإسلام أحرص من يؤكد على هذه القيم، وهنا أشرت إلى كلمة متميزة ألقاها جورج ليونارد كارى كبير أساقفة كانتربيرى في زيارته للأزهر، حيث استُقبل بحفاوة كبيرة تعبر عن جوهر ما تثيره هذه الحالة التفاعلية حين قال تحت عنوان: الانفتاح لا الانغلاق «إن هناك تقديرًا عميقًا للدور الذى يمكن أن يؤديه الإسلام لبريطانيا فى المستقبل... وإن التسامح الحقيقى يتحقق من خلال اللقاء والانفتاح، ومن ثم تختفى العداوات المبنية على التخويف الزائد... ولكى ننجح فى هذا فإنه علينا أن نواجه المشكلة الأساسية التى تقف حجر عثرة فى طريق هذا الانفتاح. والواقع أن الإسلام والمسيحية ديانتان لهما رسالة تؤديانها، فكلتاهما تطرحان فرضيات مطلقة وكلتاهما لديهما الرغبة القوية فى نشر دينها، وهذا جزء لا يتجزأ من دياناتنا، وهى حقيقة لا تتطلب الاعتذار عنها أو إنكارها فقد أمر القرآن الكريم المسلمين بهذا فى الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ تمامًا كما أمر الكتاب المقدس المسيحيين قائلاً: «اذهبوا إلى جميع الأمم وبشروهم بكلمة الله».

ويضيف أسقف كانتربيرى قائلاً: «هل يمكن للذين يخلصون الإيمان بقلوبهم ويؤمنون بأن دينهم هو عقيدة ذات رسالة تدعو للحقيقة والقداسة أن يدخلوا فى حوار؟ وأجيب: نعم، من الممكن ما دام لدينا الاستعداد لسماع الآخرين وما دمنا ملتزمين بالسلام والرغبة فى الفهم. وكما يعلم الكثيرون فى هذا المقام فإننى متمسك لأقصى الحدود بمعتقداتى كمسيحى، ولكن هذا لا يقلل من استعدادى للسماع والتعلم والتزود، ولكن من الضرورى بالنسبة لنا أن ندرك أن الطريقة التى نتعصب بها لها انعكاساتها على عقائد الآخرين. فأى من دياناتنا لا يأمرنا بنشر دعوتنا عن طريق الكبر والخداع واللامسئولية. ولكن هل لدى دياناتنا الاستعداد الصادق لتنمية هذا الانفتاح؟ هل نسعى نحو منح عقائد الآخرين نفس الحقوق التى نمنحها لعقيدتنا؟ فهذه المسألة أصبحت تتطلب الإجابة فى جميع أنحاء العالم، فالأقليات المسلمة فى الغرب تطالب بحقها فى ممارسة شعائر عقيدتها بحرية وأن يكون لها الحق فى بناء المساجد وتنشئة أطفالها طبقًا لتعاليم الإسلام، وبالمثل تصلنى نداءات من الأقليات المسيحية فى أجزاء عديدة من العالم تطالب بحريتها الكاملة، وأعتقد أن مصر بتقاليدها العريقة التى تعود لقرون طويلة من الترحاب والتعايش المشترك بين الكنيسة القبطية القديمة وجيرانها من الأغلبية المسلمة تضرب مثلاً مثيرًا للإعجاب وجديرًا بالأخذ فى الاعتبار».. ويقول كذلك:

«فهذا النوع من الانفتاح ينبغى أن يكون نموذجًا يحتذى به فى أجزاء عدة من العالم. على الرغم من التهديد المستمر له بكل أسف من جانب هؤلاء الذين يجنحون لسبب ما إلى الانغلاق[1]».

---

(١) راجع النص الكامل للمحاضرة التى ألقاها چورچ ليونارد كارى، كبير أساقفة كانتربيرى، رئيس الكنيسة الإنجيلية فى بريطانيا فى زيارته للأزهر الشريف فى ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، وجاءت بعنوان: «التحديات التى تواجه الحوار الإسلامى ـ المسيحى» بالإنجليزية وترجمت إلى العربية.

خلاصة ما يمكن قوله في إطار هذا الخطاب الديني - الديني الثيولوجي هي أن الأرضية المشتركة بخصوصه تتمثل في:

١- التحذير من الخوف الزائد من الحوار الديني.

٢- عدم المنع أو التحفظ على الحوار الديني - الديني بصورة إطلاقية كما ذهب إلى ذلك البعض، بل الترشيد والابتعاد عن التعصب والانغلاق والتحلي بالصبر والخلق الطيب وعدم الاستعلاء، ففي هذا صمام الأمان وفي إطار هذه الصفات يتأسس جوهر الأرضية المشتركة ذات المستوى الأعلى.

٣- إن الأرضية المشتركة القائمة في الجامعات ذات الطابع الديني قوية ومستقرة منذ مئات السنين كما في الأزهر الشريف، ويشاركه في هذا المناخ عشرات، بل مئات أقسام الديانات المقارنة في عشرات ومئات الجامعات عبر العالم كله... وهي معروفة وتتمثل في صُلب الأخلاق الدينية الأساسية في جميع الأديان وفي البحث العلمي الصارم والمنضبط والمبني على اكتشاف الحقائق الموضوعية بالأدلة والبراهين العلمية، فلا داعي للمبالغات في التحفظ السلبي على هذا البعد الحيوي للأديان وللشعوب.

إن من أهم الأسئلة التدريبية التي نختتم بها حديثنا حول هذا البعد من خطابات الخريطة الذهنية تتمثل في السؤال التالي:

ماذا عن أهمية الخوض التقني في أفعال القول (Speech Acts) التالية وتوضيحها، والمرتبطة بمستويات هذا الخطاب في عمليات الحوار والتفاوض (مع التمثيل بأمثلة وحالات تفاعلية تحتاج إلى التقويم والتقييم...) مثل:

- ماذا عن دراسة عمليات الإقناع Persuasive Processes ؟ وكيف نفصل بين فعل الإقناع وفعل «غسل المخ» Indoctrination؟
- ماذا عن فعل «نشر الدعوة» Probagation؟ وماذا عن فعل «التبشير والوعظ» Proselytizing؟
- ماذا عن التحول من دين إلى آخر Converting؟ وماذا عن مفهوم التكامل Perfecting؟
- ماذا عن مفهوم تعديل السلوك Behavior Modification؟ وماذا عن مفهوم الحصول على المعلومة الصحيحة (Information getting)؟ وماذا عن قيم الحوار الإيجابى المتعلقة بالأسئلة أعلاه؟

ثانيا : خطاب «كمائن حوارات الأديان» Interreligious dialogue Traps ومسألة الأجندة المتخفية Hidden Agenda فى الحوار عبر الثقافات:

وهو ما أسميه بالإنجليزية:

Discourse of religions dialogue ambushes & traps and the issue of "the hidden agenda".

فى أكثر من حوار لى فى واقعنا الثقافى العربى الإسلامى - مع مثقفين لهم وزنهم المعروف - وجدت فكرة خطاب الكمائن واضحة للغاية، حيث يتم تصوير «حوارات الثقافات» و«الحضارات والأديان» على أنها «المجال للإيقاع بنا» حيث قال أحدهم «أنا لا أعرف ما المقصود بمثل هذه الحوارات سوى أنها ستؤدى إلى كارثة، واحنا فرحانين بيها!!...». وقال آخر «الهدف هو تصفيتنا من خلال هذه الحوارات... واستغلال وسطاء من ذوى النية الحسنة... ليروجوا لها...». وكان من أكثر المقالات تعبيرًا عن وجهة النظر هذه من بنك بيانات هذه الدراسة مقال للأستاذ صلاح الدين حافظ كتبه منذ فترة طويلة

وجاء عنوانه متضمنًا كلمة «الكمائن»[1] بشكل مباشر... وليس هذا هو المقال الوحيد بالطبع، بل هناك العديد من الآراء والتصريحات لمثقفين وباحثين يعبر عن هذا المعنى، ولقد رصد العديد من الباحثين المعنيين بحوار الحضارات والثقافات والأديان هذا الرأى فى التصنيف العام لدراسات عديدة نشرها برنامج حوار الحضارات بجامعة القاهرة التى صنفت الخطابات «العربية والغربية» على فئتين فى سياق دراسات بعينها وهى خطابات ترى جدوى للحوار وخطابات لا ترى أى جدوى ورافضة للحوار[2]. وهناك من صنف الخطابات إلى «ليبرالية» إسلامية ويسارية عربية[3] وتضمن فى تصنيفه الآراء الرافضة والمؤيدة وحجج كل طرف.

وإذا كان خطاب «الكمائن» هذا يولد أسئلة بعينها للتأمل والاعتبار فى مناقشة حوار الحضارات والأديان والثقافات وفى واقع الممارسة وفى حلقات التدريب على الحوار والتفاوض بشكل عام فى جميع السياقات، فإن هذه الأسئلة تتعلق بنظرية المؤامرة وتأثيراتها على الحوار والتفاوض عمومًا، وحوار الثقافات والأديان خاصة، وهو الأمر الذى شرعت فى كتابة دراسة تفصيلية عنه منذ فترة ـ ولم أنته منها بعد ـ[4] ولكن من المهم رصد أهم هذه الأسئلة هنا، وهى:

(١) راجع مقال أ. صلاح الدين حافظ بعنوان «حوار الأديان... وكمائن المؤتمرات!» ١٢/٧/ ٩٤ الأهرام.

(٢) راجع كتاب خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات، سلسلة محاضرات حوار الحضارات، جامعة القاهرة ـ برنامج حوار الحضارات بالاشتراك مع دار السلام ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٣) السابق، بحث للسيد ياسين بعنوان «تقييم تجارب حوار الحضارات».

(٤) نظرية المؤامرة وشخصية المفاوض وسمات الحوار، دراسة لأشهر الشخصيات والأحداث الدولية من منظور لغويات التفاوض وإدارة الأزمات، دراسة فى طور النشر لكاتب هذه السطور.

أسئلة الفلتر الذهنى «مبدأ كشف الأوراق» و «المؤامرات الوهمية»:

١- ما سمات خطابات نظرية المؤامرة من البعد اللغوى الاجتماعى السياسى داخل وعبر الثقافات؟

٢- إلى أى مدى يكتشف المتحاورون أو المتفاوضون السمات الوهمية «لمؤامرات» لا أساس لها من الصحة Fake Conspiracies؟ وإلى أى مدى يثبتون بالدليل الحاسم والقاطع وجود مثل هذه المؤامرات؟

٣- ماذا عن مفهوم «الفلتر التفاعلى» Interactional Filter؟ وكيف يؤثر سلبًا أو إيجابًا على فهم ما يطرح فى الحوار والتفاوض على حقيقته دون فرض ما لا ينطبق عليه؟ وماذا عن الحالة النفسية للمتحدث أو المتفاوض المسيطرة على آرائه؟ وما السبيل إلى استدراك أخطاء «التآمر الوهمى» السلبية للغاية، وكذلك التعامل مع «المؤامرة» بعد ثبوت الدليل الحاسم عليها؟

أما فيما يتعلق بجزئية أفعال القول الخاصة وأسئلتها بهذا الخطاب فهى عديدة وتحتاج إلى تفاصيل، ولكن نذكر أهمها فيما يلى:

كيف ينبغى أن يتعامل المتفاوضون مع أفعال القول والظواهر التالية التى قد تحدث فى عمليات التفاوض وهى:

- ماذا عن التعامل مع استراتيجيات «الخداع»؟
- ماذا عن ترسيخ مبدأ كشف الأوراق التفاعلية Disclosure؟
- ماذا عن مفهوم التفاوض على أساس المصالح المشتركة Interest-Based Negotiation؟

ثالثا: خطاب وسيناريوهات المعلومات الناقصة وإشكالية «مربعات التفاوض السلبى الخاصة بهذا المستوى من الخريطة الذهنية»

هناك فجوتان تحتاجان منا، فى العالم العربى الإسلامى خاصة، التعامل الإيجابى معهما، وهما: (١) فجوة الإدارة Management Gap (٢) فجوة المعلومات Information Gap، والأخيرة تتطلب التعامل الإيجابى معها فى كل من العالم العربى الإسلامى وفى الغرب بشكل من التعاون البناء؛ لأنها لا تزال فجوة حقيقية فى العالم كله بمستويات متعددة.

فجوة المعلومات والجلطة المعلوماتية ومباريات المعلومات:

إن الحديث عن فجوة المعلومات فى هذا العصر يبدو غريبًا بعض الشىء من قبل البعض؛ وذلك لأن مصطلح «فجوة المعلومات» ارتبط ويرتبط عادة «بنقص المعلومات»، وفى عصر قد سمى «بعصر المعلومات» Information Age واتسم «بالانفجار المعلوماتى» (Information Explosion) أو «بالجلطة المعلوماتية» (Infoglut) يجعل المرء يقول بأن «نقص المعلومات» قد أصبح شيئًا من الماضى... وبالتالى لا يوجد ما نطلق عليه «فجوة المعلومات»، ولكن هذا الجزء من الدراسة يعنى بتوضيح أهم مصطلحات عصر المعلومات والصعوبات التى تأتى بها تلك المصطلحات فيما يتعلق بعمليات التفاوض والحوار، وذلك من منظور علم اللغويات خاصة الذى يُعد من أهم العلوم الحديثة التى تعاملت مع مفهوم المعلومات والمعلوماتية (Informatics). ولعل دراسات عالم اللغويات والناشط السياسى المعروف نعوم تشومسكى هى من أهم الدراسات ذات

العلاقة بالمعلوماتية واللغة، والعمليات العقلية/الذهنية[1]، كذلك هناك كتاب نعده من الكلاسيكيات في علم اللغويات وهو بعنوان «المعلومات وعلوم اللغة»[2]، ولعل من المهم أن نركز هنا على أهم المصطلحات الرئيسية ذات العلاقة المباشرة بدراستنا ونسميها مباريات المعلومات Information Games

١- المعلومات Information والمعلوماتية Informatics والبيانات Data.

٢- المعلومات والمعلومات الناقصة Information Missing/Lacking.

٣- المعلومات والمعلومات الخاطئة Misinformation.

٤- المعلومات والمعلومات المضللة Disinformation.

٥- المعلومات والدعاية Propaganda.

وفيما يلي التعريفات الفارقة بين المستويات الخمسة المذكورة أعلاه:

١- المعلومات والمعلوماتية والبيانات

يعرف قاموس أكسفورد مفهوم المعلومات كاسم (Noun) (Information) بأنها «المعرفة المتداولة بخصوص حقيقة ما،

---

(١) راجع على سبيل المثال لا الحصر:

Chomsky, Noam, Language and Mind, New York: Karcourt Brace 1972.

(٢) راجع:

Freeman, Robert & Aljred Pietrzyk: Information & Language Sciences, proceedings of the conference sponsored by the center for applied linguistics 1966, American Elsevier Publishing Company, Inc. NY 1968.

أو موضوع أو حدث ما»[1]. ومفهوم المعلومات يختلف عن مفهوم البيانات Data؛ فمثلاً «٨ ملايين» و«٩٪» مجرد بيانات، أما المعلومة فهى: «أن تعداد المدينة (أ) فى عام ٢٠٠٠ قد وصل إلى ٨ ملايين نسمة؛ أى أن هناك نموًا بمقدار ٩٪ منذ التسعينيات».

أما المعلوماتية فهى «تصنيع المعلومات بحيث تصبح سلعة قابلة للبيع..».

والمعلومات قد تكون سهلة ومفهومة وقد تكون معقدة وغير مفهومة، ويتوقف ذلك على خلفيتنا وعلمنا بالموضوع وسياقه.

٢- المعلومات الناقصة Information Missing

أى أن تكون المعلومات ناقصة.. بحيث تكون الأجزاء المذكورة فى سياقها صحيحة ولكنها ناقصة بشكل أو بآخر.

٣- المعلومات الخاطئة Misinformation

وهى تداول مقولات غير صحيحة؛ أى أن أذكر لك مثلاً مصطلحًا وأعرفه بطريقة خاطئة بعيدًا عن أصله العلمى، أو أذكر لك حدثًا بعيدًا عن الصحة فى نقله.

٤- أما المعلومات المضللة Disinformation

فهى تختلف عن المعلومات الخاطئة فى أن كلتيهما تتضمن الخطأ أو عدم الصحة فى النقل أو الوصف الدقيق، ولكن الفرق أن المعلومات الخاطئة إذا ما حدثت فتكون بلا قصد أو نية للتحريف، أما المعلومات المضللة فهى تلك التى يستخدم فيها طرف ما المعلومات بطريقة متعمدة لإخفاء حقائق وإظهار أو افتعال أخرى بقصد الإخفاء والتمويه والتضليل.

(١) قاموس أكسفورد، الطبعة الثانية ١٩٨٩.

٥- الدعاية Propaganda

هى استخدام المعلومات بغرض إظهار زاوية معينة من الطرح، ولها أساليب عديدة لتلوين الكلام والتلاعب به Manipulation، ومفهوم الدعاية قد يكون معتمدًا على الكذب، وقد تكون بمثابة التركيز على حقائق بعينها وترك حقائق أخرى ذات علاقة بالأمر، وبالتالى هى الأقرب لمفهوم المعلومات الناقصة أحيانًا والمضللة أحيانًا أخرى، ولكنها ضد مفهوم المعلومات الصحيحة "Correct Information". وسوف نتناول بالتفصيل أمر الدعاية والمعلومات المضللة فى المستوى الرابع من خطابات الخريطة الذهنية لهذه الدراسة، وسنركز هنا على المعلومات الناقصة والخاطئة.

حالات تفاعلية بخصوص مفاهيم خطاب المعلومات الناقصة والخاطئة:

ما أكثر تلك الأمثلة فى التفاعل، سواء كانت فى العالم العربى الإسلامى أو فى الغرب على السواء! فهناك حالات حوارية تفاوضية كان سبب فشلها وإخفاق الأطراف المتفاوضة هو وجود معلومات ناقصة أو معلومات خاطئة، وهنا يكون مبدأ «حسن الظن» هو المبدأ الغالب أو المفترض، ولعل من المهم تقديم أمثلة لحالات المعلومات الناقصة أو الخاطئة التى تحققت بنفسى من أنها كذلك وذلك فيما يلى:

١- حالة التفاعل مع أستاذ أمريكى:

فى سياق النقاش حول الحوار عبر الثقافات، قال لى أستاذ جامعى أمريكى: «المشكلة فى العالم الإسلامى أنه عندما يطرح المسلمون رأيًا، فإنهم يتوقعون أن تقول بعده آمين...». فقلت له: هذه

معلومة خاطئة لا يمكن أن تعمم هكذا، وذكرت له الآية القرآنية الكريمة من سورة سبأ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤ ـ ٢٦].

٢- حالة «عبدة الآلهة والأصنام» و«المحمديين» ذكرها محمد مارمادوك بكتال:

كتب المستشرق المسلم الذى قدم ترجمة لمعانى القرآن الكريم مثالاً مهمًا فى دراسته القيمة التى كتبها عام ١٩٢٧ نستشهد به للتدليل على كارثة المعلومات الخاطئة/الناقصة، والمضللة معًا: حيث يقول:

«إن كانت حقائق الإسلام معروفة دون تزييف ومعلومات خاطئة لما أمكن تعبئة الشعب المسيحى ليخوض الحروب الصليبية التى حدثت فى القرن الثانى عشر، ويذكر كيف أن شيوع ترادف كلمات المسلمين، الوثنيين، عبدة الآلهة والأصنام والمحمديين (Opolane & God Mohammadans) قد ترسخ فى أذهان الغربيين تمامًا إلى الحد الذى دفع الإمبراطور تشارلز الذى دخل مدينة سارجوسا أن يأمر قواته بعد تغلبه على المسلمين قائلاً: «ابحثوا فى كل مسجد وأحضروا تمثال محمد وكل تماثيل الآلهة التى يعبدها المسلمون وحطموها بالمطارق الحديدية»[1].

(١) راجع مقال بكتال، محمد مارمادوك، «التسامح فى الإسلام» مع مقدمة للدكتور زاهور حق عام ١٩٧٧، منشورة على شبكة المعلومات على الموقع التالى: http://www.cyberistan.or.

٣- حالتان من الواقع العربى الإسلامى عن الدور السلبى للمعلومات الخاطئة والناقصة فى الحياة العلمية والإنسانية وفى حوار الحضارات والثقافات.

٣-١ التعريف الجائر للمصطلحات العلمية باعتبارها إحدى معضلات حوار الثقافات!!

عندما صرح الأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان مؤخرًا بأنه على العالم أن يتكاتف لوقف الحملة الجائرة على الإسلام والمسلمين، علم الكثيرون أن هناك العديد من أصحاب العقول المنصفة فى هذا العالم ممن يرون حقيقة التزييف والترويج الخاطئ والناقص والمضلل للمعلومات عن ثقافة العرب والمسلمين التى تتعرض لحملات ممنهجة وجائرة بلا أدنى شك.. ولكى نساعد أنفسنا وننظم صفوفنا للتصدى العلمى والمنهجى لهذه الحملات الجائرة ـ فلابد من أن نتحلى بأداء تفاوضى مرتفع وعلمى فى المقام الأول؛ فلقد وجدت من خلال الكثير من التفاعلات الدولية أن حجتنا عندما تتسم بالتحليل العلمى الصارم المنطلق من القواعد المقصدية للدين الحنيف تكون موضع الاحترام والتقدير الكبير من الحاضرين وتصحح الكثير من الأوضاع الخاطئة والتى نعانيها فى ظل الحملات الجائرة المكثفة، والتى يمكننا التعامل معها بإيجابية ودون يأس لإحقاق الحق. من هنا ألتقط حالة تفاعلية مهمة دارت فى خضم تفاعلات حول مفهوم حوار الحضارات فى طرح أحد كبار مثقفينا ممن نُكنُّ لشخصهم الكريم الاحترام، حيث يذكر:

حالة مصطلح «التثاقف»:

«...وكان من آثار هذا النموذج الغربى الحديث «صراع الحضارات» محاولة القضاء على الثقافات الوطنية، واللغات المحلية باسم التثاقف أو المثاقفة (Acculturation)، وتعنى فى الظاهر

التحديث والتمدن والتفاعل الثقافى، والحوار المتبادل والأخذ والعطاء، وفى الحقيقة تعنى التغريب، وانتشار ثقافة المركز على ثقافة الأطراف... إلخ»[١].

الخلط بين مفهوم «الإحلال الثقافى» ومفهوم «التثاقف»:

وقبل ممارسة النقد الإيجابى للطرح السابق لابد من التنويه إلى الجهود المتميزة والمكثفة والمطلوبة إلى أبعد الحدود، والتى يقوم بها أعضاء هذا البرنامج المتميز بجامعة القاهرة العريقة، والمشكلة الرئيسية فى الطرح السابق هى أن كاتبه كان يمكن له أن يثبته بسهولة من واقع تفاعلات كثيرة يراها الجميع اليوم دون الحديث عن مفاهيم علمية خاطئة وتحت مفهوم مثل مفهوم «الإحلال الثقافى» مثلاً «Cultural Displacement» أو فى إطار مفهوم الهيمنة الثقافية Cultural Hedgamony، ولكن دون أن يتم الزج بمصطلح علمى «كالتثاقف» ـ كما هو فى النص السابق ـ وتعريفه تعريفًا خاطئًا تمامًا عن معناه العلمي الواضح والصارم والمفيد جدًا لنا وللعالم أجمع، والذى لا علاقة له مطلقًا «بالمركز والهامش» و«القضاء على الثقافات الوطنية» إلى آخر هذه «التعبيرات الدرامية» للغاية..

فمصطلح «التثاقف» acculturation جاء من رحم التفاعلات العلمية الصارمة لعلماء اللغويات التطبيقية واللغويات الذهنية "Cognitive Linguistics" وساهم فى تطويره، وطرحه عدد من خبراء علم اللغويات من ذوى الكفاءة العلمية العالية جدًا الذين لم يقحموا أى بعد سياسى فى

(١) راجع حنفى حسن «خطابات عربية وغربية فى حوار الحضارات»: الناشر، جامعة القاهرة ـ برنامج حوار الحضارات ٢٠٠٤، (ص٦٢).

علمهم فى هذا الموضوع. ومن المهم شرح المقصود فنقول: إن مفهوم «التثاقف» يعنى أساسًا أربع مراحل يمر بها متعلم اللغة والثقافة الهدف أيًّا كانت هذه اللغة أو هذه الثقافة.

فالصينى الذى يتعلم الفرنسية يمر بهذه المراحل، مثله فى ذلك مثل الروسى أو العربى أو الأمريكى أو سمِّه ما شئت عندما يتعلم أى لغة وثقافة أخرى... وهذه المراحل هى:

١- مرحلة التعرض الأولى للغة وثقافة جديدة، حيث يقوم المتعلم بنوع من التقريب والمقارنة بين نظامه اللغوى ونظامه الثقافى الأصلى واللغة والثقافة التى يريد أن يتعلمها؛ (أى يكون بصدد إيجاد نظام زمنى تقريبى مقارن Approximate System).

٢- يحدث من جراء هذه التفاعلات اللغوية والثقافية بين نظام لغتين وثقافتين وصول المتحدث إلى مرحلة لغة هجين بين لغته وثقافته الأم واللغة والثقافة المستهدفة «الهجين» و«تحليل الأخطاء».. لتحسين مستواه.

٣- قد يظل متعلم اللغة والثقافة المستهدفة فى مرحلة اللغة الهجين والأخطاء بمستويات متعددة، وهذه المرحلة إن لم يتخطها ويتحسن فى أدائه تسمى بمرحلة «الجمود» "Frozen State" كما سماها بذلك عالم اللغويات مارك كلارك، أو فى مراحلها المتدهورة كما سماها لارى سيلينكر[1] بمرحلة أصعب وهى

---

(١) للتفاصيل راجع:

Acton, William & deflix, Tudith ″Acultureation & mind″ in Culture Bound: Bridging the Cultural Gap in Language Teaching, Joycp Merill Valdes, Cambridge, University Press 1986.

«التحجر» "Fossilization" فتظل لغة المتعلم لها سمات متحجرة من الأخطاء فى القواعد وفهم آليات اللغة، وفى عدم فهم الثقافة الأخرى كما هى فى حقيقتها.

٤- قد ينطلق متعلم اللغة إلى مرحلة آفاق الأداء التفاعلى الرفيع فيتخطى مرحلة التجمد بسرعة، إن مر بها. [للقارئ المهتم: راجع مقال شامل بالإنجليزية عن المفهوم بعنوان «التثاقف والعقل الإنسانى - لكاتبه وليام أكتون فى كتاب بعنوان «عبور الفجوة الثقافية - لجويس ميرل من إصدارات جامعة كمبريدج ١٩٨٦م»].

المشكلة العميقة التى أثارها لدى خطأ التعريف العلمى لمفهوم التثاقف من قبل مفكرنا - ولكل جواد كبوة - هى أن من أكثر المشاكل التى تعيق نجاحنا فى حوار الثقافات والحضارات - الكم الأكبر من الذين يتحدثون اللغة الهدف والثقافة الهدف يندرجون أساسًا فى إطار المراحل الثلاث الأولى المذكورة فى إطار مفهوم «التثاقف»، أما الندرة النادرة فيمكن القول بوصولها إلى المرحلة الرابعة، ولذلك ليس لدينا الكثير - مع كل الأسف - من أمثال إدوارد سعيد على سبيل المثال لا الحصر.

والمشكلة تكمن أيضًا فى أن فهمنا للتثاقف والإتقان الرفيع للغة المستهدفة وثقافتها لا تعنى أبدًا الذوبان، بل تعنى فى المقام الأول تحقيق قدرات مهارية عالية من أفعال القول التالية:

١- قدرة المتفاعل على فهم معنى التقمص الإيجابى Empathy؛ أى أن يستطيع تصور زاوية الرؤية التى ينظر منها الطرف الآخر للأمور وبالتالى فهم الآخر بشكل أعمق.

٢- فهم دوافع الآخر الحقيقية بدقة.

٣- إدارة الاختلاف معه بشكل إيجابى بعيدًا عن الاندهاش والاحتقان والتحدث من خلال مفاتيح إقناعية ثقافية ذات درجة وصول عالية للثقافة الأخرى وإتقانها لإحداث التأثير التفاوضى الإيجابى، من هنا يذهب الكثير من شيوخنا الأجلاء والدبلوماسيين والإعلاميين من الباحثين إلى دول المشرق ودول المغرب من فئة المندرجين فى إطار مستويات المراحل الثلاث الأولى فى عملية التثاقف ذات الطبيعة التقنية فى المقام الأول، فلا تحقق لغتهم وأسلوبهم كل الأهداف التى يذهبون لتحقيقها أو قد يخفقون تمامًا إلا مَن رَحم ربى.. وهم ـ مع الأسف ـ من الندرة النادرة، فلعلنا نهتم بمفهوم «التثاقف» بمعناه ومستوياته التقنية المطلوب تحقيقها، فندرب كل من يتفاعل باسم هذه الأمة ونعده الإعداد اللغوى الثقافى للوصول إلى المرحلة الرابعة للمفهوم (فهى مرحلة فى الأداء التفاعلى تماثل (على سبيل التشبيه) الحصول على الأيزو الدولى فى مجال المعايير الصناعية المتميزة).

فإذا أردنا أن نضع للمعايير المرحلة الرابعة من التثاقف فهى المتمثلة فيما ذكرنا سابقًا من معايير تحقيق أفعال القول الأربعة السابقة، وبالتالى يجب ألا يكون لها أى علاقة بفكرة الذوبان فى الثقافات الأخرى؛ لأن مفهوم الذوبان هو مفهوم آخر تمامًا يكون عادة بقدر ما، وبالتالى إذا درسنا حالات الأفراد الناجحين خارج بلادهم وثقافتهم لتعرفنا منهم على كيفية مرورهم بهذه المراحل الأربع وتفوقهم فى المرحلة الرابعة المذكورة، ولوجدنا أن كل

الشخصيات الفذة التى نسعد بها فى تاريخنا القديم والحديث قد اجتازت تلك المرحلة الرابعة التى دائمًا ما سنجدها مسخرة تحت مفاهيم القيم العليا للثقافة الأم، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الكاتب والمفكر النيجيرى المعروف تشينواه اتثيبى يقول: «أنا أتحدث تلك الإنجليزية المؤثرة، والتى يفهمها تمامًا كل من يسمعها فى الغرب، ولكن يفهمون معها كذلك عمق الروح النيجيرية العالمية». لقد دافع كثير من المدافعين فى تاريخنا الحديث عن أمتهم وعن ثقافاتهم بلغة رفيعة ومؤثرة وصلت بلا شك للمرحلة الرابعة للتثاقف، ولكنها كانت دائمًا تحت سيطرة القيم العليا للثقافة وللغة الأم.. فماذا عن أداء مصطفى كامل فى باريس؟ وماذا عن الأداء المتميز لحنان عشراوى فى وسائل الإعلام الغربية؟ وماذا عن الأداء الفذ لإدوارد سعيد وهم يدافعون بمهارات عالية عن قضيتهم الفلسطينية، ولنسأل أنفسنا سؤالاً مهمًا هنا وهو: لماذا يدرس الغربيون «الأداء التفاوضى الرفيع» للناصر صلاح الدين الأيوبى، كما تفيدنا بذلك عدد من الدراسات من أهمها «صلاح الدين وسقوط مملكة أورشليم»؟ ألسنا إذن بحاجة إلى توضيح القيمة العلمية البحتة والحيوية لنا لمفهوم التثاقف وإظهار معناه الحقيقى المفتقد عندنا بدلاً من دمغه بأسلوب «المعلومات الخاطئة» تلك السمة التى أصبح العالم العربى الإسلامى والغرب معًا يعانون تأثيراتها السلبية؟ ولذلك وجب تصحيح المعلومات الخاطئة الخاصة بمفهوم التثاقف الذى ينبغى معرفته على حقيقته؛ لأنه يساعدنا كثيرًا فى تدريب كوادرنا التدريب التقنى اللائق بهذه الأمة العربية.

٣-٢ دور المعلومات الخاطئة والناقصة فى غلق قنوات الحوار! (من الواقع الغربى إلى الواقع العربى الإسلامى)

تسهم المعلومات الخاطئة والناقصة التى يتم تداولها فى التواصل داخل الثقافات أو عبرها بدور سلبى للغاية فى إحداث تأثيرات سلبية على أى حوار وأى تفاوض، وخطورة مثل هذه المعلومات الناقصة تزداد فى إطار الظروف الراهنة، ونحن نحاول الخوض الإيجابى فى حوارات الثقافات والأديان والحضارات. وإذا كنا نشتكى كثيرًا من الدور السلبى لهذه المعلومات الخاطئة والناقصة، فإن من المهم أن نستكمل مناقشة أهم الحالات الممثلة التى تخرج من واقعنا الثقافى كبداية منطقية وضرورية، وهنا أود أن أتناول ـ بالتحليل الموضوعى ـ مقالاً لأحد المفكرين المعروفين فى واقعنا الثقافى، والذى نقدر أعماله وكتاباته المتميزة فى سياقات عديدة، ولكننا نستدعى هنا ما طرحه من باب المداخلة الإيجابية.

الخلل المعلوماتى ومداخلة مع طرح للدكتور محمد عمارة: لقد جاء المقال ضمن سلسلة مقالات له بعنوان «صورة الإسلام فى الخطاب الغربى»[1]، وكاتبنا الكبير يخوض هنا فى موضوع على درجة كبيرة من الأهمية ونحتاج إلى كل جهوده وجهود الآخرين ممن يقدمون للقارئ العربى الصورة الدقيقة التى تصف ما يحدث، وينتقلون إلى الحالة العملية اللازمة لترسيخ الفعل الإيجابى لتصحيح الصورة والأصل معًا، ولكن ينبغى أن تكون أولى خطواتنا جميعًا نحو هذا الهدف السامى هو تحرى الدقة فى الوصف والتقيد بالرصد العلمى المنضبط وبالقاعدة المقصدية الكبرى فى الإسلام

(١) عمارة، محمد «صورة الإسلام فى الخطاب الغربى» صوت الأزهر ٢٩/ ١٠/ ٢٠٠٤.

«بعدم بخس الناس أشياءهم».. ولتوضيح بُعد المعلومات الناقصة/ الخاطئة فى طرح مقال د. عمارة. فرغم أنه يعلن فى بدايته أن «الغرب ليس واحدًا»، فإنه يتحدث بعد ذلك فى أجزاء من المقال بصور من الإطلاقية ذات البعد المعلوماتى الناقص والخاطئ معًا حين يذكر: «...فإن هذا النفى الغربى للإسلام وحضارته له جذور عميقة فى تصورات الثقافة الغربية عن الإسلام، وهذه الجذور الرافضة والنافية للآخر الإسلامى حية وفاعلة، بل ونامية حتى هذه اللحظات... ونجد ذلك فى المشروع الكنسى الغربى الذى أعلن بلسان البروتستانت فى مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م ضرورة اختراق الإسلام لتنصير كل المسلمين، كما أعلن هذا المشروع الكنسى بلسان الكاثوليك ضرورة أن تصبح إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م. فلما خاب الرجاء غير الصالح أجلوا التاريخ إلى ٢٠٢٥م. وتعبر عن هذا المشروع الكنسى حتى فرنسا العلمانية بلسان رئيسها الأسبق فاليرى جيسكار دى ستان عندما أعلن استحالة قبول تركيا فى الاتحاد الأوروبى؛ لأنها مسلمة والاتحاد الأوروبى «ناد مسيحى».. أما لسان الغرب الأرثوذكس فقد مارس هذا النفى للإسلام بالمجازر والمقابر الجماعية، على أرض البلقان والشيشان، كما تمارسه الصهيونية، وهى امتداد غربى ومتحالفة مع الصليبية الغربية على أرض فلسطين، بل إن كنائس الغرب التى خانت نصرانيتها تستحى عندما تعلن هذا النفى للإسلام حتى فى المؤتمرات التى تحاور فيها رموز الإسلام فى عقر دار المسلمين.. ففى مؤتمر الحوار الإسلامى - المسيحى الذى عُقد بالقاهرة بدعوة من المنتدى العالمى للحوار بجدة ومؤتمر العالم الإسلامى، والذى انعقدت جلساته فى فندق شيراتون هليوبوليس فى ٢٨، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١، فإن ممثل

الفاتيكان نائب الأمين العام للمجلس البابوى للحوار بين الأديان القس خالد أكاش وممثل مجلس الكنائس العالمى الدكتور طارق مترى - رفضا التوقيع على البيان الختامى للمؤتمر؛ لأنه وضع الإسلام مع اليهودية والنصرانية تحت وصف الأديان السماوية الربانية وقالا: إن وصف الإسلام كدين سماوى وربانى لا يزال محل خلاف لم يحسم بعد... ولقد علق الدكتور يوسف القرضاوى وكان مشاركًا مع شيخ الأزهر فى هذا المؤتمر على هذا الموقف فقال: «إننى أستغرب من توجس بعض رجال الدين المسيحى من وصف الإسلام بالربانية والسماوية... وإذا كان الفاتيكان والكنائس العالمية لا تعترف بالإسلام كدين سماوى فلماذا نجتمع إذن؟... وإذا لم يقرر رجال الدين المسيحى والفاتيكان بأن الاسلام دين ربانى، فلا داعى من اللقاء والحوار...» (من مقال د. محمد عمارة بعنوان «صورة الإسلام فى الخطاب الغربى»- ٢٩/١٠/٢٠٠٤).

بالرغم من وجود الكثير من الدلائل على هيمنة خطاب «الهيمنة الغربية» وسماته اللاحوارية في التعامل مع العالم العربى الإسلامى قديمًا وحديثًا، وبالرغم من هيمنة نموذج «صدام الحضارات» وكل ما يتعلق به من أمثلة سنشير إلى أهمها فى النمط التالى من أنماط الخريطة الذهنية لخطابات حوار الحضارات بهذه الدراسة تحت «خطاب وسيناريوهات العداء الصريح» (النمط الرابع) - فإن وجهة نظرنا فى التركيز على تحليل خطاب د. عمارة بالأسلوب الإطلاقى دون النظر إلى باقى ما تطرحه الخريطة الذهنية للخطابات كلها ليبتعد بنا عن الحيدة العلمية وتبنى الرؤية الاستراتيجية الكلية الضرورية لفهم الواقع والتعامل معه بما يحقق أجندة الحوار المثمر للجميع، أو كما قلنا يتيح لنا أن نحتفظ بهامش تقليل الخسائر

أو احتواء السيناريو الأسوأ فى أقل الحالات تفاؤلاً. من هنا نرصد الخلل المعلوماتى؛ أى المعلومات الناقصة والخاطئة الواردة بالمقال، وكذلك نتطرق لأسلوب الحوار السلبى فى جزئيات أخرى بغية تقويم الأداء التفاعلى فى واقعنا الثقافى نحو الأهداف الإستراتيجية الأسمى لأمتنا فى ظل هذه الأجواء «القتالية واللاحوارية» من قبل الكثيرين..

أولاً: بخصوص الخلل المعلوماتى (أى تلك الناقصة والخاطئة فى المعلومات المقدمة بالمقال):

إن الرصد المتفانى للكاتب لإثبات عدوانية الغرب وكل مجالس الكنائس وكل ألوان الطيف المسيحى الغربى كله، والموجه ضد العالم الإسلامى «لتنصير كل المسلمين» على حد تعبير د. عمارة، لهو أمر يمكن إثباته فى سياقات بعينها إلا أنه كذلك أمر مبالغ فيه وتناقضه وثائق عديدة ووقائع كثيرة فى إطار ما عُرف على مدى العقود الثلاثة الماضية ـ خاصة ـ بـ «الحوار الإسلامى ـ المسيحى»، وحتى يكون الكلام موثقًا أدعو الكاتب لقراءة وثائق على درجة من الأهمية، ومنها ما جاء من خلال كتاب أصدره الفاتيكان بعنوان «من أجل حوار إسلامى مسيحى» ـ وصدرت طبعته الأولى بالعربية[(١)] عام ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م أى منذ أكثر من ٢١ سنة مضت ـ يطالب بصفحة جديدة للحوار بعيدًا عن سلبيات الماضى التى لا يذكرها.

(١) راجع كتاب «من أجل حوار إسلامى مسيحى»، وهو ترجمة لكتاب أصدره الفاتيكان باللغة الفرنسية موجه إلى الشعوب المسيحية عقب مجمع الفاتيكان الثانى الذى انتهى عام ١٩٦٥، هذا النداء جاء تحت عنوان «توجيهات من أجل حوار بين المسلمين والمسيحيين» والذى صدر فى طبعة جديدة خلال عام ١٩٧٠، والكتاب المنشور باللغة العربية صدر فى عام ١٩٨٣، وتقول كلمة الناشر بالعربية: ونحن إذ ننشره باللغة العربية لنضعه بين أيدى القراء من مسلمين ومسيحيين، لعلهم يرون فيه الحقيقة الناصعة لكل دين وعقيدة وإيمان.

ففى مقدمة الكتاب بقلم المحامى أ. فيصل طيارة يقول «إن الكتاب المعبر عن رأى الفاتيكان - موجه «إلى المسيحيين الذين يلتقون المسلمين ويتمنون العيش فى حوار دائم ومفتوح معهم[1].. وإن من شرائط سلامة الحوار وجديته وفاعليته كما تذكر مقدمة الكتاب «أن يكون الإقبال عليه بقلب سليم مبرأ من العقد، خالٍ من الأفكار المسبقة، وأن تكون الصراحة هى الرائدة، داعيًا العالم المسيحى إلى العمل تدريجيًا على تغيير عقلية الإخوة المسيحيين حيال الدين الإسلامى والمسلمين، داعيًا إلى حسن الاستماع وخير الكلام، وتقبل المسلم كما يريد هو أن يكون»[2].

وتقول مقدمة الكتاب «ولو أخذنا معظم شرائط الحوار وطرائقه وأدواته، كما وردت فى هذا الكتاب لوجدنا أن الإسلام يأخذ بها، فهى إذا كانت فى هذا الكتاب أفكارًا مرسلة وتمنيات نظرية، فهى فى الإسلام عقيدة وشريعة. ففى الكتاب العزيز: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وفيه ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾[3].

ويضيف كلام المقدمة.. «وإذا كان فى كتاب الكرسى الرسولى إشارة إلى أنه لا يطلب من المحاور المسيحى حمل المسلم على تغيير دينه عن طريق الحوار، ففى القرآن الكريم: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، وفيه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ٩٩]، وفيه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون: ٦]. وإذا كان فى الكتاب دعوة إلى الحوار بقلب سليم وبصراحة، ففى التنزيل:

(١) السابق ص١٢.
(٢) السابق ص١٣.
(٣) السابق ص١٤.

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦]، وفيه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥][(١)].

هذه الصيغ الحوارية التى يتلمس الكتاب المشار إليه أن تكون منطلقات الحوار الإسلامي ـ المسيحي تتنافى مع استشهادات د. عمارة الإطلاقية، وإن كان ما ذكره صحيحًا، ولا نشك أن تصدر تصريحات وحتى وثائق من ألوان الطيف المسيحية الواسعة، إلا أنه من «بَخْس الناس أشياءهم» إطلاق المعلومات الناقصة أو الخاطئة على كونها الحقيقة المطلقة.

وثيقة الفاتيكان فى عهد يوحنا بولس وعدم بخس الناس أشياءهم:

تقول وثيقة الفاتيكان التى نستشهد بها هنا تحت عنوان «قبول المسلم كما يريد أن يكون»:

«...إن أولى مهام المسيحى هى التعرف على شريكه المسلم، لا كما هو بكل بساطة، بل كما يريد أن يكون... هذه المعرفة يجب أن تكون معرفة الصديق للصديق الذى يعمل على أن يكتشف فى صديقه كل ما هو حسن وجيد، وقد يظن البعض منا أن هذا يعنى انقلابًا كاملاً فى مواقفهم، وبالفعل فإن الحوار يتطلب منا نظرة جديدة للآخرين.. على ألا تكون نظرة لخصم يجب إخضاعه، أو امريد يجب أن نعلمه، أو نهديه لعقيدتنا، أو لمرشح للهداية يجب أن نستولى عليه وننتصر، أو لمحاور يجب أن نعلمه كيف يتكلم، ولكن يجب أن تكون نظرتنا لهذا الرفيق نظرة من نتقاسم معه من خلال أخوة ومساواة أحسن ما فى

(١) السابق ص ١٤.

وجودنا المشترك، يجب أن نعمل من موقف الخدمة والمساعدة، وكما قال: «لويس ماسينيون» المستشرق المعروف: «لكى نفهم الآخر يجب ألا نستولى عليه وندمجه فينا، بل يجب أن نكون ضيوفه»[١].

يتسم الكتاب الذى نستشهد به بالاعتراف بأخطاء الغرب والعالم المسيحى فى حق المسلمين[٢] وبأن المسلمين عرفوا العالم الغربى من خلال الأنظمة الاستعمارية، ويدعو الكتاب المسيحيين فى الغرب إلى أن يسعوا إلى تحقيق أساس أولى للحوار، يعتمد على الاعتراف بأخطاء الماضى والحاضر معًا من أجل صفحة جديدة بعيدًا عن الآراء المسبقة والمتعصبة والوشايات المتحيزة.

الإسلام شريكًا...

فى الإطار الامتدادى لتصحيح الخلل المعلوماتى؛ أى شيوع خطر «المعلومات الناقصة والخاطئة» فى كل من الغرب عن الإسلام وفى العالم العربى الإسلامى عن التوجهات الجيدة والجادة لحوار جديد بين الأديان، نشير هنا إلى كتاب آخر على درجة كبيرة من الأهمية لكاتبه الألمانى فريتس شتيبات، والذى جاء بعنوان «الإسلام شريكًا»[٣]... وهو كتاب مهم يصدر فى الوقت الذى تشتد فيه الحملات الظالمة ضد العرب والمسلمين، ويتصدى فيه د. شتيبات لتلك الحملات، وهو مستعرب معروف ـ عرف فى الدوائر العلمية بإنصافه وموضوعيته التاريخية الدقيقة، وتعاطفه العقلى والوجدانى المستمر

(١) السابق ص ٣٣، ٣٤.

(٢)السابق ص ٣١.

(٣) راجع شتيبات، فريتس الإسلام شريكًا: دراسات عن الإسلام والمسلمين ترجمة د. عبد الغفار مكاوى، عالم المعرفة، إبريل ٢٠٠٤ (الكتاب ٣٠٢) الكويت.

مع العرب والمسلمين. وفى هذا الكتاب يتصدى د. شتيبات لحملات العداء ولنموذج صراع الحضارات الذى يدينه ويفنده ويظهر ضعفه النظرى الفكرى وبهتانه العملي، ويدعو الغربيين لتصحيح مواقفهم من العالم العربى الإسلامى والسعى لفهم الواقع بعيدًا عن إعلان الحروب وتغذية العداء، ويتخطى ذلك إلى دعوة الغربيين لاعتبار الإسلام شريكًا ومشاركًا فى مصير البشرية المعاصرة.

إن هناك كمًا كبيرًا للغاية من حوارات الأديان والثقافات اليوم عبر أنحاء العالم المختلفة وداخل الولايات المتحدة، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر، والمطلع على وثائق هذه المؤتمرات سيجدها تختلف كثيرًا عما ورد فى نموذج «الصدام الحضارى» الذى يهيمن على الساحة الدولية، والذى يملك أنصاره الصوت الإعلامى السلبى الكبير... ولكن ليس المعبرٍ عن توجهات كثيرة وغالبة أصبحت ترفض هذا النموذج الصدامى وتعترف بخطورته الشديدة على العالم أجمع. من هنا وجب عدم السقوط فى فخاخ الأحادية والمعلومات الناقصة والخاطئة فى هذا الإطار.

٣-٣ حالة الحوار والمناظرة مع طرح بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر (من البابا السابق إلى البابا الحالى)

كانت لمحاضرة بابا الفاتيكان الحالى بنديكت السادس عشر فى جامعة بيجنسبرج الألمانية ردود فعل غاضبة وواسعة فى العالم أجمع، وفى العالم الإسلامى خاصة، ومن المفيد فى هذا السياق تحديدًا من هذه الدراسة أن نقدم مجموعة من المقالات التى نشرناها بالعربية والإنجليزية، والتى نوردها فى ملاحق الدراسة، والنقطة التى أريد التركيز عليها هنا أن الأمثلة التى سبقت الحديث عن

مناظرة ونقد فكر بابا الفاتيكان الحالى، قد تعلقت بما أشار إليه بابا الفاتيكان السابق يوحنا بولس فى إطار وثيقته عن الحوار الإسلامى المسيحى، وكانت الفترة التى سبقت نقد بابا الفاتيكان الراهن هى فترة فى إنصاف الآخرين وإزالة اللبس فى التفسير المعلوماتى الخاطئ أيًّا كان مصدره، وفى ذلك السياق كان المَصْدَرُ باحثينَ مسلمين... فالإسلام يعلمنا ويؤكد علينا مفهوم العدل والإنصاف وعدم التجاوز، ولكن رد الاعتداء واجب مقدس.

٣-٤ حالة تقارير العرب والغرب Arab-West Report

يقوم محرر تقارير العرب والغرب د. كورنيليس هولسمان بجهود متميزة لعبور الفجوة التواصلية، بحل الأزمة الراهنة بين العالم الإسلامى والغرب، لكن تقارير العرب والغرب تحتاج إلى قراءة تفصيلية فى سياق آخر. وبإيجاز فإن التقارير التى تنشر على شبكة الإنترنت، والتى صدر فى إطارها تقرير حديث بعنوان «حرية المسيحيين فى مصر: أسلوب جديد فى التغطية الصحفية لمسألة الحريات الدينية»، تقول: إنها تحارب الاستقطاب والمعلومات الناقصة والخاطئة والمفتعلة التى تقع فيها دوائر من الإعلام الغربى عند تغطيتها لما قد يتعلق بالأقباط فى مصر، والتقارير تتضمن بالفعل تصحيحات جيدة وعديدة لتقارير خاطئة تستحق التنويه إليها. فتقرير «حرية المسيحيين فى مصر» مثلاً هو بمثابة تقرير يصحح الكثير من أخطاء تقرير الحريات الدينية الأمريكى الذى كُتب ونشر عن مصر، ولكن التحفظ الرئيسى لدينا يكمن فى وقوف مثل كل هذه التقارير على «مربع مسلم ومسيحى» فى نهاية المطاف، وهو أمر نتحفظ عليه كثيرًا ولا نرحب به ولا نتفق عليه، فمشكلات هذا

الوطن من وجهة نظرى تدخل فقط فى إطار المواطنة المصرية فى دولة هى من أكبر الدول الإسلامية مكانة، وكذلك تمثل نموذجًا فريدًا للتعايش الإيجابى بشهادة كل أصحاب العقول المنصفة، كما أن الوقوف على مربعات مفاهيم عولمية مثل «الحريات الدينية» بحاجة إلى مداخلات، فمربع مفهوم «الحريات الدينية» يحتاج إلى دراسة تفصيلية أخرى... كما أن ترجمة المقالات ذات الطابع الدينى من الإعلام العربى المصرى أساسًا والتركيز الشديد عليها أكثر من أى شىء آخر فى تلك التقارير ـ التى اطلعت على عينة كبيرة منها ـ قد لا يخدم أى قضية لبناء الأرضيات المشتركة بقدر ما قد يعكس ويركز على شرود وشتات ولامسئولية بعض الكتابات فى الإعلام العربى الذى هو بحاجة فى العديد من أطروحاته إلى معالجات علمية وتدريبية داخلية ذاتية، وهو الأمر الذى قد يؤدى إلى إساءة استخدام مثل هذه الكتابات المترجمة، لكن أمر تصحيح المعلومات الناقصة والمبتورة والخاطئة هو فكرة تتبناها تقارير العرب والغرب، وهو أمر يحسب لهذه التقارير الحاجة إلى مزيد من تفاعلات شخصيات الإعلامين العربى والغربى، لكنها بحاجة إلى المزيد من التوسع فى الإطار عبر الثقافى الأكثر شمولاً واتساعًا والأقل حساسية من موضوع المسلمين والمسيحيين، خاصة فى بلد كمصر يعتبر المسيحى والمسلم من النسيج الأصلى الذى ينبغى عدم المساس به، مع تجنب السلبيات التى أشرنا إليها، كما أن تفعيل حالات المداخلات الإيجابية بين الكتاب والشخصيات فى الإعلامين العربى والغربى الذى قام فيه د. هولسمان ومركز التفاهم العربى الغربى بجهد مشكور، وهو من الأمور التى تحتاج إلى مزيد من التوسع الإيجابى من أجل السعى الفعال لتأسيس أرضية مشتركة على أساس

من مباريات المعلومات الدقيقة والصحيحة والمصححة لهو مطلب أساسى للحوار والتفاعل عبر الإعلام والثقافات المختلفة، وهو أمر بحاجة إلى المزيد من تنميته ودعمه بشكل أعمق وأكثر كثافة فى حالة تقارير العرب والغرب وغيرها من الأنشطة المماثلة.

رابعًا: خطاب وسيناريوهات العداء الصريح وحملات المعلومات المضللة والمعادية للإسلام فى الغرب

حددنا فى (ثالثًا) فى تحليلنا لخطاب وسيناريوهات المعلومات الناقصة والخاطئة الأنماط الخمسة المصحوبة بمفهوم المعلومات وتناولناها بالشرح والتوضيح، وفى إطار (رابعًا) هنا نعود لنركز على أحد مستويات خطابات أنواع المعلومات، وهو هنا خطاب المعلومات المضللة Disinformation التى يمكن رصدها فى إطار حملات عداء صارخ ترفض بالطبع فكرة الحوار النِّدِّىّ والعادل وتهدف إلى أمرين رئيسيين هما:

(أ) وُصِمَ العالم العربى الإسلامى بالإرهاب والتطرف وَوُصِمَ الإسلام ذاته بأنه يحمل كل جذور التطرف والإرهاب والتخلف، وكل هذه الصفات الجائرة التى تسعى دوائر الحملات المعادية إلى الترويج لها فى العالم حتى يقتنع بمفهوم «الفاشية الإسلامية» Islamo Fascion الذى روج له فوكوياما[1]، والتى يقترح بأن علاجها الوحيد هو شن سلسلة من الحروب للإطاحة بها، كما حدث للفاشية الهتلرية الغربية - فى الحرب العالمية الثانية - وإن اقتضى الأمر تدمير ثلث العالم العربى الإسلامى على حد تعبير فوكوياما.

---

(١) راجع مقال فوكوياما بمجلة النيوزويك، العدد السنوى بعنوان:

The target: The modern world, News week, Dec. 2002.

(ب) القبول فقط بحوار الهيمنة الغربية وتأثير الإسلام والمسلمين فى الإطار الغربى والرضوخ والاستسلام على الجانب العربى الإسلامى[1].

(جـ) وصول حالة العداء والاستعداء والاستهتار إلى قمتها بمحاولة التدخل فى المناهج والمطالبة بحذف آيات من القرآن الكريم كذلك من أساليب الرعونة المرفوضة، ولقد تعرضنا لهذا النمط فى دراسات ومقالات سابقة، وذكرنا حالات تفاعلية عديدة توضح مستويات نموذج الصدام الحضارى بتنوعاته[2] وذهبنا إلى القول بأن التصدى لمثل هذا واجب على كل عربى ومسلم ينتمى لتراب هذه الأمة، والهدف إفشال سيناريوهات التأطير والتقزيم الممهدة لمزيد من الانقضاض على الشعوب العربية الإسلامية، وقطع الطريق على هذه التعبئة الدولية الجائرة وإفشالها، وهى التى تسعى لإحداثها الدوائر التى «تضخ» نماذج وأمثلة صراع الحضارات باستخدام آلة الإعلام الضخمة لإنجاح سيناريوهات

---

(١) هناك أدبيات ومواد إعلامية كثيرة تذهب إلى ملامح حوار الهيمنة الذى يزيد التوتر بين العالم العربى الإسلامى والغربى، فعلى سبيل المثال لا الحصر، راجع مقالاً كالذى كتبه جون مونرو الذى يقول: «إن على الولايات المتحدة أن تقف بكل حزم لتؤيد وتدعم أمثال سلمان رشدى ممن يتصدون للأصولية» (جون مونرو) مقال بعنوان Islam & us بمجلة الشرق الأوسط - (بالإنجليزية) ١٥/١٠/٩٤، إن هذا المقال مثله فى ذلك مثل عشرات المقالات، والمقولة الصادرة فى رسائل من الغرب إلى العالم العربى الإسلامى التى توضح أن حالة «الاختطاف» والاستقطاب التى يدعمها الغرب لا تزال مستمرة بالثنائية التسلطية الطاغية... فالأصولية ليس لها إلا سلمان رشدى!! ولا تشجيع أو مخاطبة للإسلام الذى يعبر عنه الغالبية فى العالم الإسلامى بعيدًا عن كل من الأصوليين بالمعنى الغربى (المتطرفين) وبعيدًا عن المتطرفين من أمثال سلمان رشدى.

(٢) راجع لكاتب السطور: (العقل العربى والعقل الأمريكى إلى أين..؟) المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠٤م.

الصدام الحضارى، الأمر الذى أدى إلى وجود إحصائيات سلبية توضح أن العالم ينحو نحو هذا التصديق للترويج التحريضى الخاطئ ضد العالم العربى الإسلامى، إلى الحد الذى أثبته استطلاع أخير للرأى نشرته صحيفة «فرانكفورتر» الألمانية وجاء فيه أن ٨٢٪ من الألمان يربطون الإسلام بالإرهاب[1].

حالة تفاعلية : «حالة الحرية الألمانية المهددة»

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن أساليب إدارة هذه الحملات الجائرة قد بدأت تأخذ أشكالاً متقدمة وخطيرة للغاية فى استخدام كل أساليب الدعاية والحملات المضللة من «فنون» وسوف نشير فى إطار دراستنا هنا إلى حالة مماثلة لنوعية الموجة الأخيرة من حملات المعلومات المضللة ذات العداء الصارخ، وذلك بهدف الكشف عن الآليات المستخدمة، والتى قد لا يتنبه لها أو يدركها القارئ العادى فى الغرب بسهولة، فضلاً عن أنها تحاول إخضاع مستويات «القارئ الماهر» كذلك، نظراً لمحاولة مثل هذه النوعية من الحملات المعادية تكثيف هذه الآليات وتكثيف الخداع بالرجوع إلى أسلوب المعلومات الناقصة والخاطئة فى المحتوى والأسلوب، وهو الأمر الذى لن يتضح للقارئ والمتلقى الغربى إلا بالتدخل من الباحثين فى العالم العربى الإسلامى للكشف عن هذه الآليات وإكمال «المعلومات الناقصة» وتصحيح الخاطئة... من هنا سنقدم رؤية أولية تحتاج منا إلى دراسة أخرى أكثر تفصيلاً لحالة «الحرية المهددة». إن خطورة هذه الحالة التى أشرنا إليها فى أنها مطبوعة وتوزع بالملايين فى الواقع الألمانى الأوروبى، وفيما يلى نقدم وصفاً للحالة ونضع

(١) نقلاً عن حديث للسفير المصرى بألمانيا محمد العرابى بالأهرام، فى ٢٠٠٤/١١/١٦م.

نصها المترجم إلى العربية فى ملاحق الدراسة، ثم نقدم رؤية لتوضيح مرتكزات الرد التفصيلى ومتطلباته، وهى كما يلى:

١- وصف حال «الحرية المهددة»[1] (بيانات الحالة):

العنوان بالعربى: الحرية المهددة: صراع القرآن مع الدستور والحريات فى ألمانيا وصراعه مع الدساتير والمعاهدات الدولية: الجدل العقلى مع الإسلام[1].

المحتويات الرئيسية للمطبوعة هى ٨ فصول مكتوبة بإيجاز وأسلوب مقارن يوحى بالموضوعية الشكلية بأن يذكر عيبًا كبيرًا تجرمه الدساتير الإنسانية والدولية والدستور الألمانى، ثم يعود الكاتب/الكاتبون إلى الانقضاض على نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ليوضح أنها تؤكد على الأمور موضع النقد بهذه المطبوعة.

وفيما يلى عناوين بعض الفصول الثمانية وموجز عن محتواها:

الفصل الأول بعنوان «الدعوة للاغتيال والقتل وتسبيب الإصابات والدعوة للحرب» + نصوص «مجتزأة» من القرآن + نصوص من الدستور الألمانى والمواثيق الدولية للتجريم. وهو الأسلوب المتبع فى كل فصول الوثيقة.

الفصل الثانى بعنوان: «التمييز العنصرى (كراهية الشعوب) وسب المعتقدات.

الفصل الثالث: «الدعوة للتشويه والضرب».

---

(١) نشر كُتيب «الحريات المهددة» باللغتين الألمانية والإنجليزية من قبل رابطة الحركات الشعبية لحفظ الديمقراطية والوطن وحقوق الإنسان ـ برلين ألمانيا ـ الطبعة الثالثة ٢٣ مايو ٢٠٠٤م.

الفصل الرابع: «جواز اقتحام منازل الغير والسرقة».

الفصل الخامس: «التعارض مع الحقوق الشخصية العامة».

الفصل السابع: «رفض حرية العقيدة».

الفصل الثامن: «عن الالتزام بالحق (من عدمه)».

أمثلة عملية محددة عن أدوات وأساليب الدعاية Propaganda Devices:

بعد القراءة المدققة فى نصوص هذا النمط الدعائى، أتصور أن محاور الرد التفصيلى على هذا الشكل من «المطبوعات» تتمثل فى كتابة مقدمة موجزة للكشف عن طبيعة أدوات الدعاية (Propaganda Devices) المستخدمة فيما يلى:

أولاً: هذه الأدوات التى إذا أمكننا رصدها فى الخطاب كانت بمثابة اقتفاء لأثر الدعاية وهى:

١- المعلومات الناقصة Information lacking.

٢- المعلومات الخاطئة Misinformation.

٣- إخراج الكلام عن السياق Decontextualization.

٤- تلوين الكلام لخلق إيحاءات بعينها Linguistic Manipulation.

٥- أسلوب الاستشهاد لتحقيق المصداقية Testimonial بالمصادر ذات القبول العالى للمتلقى.

٦- أسلوب الإلحاق الأوسع بما هو شائع، وليس من الضرورى أن يكون حقيقيًا أو سليمًا Band Wagoning .

وللكشف عن هذه الآليات وتوضيحها كأساليب للدعاية المتخفية (وهو الأمر الذى نرصد له بحثًا تفصيليًا) من المهم أن يكون الرد مشتملاً على الرجوع إلى نفس المصادر والتشريعات فى القانون

والدستور الألماني وفى المواثيق الدولية ولحقائق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة... بالإضافة إلى وثائق غربية مهمة كوثائق الحوار بين الأديان والثقافات (كما سنوضح) وفيما يلى بعض الردود الممكنة على ما جاء فى هذا النوع من الوثائق:

المثال الأول- بخصوص «مثلاً» جواز اقتحام المنازل والسرقة!!!

تصدر المطبوعة الآية القرآنية الكريمة التالية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ. . . ﴾ [النور: ٢٩].

وكما هو موضح بالمطبوعة يستغرق من كتب نص «الحرية المهددة» بعد رصد الآية القرآنية (على أنها مبررة للسرقة والعياذ بالله) فى الاستشهاد بالدستور الألماني والوثائق الدولية التى تدين «انتهاك حرمات البيوت» و«الاستيلاء على ملكية الغير» وباستفاضة كبيرة وكأن الآية الكريمة قد ذهبت إلى ذلك.

المشكلة فى هذه الجزئية بالتحديد فى النص الألماني تتمثل فى احتمالين هما:

١- أن تكون الترجمة لها الدور الكبير فى سوء الفهم هذا... وهذا احتمال كبير للغاية... فلقد قدمت هذه الآية فقط للطلاب فى أحد فصول الترجمة الفورية، وكانت النتيجة أن ٤٤طالبًا من ٤٨ ترجموها حرفيًا، فكانت مؤكدة مع الأسف لما ذهب إليه النص الألماني، ونجح فقط أربعة طلاب فى ترجمتها الصحيحة... ومع كل الأسف ويمزيد من البحث عن ترجمات القرآن الكريم وجدت الترجمة الحرفية (الخاطئة) فى ترجمات (معتمدة للقرآن الكريم) حتى فى ترجمة (يُوسف علِيّ) الشهيرة لكن (يُوسُف علِيّ) قدم فى الهوامش الشرح الصحيح.. ولكن ترجمته ليست دقيقة للنص.

٢- الاحتمال الثاني أن يكون النص قد تم إخراجه من السياق الكلى للآيات.... ولا ترجمة تصح عند الاجتزاء والإخراج من السياق إلا إذا كان الأسلوب هو الدعاية الكاذبة الرخيصة Decontextualization

لقد جاء الإسلام بأرقى البروتوكولات الدبلوماسية فما سياق الآية الكريمة التى تعبر عن عظمة أخلاق القرآن التى تفوق أروع مواثيق وبروتوكولات الدبلوماسية؟

السياق الترتيبى - التمهيدى - وصولاً للآية المستشهد بها، وهى التاسعة والعشرون من سورة النور هو كما يلى: وسأستشهد هنا بترجمة «يوسف على» للقرآن الكريم ثم أترجم هامش التفسير... ولقد اخترت هذه الترجمة، لأنها من أقدم ترجمات القرآن الكريم (من الثلاثينيات تقريبًا) ومنتشرة فى أنحاء عديدة من العالم، فيمكن للإخوة الألمان أو الأوروبيين الرجوع إليها بدلاً من الظن بأننا نقدم تفسيرًا؛ ردًا على تلك المطبوعات المُضَلِّلَةِ مثلاً؛ وها هو نص ما ورد فى ترجمة يوسف عَلِىٍّ من قبل الآية وبعدها لتوضيح عمَّ تتحدث هذه الآيات الكريمة (أى من الآية رقم ٢٧ إلى الآية رقم ٣٠ من سورة النور):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

(27) Ye who believe! Enter not houses other than your own, until ye have asked permission and saluted those in them: that is best for you, in order that ye may heed (what is seemly)

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

(28) If ye find no one in the house, enter not until permission is given to you: if ye are asked to go back, go per back: that makes for greater purity. for yourselves: and God knows well all that ye do

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

(29) It is not fault on your part to enter houses not used for living in, which serve some (other) use for you: And God has knowledge of what ye reveal and what ye conceal.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(30) Say to th believing men that they should lower their gaze and guard their modesty: that will make for greater purity for them: and God is well acquainted with all that they do

وأبسط قواعد التفسير أن ننظر إلى سوابق ولواحق النص المراد تفسيره، وهنا كان على أى محلل موضوعى أن ينظر إلى السياق الترتيبى الذى يتضمن التقنين الأخلاقى لبروتوكولات هى غاية فى الحِسِّ الإنسانى رفيع المستوى، وهنا نبدأ ـ لفهم الآية (٢٩) التى صدرتها المطبوعة، وعلقت عليها بقمة الجهل والخطأ والمعلومات الناقصة أو الخاطئة أو المضللة ـ بأن ننظر إلى ما قبلها فى الآيتين (٢٧)، (٢٨)، ففى الآية (٢٧) نجد البروتوكول

الأول يقول بأهمية الاستئناس «أي ليس فقط الاستئذان»، ولكن التأكيد على أن من يزور أحدًا لابدَّ أن يستأذن ولابد أن يستأنس؛ أي أن يجد الترحيب بالزيارة، وهذا للحفاظ على كرامة الإنسان التي يدعمها النص القرآني إلى أبعد الحدود، وأن تتسم الزيارة بكل أخلاق وآداب المودة والاحترام، والآية التالية (٢٨) تحدد لنا طبيعة البروتوكول الأخلاقي الثاني وهو:

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

البروتوكول الثالث: فهو ما استشهدت به المطبوعة بشكل من أشكال القفز، والانقضاض والتفسير المتعسف الخاطئ تمامًا وهو:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

وفيما يلي ما ورد في تفسير تلك الآية الكريمة التي ذهبت إليها المطبوعة بالإنجليزية كما وردت في هوامش ترجمة يوسف علي ونعقبها بترجمة عربية:

2982 The rule about dwelling-houses is strict, because privacy is precious, and essential to a refined, decent, and houses used for other useful purposes, such as an inn or caravanserai, or a shop, or a warehouse. But even here, of course, implied permission from the owner is necessary as a matter of common sense. The question in this passage is that of privacy, not that of rights of ownership.

يقول تفسير الآية الكريمة: «إن قاعدة سكنى البيوت هى قاعدة واضحة وصارمة؛ لأن الخصوصية Privacy هى من أثمن الأشياء عند أى إنسان، واحترام مثل هذه القاعدة هو من باب السلوك الرفيع والمحترم، ويعين على تنظيم علاقات المرء بالآخرين. إن مثل هذه القاعدة لا تنطبق بطبيعة الحال على تلك الأماكن التى تستخدم لأغراض عامة نافعة، وهذا المقصود بـ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ وذلك مثال المطاعم أو أماكن الترفيه العامة أو محلات البيع العامة أو المصالح الحكومية العامة (المفتوحة للجمهور) ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أى فيها فائدة مثل شراء الأشياء أو الاستفادة بنادٍ أو منشأة للترفيه. ولكنْ فى هذا السياق هناك بالطبع إذن أمر ضمنى مطلوب من صاحب المكان العام كضرورة من ضرورات الذوق العام. القضية التى توضحها الآيات المترتبة من ٢٧ – ٣٠ هى قضية بروتوكولات أخلاقية من باب مراعاة خصوصية وحرمة أماكن الغير وحقوق ملكياته».

كان هذا هو تفسير الآية الصحيح الذى ورد فى ترجمة من الثلاثينيات، وكان الأحرى الرجوع إلى مثل هذه الترجمة فى كلياتها دون اجتزاء، ولكنه مع احتمالية حدوث المعلومات الكاذبة والمضللة كأسلوب معروف هذه الأيام ضد العرب والمسلمين، فإن احتمال وجود ترجمات فى غاية الخطأ ودون المستوى تمامًا يعد من الأمور الواردة جدًا كذلك... ومن هنا نجد أهمية الرد والتصحيح وعدم التجاهل والركون إلى الغضب والاحتقان فقط.

هل فى تحليل مثل هذا المثال فقط ما يكفى لتوضيح طبيعة المعلومات المضللة وأساليب تلوين واجتزاء المعلومات؟!!

المثال الثانى:

تحت باب «أهمية الالتزام بالحق» فى المطبوعة يتم تصدير الآية القرآنية الكريمة (رقم ٨٩ من سورة المائدة):

﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ثم ترصد المطبوعة قانون العقوبات (المادة ١٥٣) الخاصة بالأقوال الكاذبة بدون حلف يمين، والتى تقول إن من يمثل من الشهود أو الخبراء أمام المحكمة أو أمام استجواب آخر مع حلف اليمين أو أمام جهة مختصة بوصفه شاهدًا أو خبيرًا ويدلى بشهادة كاذبة، فإنه يعاقب بالسجن لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أشهر وخمس سنوات، إلى آخره من بنود تستغرق المطبوعة فى رصدها.

الأسلوب المستخدم هنا كذلك يتسم «بالانقضاض» والتعسف فى التفسير وعدم الفهم الدقيق المراد من الآية الكريمة (٨٩ من سورة المائدة) فالمعنى هو:

«لا يعاقبكم الله بسبب ما لم تقصدوه من أَيْمَانِكم، وإنما يعاقبكم بسبب الحنث فيما قصدتموه ووثقتموه من الأيمان. فإن حنثتم فيما حلفتم عليه، فعليكم أن تفعلوا ما يغفر ذنوبكم بنقض اليمين... إلى آخره».

الآية الكريمة تدين الحلف وتطالب المؤمن المسلم بأن يحفظ أيمانه من اللغو.. أى ما لا يقصده...

ولكنها لا تبرر أو تسمح بالكذب كما صورت ذلك تلك المطبوعة ولكن الخالق عز وجل الرحيم بعباده وهو الأعلم بطبيعة الخلق... فيعلم سبحانه حالات الضعف فى أداء الكلام التى قد تعترى أى إنسان... فيكون هناك مجالٌ للتخفيف مادام الأمر لم يكن مقصودًا.

والسؤال هنا: هل هناك اختلاف عبر الثقافات أو أن المطبوعة تسجل حالة من الانقضاض والتعسف فى التفسير والأحكام؟

ربما يكون من وجهة نظرنا أن هناك بعدًا موجودًا فى التواصل عبر الثقافات فى هذه الجزئية... فمثلاً عندما قبضت شرطة أسكوتلانديارد على المهندس المصرى المعروف ممدوح حمزة الذى ذهب إلى بريطانيا كشخصية دولية مرموقة وبدعوة من ملكة بريطانيا، كانت التهمة الموجهة إليه القول «بالشروع فى القتل» وربما كان ما قيل من تعبيرات مثل «دول ناس يستهلوا القتل» أو ما شابه ذلك من مقولات استعارية شديدة الحدة قد تكون بمثابة لغة التنفيس حيث لا تكون الكلمات مقصودة حرفيًا وهو أمر له وجوده فى الخطاب العام الغربى فمن مقولات تبادل الحجج نسمع من يقول Do not kill him وليس المقصود هو «لا تقتل فلانًا»، بل «لا تقتل حجته بالكامل ليكون للحوار أو للتواصل خيط يمكن استئنافه لصالح الجميع... هذا وارد... وهذا يدخل فى باب «اللغو» بعدم القصد الجنائى بالقتل أو بعدم القصد الحرفى، ولو أنه منهى عنه وعند العودة لسياق الآية الكريمة، نجد أن هناك أمرًا «بحفظ الأيمان» ولكنها عظمة الخالق فى المحاسبة على القصد فقط... وألا يوجد فى القانون الدولى تعبير «القصد الجنائى» ووجوب توافره من عدمه؟ ليس فى الآية الكريمة ما يستوجب الحسم مع الخطأ وإنما عدم المؤاخذة بعدم القصد، وهو شىء يجب على البشر تعلمه حتى يكون للتواصل ما يناسب الطبيعة البشرية التى خلقها الله سبحانه وتعالى.

من الممكن الاستغراق فى تناول الأساليب الثمانية المنتهجة فى الفصول الثمانية الواردة بالمطبوعة، ولكن سيكون فى ذلك تكرار، أما النقطة الأخيرة التى أطرحها للاسترشاد بها فى الرد على مثل هذه الأنماط من حملات المعلومات المضللة والمتسمة بالعداء الصريح فهى الرجوع إلى الخطاب المفتوح للأديان، وليس «للخطاب المغلق الخاص بطبيعة كل عقيدة فى أحكامها الخاصة وفى نظرتها للكفار أو «المثليين من الشواذ» أو ما إلى ذلك مما لا ينبغى مناقشته؛ لأن الخطاب المغلق لكل عقيدة ـ بما فيها من اختلافات مع الآخرين ـ قد يؤدى إلى «محاكمة كل العقائد» من قبل المتدخلين بنفس أسلوب المطبوعة تحت الدراسة، ولكن المطلوب هو التعامل مع الخطاب المفتوح الذى يحدد كيف تتعامل كل عقيدة مع «الآخرين» من غير أتباعها، وهنا لن نجد فقط تطابقًا بين الإسلام وكل القيم الإنسانية العليا فى المواثيق الدولية مع الإسلام، بل سنجد إسهامًا إسلاميًا إنسانيًا متميزًا لدعم هذه القيم الراقية فى إسعاد البشر وإعزاز كل ما يتعلق بكرامة الإنسان وقيم العدل والخير والنماء والرحمة للعالمين.

عودة لوثيقة الفاتيكان عن الحوار الإسلامى المسيحى:

تبقى الإشارة هنا إلى الاستشهاد بوثائق دولية وقواعد مهمة أشارت إليها وثائق للفاتيكان وللحوار عبر الأديان والثقافات، مثل كتاب «من أجل حوار إسلامى مسيحى» حيث تطالب وثيقة الفاتيكان من العالم المسيحى بألا يقدم على ما يمثل شكلاً من أشكال العداء للإسلام والمسلمين لما فى ذلك من ضرر كبير على العالم أجمع، كما تطالب وثيقة الفاتيكان بما هو أكثر من ذلك وهو المتمثل فيما يلى:

«من الضرورى أن نحذر من قراءة مسيحية للقرآن الكريم حتى ولو كان يدفعه ويشجعه اهتمام صادق بالتقارب واللقاء؛ لأن المسلم يحتفظ لنفسه بحق تفسير النص، كما أن على المسيحى ألا يبادر إلى إعطاء المسلم دروسًا فى التفسير القرآنى، وبالمقابل عليه أن يفهم وبكل العمق، لماذا يؤثر الكتاب المنزل هذا التأثير البالغ فى قلب المؤمن وعقله»[1].

وتضيف وثيقة الفاتيكان وتشير إلى أهمية معرفة حقيقة مهمة تتعلق «بعلم قراءات النص القرآنى» التى تحتاج دومًا إلى متخصصين على مستوى عالٍ من الفهم للنص الدينى، وتشير وثيقة الفاتيكان إلى «قوة النص المدهشة، التى تفوق بالفعل، وفى أكثر الأحيان، كل من لا يستطيع تذوق هذا الكتاب الكريم باللغة العربية، وعلينا أن نعتقد أن ترجمته - وهنالك ترجمات ممتازة - لا يمكن أن تعبر عن البيان والفصاحة البالغين فيه مع الإيقاع والوزن المهمين...»[2]. فما بالنا بالترجمات الخاطئة والناقصة!! الأمر إذن يستلزم التفاوض على أهمية الرجوع للمرجعيات الإسلامية المعروفة كالأزهر وغيره إذا كان للمخلصين والجادين لحوار الثقافات والأديان أن يتصدوا للحملات الجائرة ويمنعوا أو يحدوا من تأثيراتها السلبية المدمرة للإنسانية جمعاء.

حالة تفاعلية رقم (٢) حالة حكايات أيسوب (من قصص الأطفال)

فى إطار إظهار أمثلة أخرى من أمثلة حملة المعلومات المضللة والجائرة ضد العالم العربى الإسلامى التى يتم شنها وتجذير

(١) مرجع سابق (من أجل حوار) ص٥٦، ٥٧.

(٢) السابق ص٥٧.

مفاهيمها فى الغرب ضد العرب والمسلمين وعلى مستوى زرعها عند أطفال الغرب، لفت نظرى الفتى إبراهيم حسن لما كان يقوم بقراءته بعد أن سمعني أتحدث عن موضوع هذه الدراسة، وفيما يلى القصة التى أغضبته، وجاءت فى كتاب «حكايات أيسوب» الأشهر والأكثر مبيعًا فى أدب الأطفال، وهو الكتاب الذى تمت ترجمته فى إطار المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة[1].

الحكاية التى جاءت بعنوان: حمولة من الأكاذيب

فى يوم من الأيام كان الإله «هرميس» يدفع أمامه عربة مليئة بالأكاذيب، ويتجول بها فى جميع أنحاء العالم، حملت العربة الشرور والآثام والآفات والغرور... إلخ وأراد أن يوزع بعضًا من الحمولة على كل بلد. ولكن يقال: إنه عندما وصل إلى أرض العرب تحطمت العربة أشلاء، وهجم السكان على الأشلاء يغتنمون ما فيها كما لو كانت بضائع قيمة، حتى لم يتبق شىء يمكن أن يحمله «هرميس» إلى أى مكان آخر!

المغزى الأخلاقى: «العرب أعظم الكَذَبَةِ فى العالم كله، وهم المخادعون الغشاشون على ظهر الأرض، فألسنتهم لا تعرف الحقيقة أبدًا»[2].

---

(١) راجع: إمام عبد الفتاح إمام «حكايات أيسوب»: دراسة وتعليق وترجمة، مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة.

(٢) يعلق د. إمام عبد الفتاح مترجم القصة فيقول: لقد آثرتُ أن أنقل هذه الحكاية كما هى دون أن أغير فيها شيئًا. وهى فى الواقع تحتاج إلى تأمل؛ لأنها مختلقة ومدسوسة على أيسوب، فالرجل بالقطع لم يكن يعرف العرب، ولا أظن أن الاسم نفسه كان معروفًا فى عصره (القرن السادس قبل الميلاد) فهى إذن موضوعة حديثًا، ومن ناحية أخرى لم أجد لهذه الحكاية أثرًا فى الترجمة القديمة التى قام بها الأديب الإنجليزى «سير روجر ليسترانج Sir Roger L'Estrange فى القرن السابع عشر، وعلى وجه التحديد عام ١٦٩٢ ـ فكان أول من قدم ترجمة لمجموعة =

خامسًا: خطابات وسيناريوهات اللاحوار واللاتفاوض

فى إطار عرضنا للخريطة الذهنية الكلية أو ذات النطاق الأوسع لحوار الثقافات والأديان، كان لابد من التوقف بالتحليل أمام نمط من المتفاعلين ممن يرفضون أو يتحفظون أو يعترضون على فكرة الحوار عبر الأديان والثقافات، ويمكننا تصنيف هذه الفئة إلى مستويات متعددة من واقع تحليل كمٍّ كبير من البيانات التفاعلية، وهى كالآتى:

ما بين المتحفظ واليائس وعقلية التآمر والوصاية والمولولين والمحرضين:

١- المتحفظون بعد تجارب سلبية فى الحوار والتفاوض عبر الثقافات والأديان... ولأن الحوار لم يأتِ بجدوى إلى الآن، بل إن الأمور لا تتحسن من وجهة نظرهم من خلال تلك الحوارات.. لأسباب عديدة.

٢- اليائسون من فكرة نحت وصياغة الأرضية المشتركة عبر الثقافات والأديان، ولقد سمعت أحدهم يقول: «أنا بعد أن كرست نفسى لفكرة الأرضية المشتركة لعدة سنوات، اتضح لى أن هذا الأمر يكاد يكون مستحيلاً فلندع العالم يتصارع!!».

٣- الذين سيطرت عليهم فكرة التآمر الدولى إلى أبعد حدودها إلى درجة الاستسلام، وأنه لا فكاك من فخ المؤامرات، وتسمع أحدهم

= «حكايات أيسوب» وهى الترجمة التى نشرت فى بلاد عديدة: إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، والولايات المتحدة... إلخ وطبعت عدة طبعات. إذن فالحكاية ليست من وضع أيسوب، ولكنها مرة ثالثة، موضوعة ومختلقة. فمن الذى وضعها يا ترى على هذه الصورة البشعة؟! لقد ظننت أن المترجم الإنجليزى الذى أنقل عنه يهودى، لكنه ليس كذلك.. فمن أين جاءت هذه القصة العجيبة؟! ومن الذى وضعها؟! وما هدفه؟! وإذا كانت هذه الحكايات «معدة لتدرس للأطفال فى كثير من الأحيان: فأى حقد يزرع فيهم منذ الصغر؟! وأى ضلال يترسخ فى نفوسهم فى هذه السن المبكرة نحو العرب: بلادهم، وأطفالهم، وقضاياهم؟!

يقول: «إن أى حوار يريدونه... يريدونه لتصفيتنا، وإنهم يستغلون كل شىء فى ذلك، ومنهم «أصحاب النيات الحسنة» ليكونوا وسيلتهم إلينا..».

ومن هؤلاء من يقول: «لا داعى للتعجب من الحملة ضد الإسلام والمسلمين فى الغرب، فقواتهم على أرضنا فى العراق وفلسطين والحملة فى الإعلام التى يشنونها مثل الشتائم... «فهل فيه ضرب من غير شتيمة»!!

٤- بعض عقليات «الوصاية الفكرية» التى ترى أن أمر حوار الأديان والثقافات والحضارات ما هو إلا فرصة الآخرين لاختراقنا أمنيًا وغزونا ثقافيًا، وأسلوب هذا النفر من الأوصياء يتسم بأنه «ليس على المستمع إلا أن يقول آمين... وأن الباب اللى يجيلك منه الريح... سده واستريح»!!

٥- «المولولون» و«المحرضون»: هناك مع الأسف قطاع من غير المفكرين الجادين والمجتهدين أو المدربين الذين يجيدون توجيه أقلامهم وأصواتهم لفكر الغوغائية وإثبات ما هو سهل، وهؤلاء تجدهم يرفعون شعارات على غرار «أمتنا فى خطر»!! وتجدهم يلعبون مباراة لإزاحة الآخرين من ساحة التفاعل لتفرغ لأمثالهم، فيتحركون من الإثبات السهل للشعار السهل جدًا المتمثل فى الأخطار المحيطة بنا من كل جانب إلى فكرة تأطير الآخرين ووصمهم بالعمالة أو الجهالة أو الاثنتين معًا، وتجدهم يقومون بهذا برعونة بالغة، لا أخلاقية، ولا دينية، كما يدعون ويلعبون فيها على أوتار التخلف والجهل والسهولة...

٦- قطاع يقول: «لا، لحوار الأديان.. والإسلام ضد صدام الحضارات» ويقصدون أن حوار الأديان ليس مضيعة للوقت فقط، بل هو أمر

خطأ؛ لأن فهمهم لمفهوم «حوار الأديان» هو مجرد الخوض فى العقائد فقط وهذا مجلبة للاختلاف وتعميقه.

إن هذا القطاع «اللاحوارى» بفئاته الست ممن يملكون رؤية أحادية غالبًا وضعفًا فى إرادة الفعل الإيجابى إلى آخر لحظة فى حياتهم، وهو قطاع فى ازدياد؛ نظرًا لعدة أمور تتعلق أساسًا بأن منهم من قد أصيب بعوامل الهزيمة النفسية تمامًا، ومنهم من يتصل بالنفعية وركوب موجات الإنشاء والاحتقان والاندهاش وتأكيد المؤامرات التى تستهدفنا واللافعل، وسوف نعود لتحليل ذلك كله فى إطار طرحنا لمنظور لغويات التفاوض، ومن منظور القواعد المقصدية للدين الإسلامى الحنيف.

سادسًا: الخطاب التفاعلى الباحث عن الأرضية المشتركة وصياغتها علميًا وأخلاقيًا فى حوار الثقافات والأديان والحضارات:

هناك عدد كبير من الباحثين عن العدل وعن الأرضية المشتركة التى ينبغى الوقوف عندها والسعى لصياغتها أو نحتها على أساس علمى وعادل وأخلاقى فى عمليات التواصل عبر الثقافات والأديان والحضارات، على الرغم من الظهور الطاغى لنظريات الصراع والصدام الحضارى التى ما كان لها أن تزدهر إلا بفعل آلة الإعلام الجهنمية والسيطرة الكبيرة على مساحات واسعة فيها، وإلا بفعل غياب الصوت المناهض للهيمنة ولنموذج الصدام الحضارى فى كل من العالم العربى الإسلامى وفى الغرب بما يحتاجه الأمر من جهود جبارة وتنسيق وتشبيك وحركة دولية قوية ينبغى أن نساهم فى خلقها لتكون طريقها لبناء القوة المطلوبة ولجعلها مؤثرة. ولعلى أرصد هنا أمثلة ومنطلقات للباحثين أو العاملين على إنشاء وصياغة الأرضية المشتركة وتتمثل فى الحالات التالية:

١- حالة الأبحاث العلمية الجادة والموضوعية التى تسعى لإظهار الحقائق بعيدًا عن حركة تسييس البحث العلمى السلبية التى كان من نتيجتها ظهور مروجى نظريات الصدام الحضارى، والدراسات الجادة والعلمية تفوق بكثير المُسَيَّسَة، وعلينا فقط الاطلاع عليها وفرز الغث والسمين فى هذا الصدد.

٢- حالة العديد من مؤتمرات الحوار عبر الثقافات والأديان الناجحة التى لا ترى نتائجها النور والتفعيل الصادق والمستمر أمام حالة كمائن المؤتمرات، أو حالة تفعيل أجندات غير صادقة وغير إيجابية فى سياقات بعينها.

حالة حركة الأمير تشارلز:

٣- حالة نداءات صادقة وتحركات عديدة فى كل من العالم العربى الإسلامى ومن الفاتيكان ومن جهات أخرى فى الغرب المسيحى معبرة عن البحث عن العدل والسلام العادل ومحاربة مشكلات المعايير المزدوجة ومشكلات العالم الملحة كالفقر وتلوث البيئة وفض النزاعات ومحاربة الإرهاب والعنف والاقتصاد وإعلاء قيم حقوق الإنسان الحقيقية، وليست تلك المستقرة وراء بريق مثل هذه المفاهيم لأجندات الهيمنة والتفتيت (كحوارات دارت فى الأزهر وفى الفاتيكان وفى كانتر بيرى وغيرها من زيارات ولقاءات ناجحة تحتاج منا إلى حصرها ومتابعتها وتفعيل نتائجها لإعطاء التراكم والزخم لدفع حركة دولية إيجابية تظهر بوجهها الإيجابى لصالح الجميع.

٤- دراسة حالة تفاعلات الشخصيات البارزة فى عالم اليوم وحالة الأمير تشارلز ولى عهد إنجلترا كحالة متميزة لخلق وصياغة

الأرضية المشتركة الفعالة، ولعلى أركز خاصة على منطلقات ما أسميه «بحركة الأمير تشارلز» والمتمثلة فيما أعلنه من منطلقات فى محاضرته المحورية ذات الدلالات المهمة بعنوان «الإسلام والغرب» فى افتتاح مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بجامعة أكسفورد العريقة، وإعادة محتواها أخيرًا فى سياقات حديثة فى عدة محاضرات ورسائل كتبها(١). وسوف نقدم قراءة تحليلية لخطاب الأمير تشارلز فى الجزء الثالث من هذه الدراسة لما يمثله من أساس قوى لمنطلقات صياغة الأجندة العادلة لأرضية مشتركة يمكن أن تغير من مسار العلاقات الدولية نحو آفاق أفضل وأرحب مما هو حادث اليوم وهو ما سنقدم له أمثلة فى إطار المنظور المقترح فى نهاية هذه الدراسة بالجزء الثالث.

سابعًا : خطاب موضوعات التفاعل الدولى فى عصر العولمة وطبيعة التفاوض التنازعى والتعاونى فى هذا السياق عبر الثقافات والحضارات

النمط السابع والأخير فى إطار تقديم الصورة المتكاملة لخطابات الخريطة الذهنية، ويتمثل فى ذلك النمط من الخطاب الذى يتوجه من خلاله مجموعة من المؤتمرين المتحاورين لعلاج ومناقشة موضوع مثل «الديمقراطية»، «محاربة الفقر»، «العنف»، «السكان»، «البيئة»، «التنمية»، «دور المرأة»، «السلام»... إلخ، وتقديم رؤية الخصوصية الدينية والثقافية عند تناول المشكلات التى يثيرها كل موضوع، من هنا يمثل هذا النوع من الخطاب امتدادًا لنمط الخطاب رقم ٦ الداعى

---

(١) راجع على سبيل المثال لا الحصر رسالة بعنوان «رسالة عن الإسلام من الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا» الموقع:

http://www.al-nasir.com/divineislam

والمؤسس لأرضيات مشتركة تتبلور أكثر من المنطلقات العامة إلى الخوض فى موضوعات معينة عبر الثقافات والأديان.

ومن الأمثلة لذلك المؤتمرات الدولية على غرار مؤتمر التنمية والسكان الذى انعقد بالقاهرة عام ١٩٩٤، وتتسم مثل هذه المؤتمرات بتدخل أنماط الخطابات السابقة فيها، فتكون صراعية تنازعية أو تعاونية وفعالة، كما حدث فى تفاعلات مؤتمر السكان حتى يتم صياغة أجندة دولية بعينها، وهذه المؤتمرات تتسم بالتفاوض الممتد والمستمر والمتراكم، ولابد من مشاركة العالم العربى الإسلامى فيها بإيجابية بعيدًا عن مساحات التفاوض المهجورة التى حينما نتركها تذهب إلى أجندات ونتائج وقرارات ليست فى صالح أجندتنا وخصوصيتنا الثقافية، وحالات هذه المؤتمرات وخطاباتها بحاجة إلى دراسة أخرى تفصيلية.

ـ الجزء الثانى الملف رقم ٢ ـ

المتطلبات التقنية الفعالة لإدارة الأجندات والسيناريوهات المتنازعة فى حوار الثقافات من منظور لغويات التفاوض

نتناول فى هذا الجزء الثالث من الدراسة أهم العناصر التى نعتبرها بمثابة المتطلبات التقنية الفعالة لإدارة الأچندات والسيناريوهات المتنازعة فى حوار الثقافات وهى كما يلى:

١ – إدراك مفهوم تفاعل النظم.

٢– فهم مستويات «الأرضية المشتركة».

٣– تجنب فخاخ الحوار والتفاوض وإدارة الأزمات.

٤ – التعامل مع التحديات المستقبلية وتفعيل السيناريو المعيارى المطلوب.

من هنا سنحاول فى هذا الجزء الذى يمثل ما نستخلصه من بحثنا هذا الإجابة عن الأسئلة التالية:

١–٣ ما المقصود بمفهوم «تفاعلات النظم» Systems Dynamics؟ ولماذا نوظفه فى عملية تحليل الخطابات التى رصدناها فى الخريطة الذهنية للخطابات ذات النطاق الأوسع فى حوار الثقافات والأديان والحضارات؟

٢–٣ماذا عن مفهوم «الأرضية المشتركة» Common Ground فى إطار إدارة الأچندات والسيناريوهات المتنازعة؟

٣-٣ ماذا عن «فخاخ التفاوض وإدارة الأزمات؟» & Negotiation Crisis Management Traps وكيف يمكننا رؤيتها فى إطار مادة «التفاعل فى حوار الثقافات والأديان والحضارات؟» وماذا عن فخاخ التأطير الخاطئ للإسلام خاصة فى الغرب ومستويات هذه الفخاخ فى الأداء الغربى من خلال تحليل خطاب الأمير تشارلز كممثل للعقول المنصفة فى عالمنا المعاصر؟

٣-٤ ماذا عن قناة الحوار والتفاوض وإدارة الأزمات الفعالة بعيدًا عن الانحياز والاستقطاب والانفعال؟

٣-٥ ماذا عن تحديات المستقبل وتفعيل السيناريو المعيارى المطلوب؟

ونبدأ بتناول السؤال ١-٣ فيما ورد قبل ذلك وهو: ماذا عن إدارة «تفاعلات النظم» Systems Dynamics ؟

قدم Jay Forrester نظريته التطبيقية لحل المشكلات الصعبة تحت مسمى «تفاعلات النظم» فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا الشهير MTT. - نفس المعهد الذى يعمل به عالم اللغويات الشهير نعوم تشومسكى -، ونظرية تفاعل النظم تقول إن «معظم الأحداث (والخطابات المتعلقة بها) فى حياتنا تحدث بشكل دائرى متزامن، وبالتالى ينبغى السعى لرسم خريطة ذهنية لفهم تفاعلات هذه النظم (الخطابات) ونمذجتها على شكل يحاكى ما يحدث فى حقيقة تفاعلات الحياة»[1].

(١) لمزيد من التفاصيل راجع المرجع التالى:

Millet, Stephen & Edward Honton, A Manager's Guide to Technology Forecasting and Strategy Analyses Methods, Baltle Press, Columbus, Richard 1991 (P.17).

وينبغى أن تفهم العوامل المؤثرة على كل «حدث» (أو خطاب) على حدة ثم توضح كل نطاقات الحلول Feedback لرؤية التأثيرات المتعددة لكل الأحداث (الخطابات) على بعضها البعض بما يمكن من التنبؤ بالتحرك السليم أو الأكثر سلامة...»[1].

ولقد حاولنا فى هذه الدراسة من خلال الخريطة الذهنية للخطابات المتنازعة أو المتعاونة فى إطار حوار الحضارات/ الثقافات أن نطبق جوهر نظرية تفاعلات النظم ـ التى يمكن أن نعتبرها الأساس الذى يمكن تطويره مستقبلاً فى دراسة أخرى بشكل إحصائى بعد إدخال كل العوامل Variables الخاصة بكل خطاب وتأثير كل خطاب على الآخر من خلال المعالجة الحاسوبية، ومن الواضح من خلال هذه النظرية أن نموذج «صدام الحضارات» مثلاً النمط رقم (٤) فى الخريطة الذهنية بالجدول رقم (١)، والذى يتم تغذيته عبر آلة الإعلام الغربية قد أوجد بدوره خطاب «اللاحوار واللاتفاوض» (النمط الخامس) (بالجدول رقم ١) وقد ساهم فى هيمنة أخطاء (مقصودة أو غير مقصودة) أخرى كما فى حالات خطاب السجال الدينى (رقم ١بالجدول رقم (١))، وخطاب الكمائن (رقم ٢ بالجدول رقم (١)) وأن «خطاب المعلومات الناقصة» ((٣) بالجدول رقم (١)) قد أثر على فاعلية الخطابات، وكل هذه الخطابات أثرت سلبيًا على خطاب الأرضية المشتركة الفعالة وخطاب موضوعات التفاوض الدولى فى عصر العولمة.

ولكن الخطورة التى تنبه إليها هذه الدراسة تتمثل فى أن نستسلم للوقوف على مربعات نموذج صدام الحضارات حيث تريد فئة ضالة،

(١) السابق، ص١٧.

لا تعبر عن أغلبية الروح العامة لشعوب الأرض أن توقف العالم وتقوم بتعبئته على هذه المربعات... وهذه التعبئة (الجائرة) والمستفزة تتجه لتكون ضد عالمنا العربي الإسلامي... من هنا ومن باب التفاوض النضالي المنطلق من القواعد المقصدية الكبرى للإسلام.. ومن منطلق السعي إلى تفويت الفرصة على مروجي مربعات الصدام الحضارى ومن أصابتهم حالة من الهزيمة النفسية التى تجعل البعض منا لا يرى المربعات التي ينبغي أن نقف عليها، تحاول هذه الدراسة من خلال تصنيف فهم نظم التفاعل التى نحن بصددها والسعى للتعامل مع كل «نظام» أو كل «خطاب» من منطلق الصيغة الفاعلة المقاومة إيجابيًا وهو ما حاولنا توضيحه من خلال تذييل كل خطاب بأسئلة تتعلق بمزيد من الفهم والمزيد من ضبط المعادلات الخاصة بكل خطاب لصالح أچندتنا الوطنية فى العالم العربى الإسلامى فى زمن حروب الهوية التى تمر بها... وما يتطلبه ذلك من إعداد الكوادر المدربة... التى نحتاج إلى أعداد كبيرة منها لإدارة صراعات مصيرية لا يمكن لأى مخلص أو منتمٍ عضويًا لهذه الأمة أن يتركها فى أيدى المندهشين أو المستقطبين والمحبطين أو العشوائيين أو الديناميكيات «صدام الجهالات»[1] دون القيام بما نستطيعه من تدخل إيجابى.

٣-٢ ماذا عن فهم مستويات مصطلح «الأرضية المشتركة» فى إطار إدارة الأچندات والسيناريوهات المتنازعة؟

يتحدث الكثيرون عن مفهوم «الأرضية المشتركة» بمصطلحات بالعربية شاعت إلى حد كبير مثل «المشترك الثقافى» وكأن الأمر

(١) أطلق مصطلح «صدام الجهالات» المناضل والمفكر الراحل إدوارد سعيد فى تعليقه على مفهوم «صدام الحضارات».

كـ«المشترك الكهربـائى» الذى يوضع فى «كوبس الكهرباء» وينتهى الأمر فى غاية السهولة... ويتحدث آخرون عن المصطلح كما لو كان مفهومًا مستحيلاً وينتمى إلى العيش فى «المدينة الفاضلة»، والتى لا واقع لها فى عالم اليوم؛ ولذلك ينتهى إلى القول بأنه قد: «وجد الأمر مستحيلاً»، و«ليتصارع العالم وليكن ما يكون..!» من هنا كان من المهم التعمق أولاً فى فهم مصطلح «الأرضية المشتركة» "Common Ground"، أو الذى قد يكون أكثر تحديدًا فيكون بالإنجليزية: Common Identification Ground وبالعربية نحت أو تعريف أو تحديد الأرضية المشتركة.

وإذا كان من المهم دائمًا تعريف المصطلح بنقيضه، فإن نقيض المصطلح هو «أرضية الاشتباك» أو «أرضية تتسم بالحالة النزاعية والصراعية» Contested Ground» وطبقًا للمعنى الشائع لدى الكثيرين فإن «الأرضية المشتركة» هى أرضية الحق والخير والجمال بين البشر، وهذا تعريف مثالى ولابد أن يكون واردًا لدى كل ذوى العقول الراجحة والمنصفة، لكنّ هناك صورًا أخرى لفكر الأرضية المشتركة؛ أى أن التعريف السابق ينطلق من حالة سلمية ونفسية سلمية، ولكن الأرضية المشتركة تكون مطلوبة فى حالة السعى الأولى لوقف صراع دام أو اختلافات عميقة، وكلمة «الأرضية المشتركة» تتسع لسياقات عديدة، فهناك مثلاً أبحاث عن «الأرضية المشتركة» لصانعى السيارات أو لصانعى أى شىء فى لحظة معينة من لحظات تقلب الأسواق.

ومن منظور علم لغويات التفاوض، تدخل مسألة «الأرضية المشتركة» تحت أكثر من بند من البنود التقنية لعمليات التفاوض والحوار مثل:

٣-٢-١ الأرضية المشتركة بمعنى النقطة الرئيسية فى حاجة هذا الطرف أو ذاك Ground وهناك الكثير مما يقال عن هذا الموضع فى إطار تحليل الحجج وتبادلها Argumentation.

٣-٢-٢ الأرضية المشتركة بمعنى أولويات نقطة البداية، وهنا نجد فى لغة التفاوض جملاً عديدة مثل They completed the ground work for the first stage of the negotiation لقد أكملوا العمل الأولى اللازم للمرحلة الأولى للتفاوض.

٣-٢-٣ بمعنى الأرضية الصلبة للجميع وليست الهشة أو الضعيفة We stand on a solid ground. نحن الآن نقف على أرضية صلبة.

٣-٢-٤ الأرضية المشتركة... هى أرضية خارج إطار النزاع المباشر تقف عليها الأطراف تمهيدًا لحله (كما فى حالة المسار الثانى Track 2).

٣-٢-٥ الأرضية المشتركة تتعلق بمفهوم مثل «قاعدة أرضية الانطلاق» أو «القاعدة الحاكمة» "Ground Rule" المبدأ الرئيسى أو العبارة الرئيسية أو الإجراء الرئيسى الذى يحكم موقفًا ما، من هنا تكون عبارة مثل عبارة «الأرض مقابل السلام» Land for Peace فى عملية السلام فى الشرق الأوسط مثلاً هى عبارة تساوى قاعدة حاكمة أو إجراء أساسيًا يتعين اتخاذه والالتزام به.

٣-٢-٦ الأرضية المشتركة فى عرف اللغة والممارسة المنضبطة تساوى الوصول إلى ضبط معادلات بين الأطراف تحقق المصالح المشتركة، وهذا لا يمنع أبدًا من الاحتفاظ

بالاختلاف وبالتعايش فى إطاره وعدم السماح بأى تمييع طرف لهوية الآخر أو المساس بأى من معتقداته... أى ليس من «الأرضية المشتركة» فى شىء - كما ذكرت فى حوار لى فى مقابلة مع الإعلام الألمانى وفى فاعليات للحوار عبر الثقافات - أن يكون لدى البعض انطباع بصحة ما يُعرف فى الثقافة الغربية «باللينونية» وما شابهها (نسبة لجون لينون) الذى كان يدعو للسمو والتسامى البشرى وإبعاد الدين عن منطقة التفاعل الإنسانى وفى هذا رؤية غير إنسانية أو منطقية فى حقيقة الأمر سواء فى الشرق الإسلامى أو فى قطاعات واسعة من الغرب المسيحى، ولكن فليؤمن كل إنسان بما يراه، وليكن الدين هو القوة الإيجابية نحو التفاعل الإنسانى الخلاق وإدارة علاقات نحو سعادة البشر وإدارة الاختلافات.

إذا حاولنا بعد كل هذا التقديم الأساسى لمفهوم «الأرضية المشتركة ونحتها أو صياغتها» فإن ذلك فى إطار موضوع حوار الثقافات والحضارات (والأديان) له طبيعته الخاصة... فهناك «أرضية مشتركة» بخصوص كل سيناريو من سيناريوهات وأجندات الخريطة الذهنية التى قد قدمناها فى هذه الدراسة وهناك أرضية مشتركة فى عمليات إدارة كل سيناريوهات حوار الثقافات والحضارات والأديان.

فهنا نتحدث عن مستويين ينبغى التعامل معهما فى آن واحد وهما:

الأرضية المشتركة التى ينبغى نحتها فى إطار كل سيناريو وإدارة السيناريوهات المدعمة لفكرة الحوار الإيجابى والعادل، وهنا نجد

مثلا فى حالة «سيناريو الحوار الثيولوجى» ينبغى أن تكون الأرضية المشتركة هى السعى لترشيد المناقشات فى هذا البعد بأساليب تبتعد عن المساجلة كما ذكرنا وكما فى حالات أحمد ديدات وچيمى سواجرت أو ظهور القس زكريا على إحدى الفضائيات ليقدم مرئياته غير العلمية والمدمرة لأى حوار إيجابى، وفى حالة سيناريوهات المعلومات بأبعادها الناقصة والخاطئة والعدائية لابد من تكوين مرصد إعلامى لحوار الحضارات والثقافات يقوم بالرد الفورى على الأخطاء ويصححها ويدين التجاوزات، وعلينا السعى المستمر لتفعيل وزيادة تأثير هذا المرصد من خلال دبلوماسية دولية للحوار تعبر عن رأى الأغلبية فى العالم، وهذا جهد كبير مطلوب، ومطلوب الشروع بالبدء فيه، فبداية الألف ميل خطوة صحيحة فى الاتجاه الصحيح لمنع التعبئة الجائرة الحادثة اليوم التى ستؤدى إلى سيناريوهات الانفلات والفوضى الدولية.

٣ - ٣ ماذا عن فخاخ ومربعات التفاوض وخطابات الخريطة الذهنية التى يتعين علينا التعامل معها بحذر فى موضوع حوار الثقافات والحضارات خاصة فيما يتعلق بالأبعاد النفسية؟

وهنا نتحدث عن عدة فخاخ تسمى فى علم التفاوض بـ Negotiating Traps[1] وإذا طبقناها على بيانات ومحتويات سيناريوهات الخريطة

---

(١) هناك عدد من الدراسات التى تناولت مفهوم فخاخ التفاوض، ولكن ما نقدمه فى هذه الدراسة بخصوص هذا الموضوع يتسم بتفصيلات وأنواع أكثر اتساعا بكثير مما قدمته الدراسات المشار إليها، حيث إن الاندماج مع ملف حوار الثقافات والحضارات خاصة الذى قدمه الكاتب من خلالها من مناظرات قد أثرت لدى الكاتب عملية الاندماج والتحليل والخروج بتصنيف أكثر اتساعا وثراء مما قدمته هذه الدراسات الغربية، والتى يحمد لأصحابها ما قدموه فيها من علم ينتفع به.

الذهنية للخطابات المقدمة فى هذه الدراسة (الجدول رقم ١) لوجدناها عند محاولتنا للإجابة عن الأسئلة التالية:

١-٣-٣ ماذا عن فخ «صدام الحضارات» ومربعات التفاوض الخاصة به؟ وماذا عن حجة قيام الحربين العالميتين الأولى والثانية؟

تناولنا فى سياقات عديدة سابقة أنماط الخطاب المتعلقة بنموذج صراع الحضارات بشىء من التفصيل[1] ويكفى فى سياقنا هذا أن نذكر بإيجاز أن نموذج الصدام الذى روج له هنتينجتون وبايبز وبرنارد لويس وغيرهم من باحثى «تفعيل النموذج» يضع العالم فى ثنائية تبسيطية ساذجة مفادها أن عالم قيم الحضارة والليبرالية والانفتاح سيكون معرضًا لهجمات من عالم الانغلاق والتزمت والعنف والإرهاب المتمثل فى «الإسلام» و«العالم الإسلامى»؛ أى أن الحروب القادمة هى «حروب ثقافية»، وبالطبع هناك عشرات الانتقادات البحثية والدبلوماسية لهذا الفكر التسطيحى والاختزالى المرفوض من أصحاب العقول الراجحة والمنصفة حتى فى عمق الداخل الأمريكى ذاته، ومن أقوى الحجج التى تثبت ضعف حجة هذا النموذج هو أن أكبر الحروب التى خاضها العالم (الحربين العالميتين الأولى والثانية) كانتا فى داخل الحضارة الغربية ذاتها وليست بسبب الأديان والثقافات بقدر ما كانت بين الأطماع وقصر النظر ومباريات التناحر الصفرية وفساد النفسية والأحقاد والكراهية والاندفاع الأحمق وراء المصالح الضيقة التى تذهب بالأخضر واليابس عندما

(١) حسن وجيه حسن، حروب الهوية ومستقبل التفاوض مع الغرب، المكتبة الأكاديمية القاهرة ٢٠٠٢، وكذلك كتاب العقل العربى والعقل الأمريكى إلى أين: معضلات التواصل ومعضلات السياسة، المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠٤.

تصل ذروتها كما حدث فى الحربين العالميتين الأولى والثانية، الفخ يتمثل أساسًا هنا فى: القبول الساذج لقطاع من الغربيين لهذا النموذج والترويج له وخاصة من خلال قطاعات آلة الإعلام الغربية المستخدمة بأبشع صورها لترويج هذا النموذج. ومن أهم أسباب هيمنة هذا النموذج على ساحة الحوار اختطاف أمثال أعضاء القاعدة للدين الإسلامى ووصمه بمعاداة أصحاب الأديان الأخرى، وهنا يتم بقصد أو بدون وعى التأكيد على صلاحية هذا النموذج بالتفاعلات السلبية المروجة له والمستخدمة للترويج لهذا النموذج الصِّدامى. ومما دعم من هيمنة النموذج الصدامى وجود خطابات اللاحواريين واللاتفاوضيين؛ أى الرافضين لأى حوار خاصة فى عالمنا العربى الإسلامى لعدم رؤيتهم للقطاعات الأكبر غير المؤثرة تمامًا إلى الآن فى العالم والمناهضة لفكر الصدام الحضارى، والتى تحتاج إلى التفعيل وإحداث التأثير... وبالتالى تجدهم فى نهاية المطاف يقفون على مربعات هنتينجتون وأمثاله من مروجى فكر الصدام... بدلاً من الرد العلمى للكشف عن ضعف وسذاجة هذا النموذج العدائى، وإنشاء رءوس كبارى مع من يقفون على نفس مربعاتنا المضادة للنموذج الصدامى حتى ولو كان الأمر تحكمه دوافع مختلفة... فإن مثل هذا التحرك الإيجابى يمنع على الأقل التعبئة الجائرة ضدنا أو المزيد منها.

كما أن التصدى يعنى قيامنا بدور إيجابى تجاه أنفسنا بعمل ما أسميه «المصدات النفسية» اللازمة للتصدى لحرب نفسية وشرسة وممنهجة توجه إلينا ولا يجدى أسلوب «سيناريو النعامة» فى مواجهتها.

٣-٣-٢ فخ البقاء فى سجن الانطباع الأول والمعلومة الأولى وفخ المعلومات الخاطئة والناقصة والمضللة Anchor & Misinformation Trap

من فخاخ التفاوض المعروفة ما يُعرف بفخ سجن المعلومة الأولى Anchor Trap عندما يقع المفاوض أسيرًا للمعلومة والانطباع الأول، ولا يستقبل بسبب وقوعه فى هذا الفخ أى معلومات مستجدة تؤكد أو تنفى الانطباع الأول، وهذا الفخ يرتبط بفخ المعلومات بمستوياتها الخمسة التى تعرضنا لها بالتحليل وبالأمثلة التفصيلية فى عرضنا لخطابات الخريطة الذهنية (الخطاب رقم ٣ بالجدول رقم ١) من الواقع الغربى ومن الواقع العربى الإسلامى؛ وهو الأمر الذى يحتاج منا إلى إنشاء مرصد إعلامى دولى يتعامل بإيجابية مع هذه الفخاخ، وهو ما سنقدم له تفصيلات أخرى فى دراسة أخرى مكملة لهذه الدراسة.

وفى هذا الإطار نذكر هنا ما يتعلق بالفخ الأول أى «فخ نموذج صدام الحضارات» المشار إليه فى (١) أعلاه، هو ما يتعلق بالأداء الإعلامى العابث فى الواقع الغربى المعروف، والذى تعرضنا له فى سياقات سابقة لنرصد هنا مثالاً للإعلام العابث وغير المدرك للصورة بأكملها أو بنظرية مربعات التفاوض فى واقعنا العربى الإسلامى؛ حيث ينبغى التعامل الإيجابى مع طبيعة مباراة «تفاوض المربعات الراهنة» التى تهدف إلى تعبئة جائرة ضد العالم العربى الإسلامى من ناحية، ووضعنا على مربع «الحالة الاحتقانية المندفعة إلى نفس اتجاه» إحداث وتفعيل نموذج «الصدام الحضارى» المرفوض من قبلنا، والمروج له من قبل دوائر العداء للعالم العربى الإسلامى. وهذه الدوائر تهدف إلى شن حرب نفسية تصل إلى أبشع مستوياتها بالهجوم المباشر على المعتقدات الإسلامية، والتى

تتضمن الهجوم على القرآن الكريم والإساءة الممنهجة لرموزنا الدينية؛ إما بهدف التشكيك فى نظام القيم الأعلى لدينا أو لإحداث حالة من التحقير المتعمد. هنا إذا اندفع الإعلام فى واقعنا العربى الإسلامى للوقوف على هذه المربعات فإنه إعلام عابث لا يُدار بالمستوى المتوازن المطلوب؛ أى ذلك الذى ينظر إلى أنماط الخطابات العديدة الأخرى ويغطيها (غير المُروَّج لها فى دوائر إعلام الحرب ضدنا) بهدف منع حملة المعلومات المضللة والجائرة التى تستهدفنا. فإذا ما قيَّمنا تفاعلات الكثير من وسائل إعلامنا، وهو الأمر الذى أكرس له دراسة أخرى مكملة لهذه الدراسة، لوجدنا مؤشرات أولية سلبية للغاية، فلا يمر أسبوع إلا ونرى هذه «الجريدة الصفراء» أو تلك تنشر نصوص كتاب صدر فى الغرب تعيد فيه ـ مع كل الأسف ـ أوصاف الشتائم والوقاحة الموجهة ضد نبى الإسلام محمد ـ أفضل الصلاة والسلام عليه ـ وهنا نرى الهدف من الحرب التى تشن ضدنا يتحقق ويطلق عليه فى مفردات حروب المعلومات Perfect Information War أو «حرب المعلومات الناجحة إلى أبعد حد» حيث يفعل الخصم تمامًا، وفى الغالب، دون أن يشعر ما يُراد له أن يفعله من جراء شن حرب المعلومات المضللة.

إن إعادة إنتاج ما تروج له الحملات العدائية فى الإعلام الغربى فى وسائل إعلامنا يعنى نجاح الحملات العدائية.. وكأننا نسينا مَثَلاً شعبيًا مصريًا يقول «ما شتمك إلا من بلغك»... والقضية هنا أن على الإعلام الممثل لواقعنا العربى الإسلامى ألا يقف على المربعات المصممة له، بل عليه أن يعى ما المربعات التى تفقد العدو والخصوم أهدافهم... ولا مانع من الإشارة إلى الأدبيات المعادية، ولكن فى

إطار فضحها والتعامل الإيجابى معها، وعرض النماذج المضادة لها والمعبرة عن القطاع الأفضل والأكبر وغير المروج له فى الغرب.

٣-٣-٣ فخ منطقة الأمان/ الاستراحة بين الاعتزال واللافعل وترك الساحة لواعظى ومروجى الكراهية Comfort Zone Traps & Hate Preaching Trap

مفهوم فخ منطقة الأمان الوهمى Zone Trap Comfort من المفاهيم فى علم التفاوض التى من شأنها تحذير المتفاعل/المفاوض فى سياق أى موضوع من انتهاج سيناريو النعامة؛ أى أن يؤثر السلامة كالنعامة التى تضع رأسها فى الرمال حين ترى الأخطار، وكأنها عندما لا تراها، تظن أن مثل هذه الأخطار قد تبددت، فهذا عين ما قد يختار فعله الكثير من المتفاعلين والمتفاوضين عندما يتجنبون الخوض فى الأمور الصعبة أو المعقدة فيؤجلونها أو يتجنبونها على الدوام إلى أن تصبح سلوكًا دائمًا مما يجعل الأمور تنفجر فى حالات متقدمة بسبب عدم معالجتها أولاً بأول وبشجاعة... وإذا ما نظرنا إلى هذا الفخ فى إطار تحليلنا لمادة بيانات دراستنا هنا لوجدنا أن الكثيرين من المؤهلين للحوار وللتفاوض، إما أنهم لا يمارسون دورهم أو يستكينون لتهميشهم، فيقف غير المدربين وغير المؤهلين فى موقع متقدم مع وجود صلاحيات غير محدودة لهم فيزيدون «الطين بلة» وتتفاقم الأمور على أيديهم بطبيعة الحال إلى نقطة اللاعودة أحيانًا. أضف إلى هذا البعد صحوة من يمكننا تسميتهم بواعظى الكراهية، حيث نرى فى الغرب الكثيرين من أصحاب حالات التطرف الدينى غير المسبوق فى التاريخ الإنسانى، خاصة من يسمون بحركة المسيحيين المتصهينين من ناحية وبأصحاب الفهم الخاطئ للإسلام من وعاظ لا يملكون سوى الجهل والتزمت ممن يعلنون الحرب

على الأديان الأخرى باسم الإسلام والإسلام منهم برىء من ناحية أخرى[1]... وهذا المأزق يحتاج إلى أن يتحرك المتدربون والمعتدلون فى كل من العالم العربى الإسلامى، وفى الغرب للتعامل إيجابيًا مع هذا المأزق الضار للغاية للجميع فى نهاية المطاف.

٣-٣-٤ فخاخ التأطير الخاطئ Mistaken Framing Traps للمشاكل وفخاخ التأطير الخاطئ للإسلام فى الغرب:

فخ التأطير Framing Traps من الفخاخ المعروفة التى ينبغى على المفاوض فى أى سياق أن يعلم ويتدرب على عدم السقوط فيه... ولقد ذكرت صيغة الجمع، فقلت «فخاخ التأطير»؛ لأن هذا الفخ له أكثر من شكل، وأول أشكاله هو أن يتم تأطير وفهم المشكلة فى إطار يكون بعيدًا عن الفهم الصحيح لهذه المشكلة أو تلك، وبالتالى يكون الحل فى إطار آخر خاطئ أيضًا... وفخ التأطير الخاطئ فى قضايا حوار الثقافات والحضارات، خاصة بين العالم العربى الإسلامى والغرب له أمثلة كثيرة ومتعددة وأهمها من ملف بيانات هذه الدراسة يتمثل فى الآتى:

المثال الأول: هو أن هناك دوائر مهيمنة فى الغرب ترى أن مفاهيم مثل الحرية والديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان من مستوى معيشة إلى أمان للأطفال وللمرأة... إلخ، هى أمور ليس لها مكان على أجندة المواطن العربى ولا ينظر أصلاً إليها، وبالتالى فهو عدو لها ويحارب الغرب بسببها... وهى ذات المفاهيم التى تحرك قوى فى الغرب لمحاولة فرضها، ولو بالقوة العسكرية، وهى أمور لا يمكن

(١) راجع لكاتب السطور دراسة تفصيلية عن فكر المسيحيين المتصهينين بعنوان «تحديات الدور المصرى وآفاق المستقبليات: ما بين التنبؤ والتبوءات.. دراسة من منظور لغويات التفاوض»، المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠٣م.

فرضها بالقوة، كما أن المواطن العربى المحاصر ـ من ديكتاتوريات من ناحية وضغوط خارجية تتحجج بهذه الحجة من ناحية أخرى ـ يرى أن الغرب يسعى فقط لتحقيق الأطماع والهيمنة من وراء تلك المصطلحات البراقة، كما أن وضع هذه الثنائيات الإطلاقية والتبسيطية التى ترى أنه لا أهمية تذكر لهذه المفاهيم الراقية فى جوهرها إنما هى فعل من أفعال محاولة لإخراج الإنسان فى العالم العربى والإسلامى من إنسانيته "Act of Dehumanizing".

المثال الثاني: تحليل خطاب الأمير تشارلز ورصد فخاخ التأطير الخاطئ للإسلام على أكثر من مستوى[١]، مثل:

– «التأطير الخاطئ للشريعة الإسلامية وأحكامها السامية».

– «التأطير الخاطئ لعلاقات المسلمين بالآخرين من أصحاب العقائد الأخرى».

– «التأطير الخاطئ للإسلام كمولد للعنف والإرهاب».

– «التأطير الخاطئ للفصل بين الإسلام والعلم».

إن هناك عشرات من الردود قدمها العالم العربى والإسلامى بخصوص أمثلة التأطير الخاطئة المشار إليها أعلاه، ولكننى سأكتفى بالاستشهاد التحليلى/التصنيفى إلى أجزاء مطولة بعض الشيء لأهميتها الخاصة من خطاب الأمير تشارلز التى كررها فى

(١) بخصوص خطاب الأمير تشارلز موضع الإشارة والتحليل هنا راجع: خطاب صاحب السمو الملكى الأمير تشارلز ولى العهد البريطانى بعنوان «الإسلام والغرب»، والذى ألقاه فى مسرح شيلدونيان، أكسفورد، بمناسبة زيارته لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية، فى ١٩٩٣/٩/٢٧، والذى طبعته بالعربية والإنجليزية مطابع جامعة أكسفورد ببريطانيا.

عدة مناسبات ونشرت على نطاق المناسبات التى قيلت فيها[1]، وينبغى إبراز أهميتها على نطاق أوسع؛ لأنها تخدم معظم الشروط الناقصة اليوم فى حوار الثقافات والحضارات فيما بين الغرب والعالم الإسلامى، وكونها صادرة من غربى فى مقام الأمير تشارلز.

عن الحقيقة المحزنة وفخ التأطير الخاطئ للإسلام كمصدر للخوف والشك:

يصف الأمير تشارلز الحقيقة المحزنة المتمثلة فى سوء الفهم والتفاهم بين عالم الدول العربية الإسلامية والغرب فيقول متسائلاً:

«الحقيقة المحزنة هى أنه على الرغم من التقدم فى مجال التكنولوجيا ووسائل الاتصال فى النصف الثانى من القرن العشرين، وعلى الرغم من سفر الناس على نطاق واسع واختلاط الأجناس وإماطة اللثام - أو هكذا نعتقد - عن كثير من ألغاز هذا العالم، فإن سوء الفهم بين الإسلام والغرب لا يزال مستمرًا، بل وربما أخذ يزداد.

---

(١) بخصوص تكرار وتأكيد ما ذكره الأمير تشارلز فى عدة مناسبات أخرى راجع على سبيل المثال:

"A sense of the sacred: Building Bridges Between Islam & the West" a speech delivered by H. R. H. Prince Charlez of England on Dec. 13, 1996 at the fiftieth anniversary celebration of Wilten Park a respected ** in England for the study of international issues.

وبخصوص ردود الأفعال حول خطابات الأمير تشارلز راجع على سبيل المثال لا الحصر:

- The Independent, July 1, 1994.
- Sunday Times, May 26, 1996.
- The Times, Dec. 14, 1996.
- Richard Kay, "The Wise Men of Islam", Daily Mail, Jan. 6, 1997.
- John Casey, "Friend of Islam given a hero's welcome", The Daily Telegraph, Mar. 8, 1997.

إن سوء الفهم هذا، بالنسبة للغرب، لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل، فهناك بليون مسلم فى شتى أرجاء العالم، يعيش الملايين منهم فى بلدان الكوموتولث. وهناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر فى الغرب، ومن بينهم حوالى مليون فى بريطانيا. إن جاليتنا الإسلامية تنمو وتزدهر منذ عقود، فهناك حوالى ٥٠٠ مسجد فى بريطانيا، والاهتمام الشعبى بالثقافة الإسلامية يتنامى بسرعة. إن الإسلام يحيط بنا من كل جانب، ومع ذلك يستمر الشك والخوف»[١].

وعن فخ التأطير الخاطئ لقوانين الشريعة الإسلامية Mistaken Framing of Islamic Creed Laws، وأهمية الفصل بين التدين والتطرف وخطورة منطق وصم الإسلام بالتطرف:

يقدم الأمير تشارلز رؤية تاريخية يربطها بأحداث الحاضر، وينتقد من خلالها الفهم السطحى أو التسطيحى المتعسف لقوانين الشريعة الإسلامية فيقول:

«تغيرت الصورة وأصبحت الدول الغربية تحتل جميع العالم العربى تقريبًا، وبدا أن انتصار أوروبا على المسلمين اكتمل بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية. صحيح أن أيام الفتوحات تلك قد انتهت، ولكن موقفنا من الإسلام لا يزال يعانى حتى الآن؛ لأن أسلوب فهمنا له اختطفه التطرف والسطحيات، فكثيرون منا فى الغرب ينظرون إلى الإسلام بمنظار الحرب الأهلية المأساوية فى لبنان وأعمال القتل والتفجير التى تقوم بها جماعات متطرفة فى الشرق الأوسط، وبمنظار ما يشار إليه عمومًا بعبارة «الأصولية الإسلامية».

(١) السابق، «الإسلام والغرب» للأمير تشارلز ص١٠.

لقد عانى حكمنا على الإسلام التحريف الجسيم نتيجة الاعتبار بأن التطرف هو القاعدة. إن هذا خطأ جسيم، فهو مثل الحكم على نوعية الحياة في بريطانيا من خلال وجود جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء على الأطفال وإدمان المخدرات. صحيح أن التطرف موجود ولابد من معالجته، ولكنه عندما يستخدم أساسًا للحكم على مجتمع فإنه يؤدى إلى التحريف والإجحاف»[1].

ويضيف تشارلز قائلاً: «فمثلاً، كثيرًا ما يجادل الناس فى هذه البلاد بأن قوانين الشريعة فى العالم الإسلامى قاسية ووحشية ومجحفة، ويروق لصحفنا فى المقام الأول أن تروج هذه الأفكار الاعتباطية المجحفة. والحقيقة بالطبع مختلفة وأكثر تعقيدًا على الدوام. وفهمى الشخصى هو أن النواحى المتطرفة نادرًا ما تُمارَس، ولابد أن المبدأ الموجه وروح الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ينصَّانِ على الإنصاف والرحمة. علينا أن ندرس التطبيق الفعلى للشريعة قبل أن نصدر أحكامنا، وعلينا أن نميز بين أنظمة العدالة التى تدار باستقامة وأنظمة العدالة كما نراها قيد التطبيق، والتى قد حُرِّفت لأغراض سياسية وتحولت إلى شىء لم يعد إسلاميًّا»[1].

وعن فخ المادية المجحفة Blunt Materialistic Trap التى وقع فيها الغرب والعالم، وعن فخ الغطرسة الغربية فيما يتعلق بمصطلح «الأصولية» وعن تخوفات العالم الإسلامى:

ينتقد تشارلز الواقع المادى العالمى الذى أضعف الجانب الروحى فى الغرب، ويرى بإنصاف عقليات المنصفين فى كل زمان ومكان أهمية

(١) السابق، ص١٤.

القوة الروحانية التى يتسم بها الإسلام، وكيف يستفيد منها الغرب فيقول: «علينا فى الغرب أيضًا أن نفهم نظرة العالم الإسلامى إلينا، فالمرء لا يجنى مكسبًا، بل يتسبب فى كثير من الأذى إذا رفض تفهم مدى التخوف الحقيقى لكثير من الناس فى العالم الإسلامى من ماديتنا الغربية وثقافتنا الشعبية باعتبارهما تحديا فتاكًا لثقافتهم ونسق حياتهم الإسلامى. وقد يظن بعضنا أن الزخارف المادية لمجتمعنا الغربى التى نصدرها إلى العالم الإسلامى من التلفزيون ووجبات الطعام السريعة، والأجهزة الإلكترونية التى نستعملها فى حياتنا اليومية إنما تنطوى على تأثير جيد بحد ذاتها، وتستهدف العصرنة. ولكننا نسقط فى فخ الغطرسة المقيتة إذا نحن خلطنا بين «العصرية» فى البلدان الأخرى وتحويلها إلى أشباه لنا. وحقيقة الأمر هى أن شكل المادية لدينا يمكن أن يجرح مشاعر المسلمين الأتقياء، ولا أعنى بذلك المتطرفين بينهم فحسب. علينا أن نتفهم رد الفعل هذا بقدر ما على العالم الإسلامى أن يتفهم موقف الغرب من بعض النواحى الصارمة فى الحياة الإسلامية. علينا أن نحذر تلك التسمية المثيرة للعواطف «الأصولية»، ونميز كما يفعل المسلمون أنفسهم بين دعاة الصحوة الدينية الذين يختارون ممارسة دينهم بأعلى درجات التقوى والمتعصبين أو المتطرفين الذين يستخدمون هذه التقوى لتحقيق أهداف سياسية. ومن بين الأسباب الدينية والاجتماعية والسياسية لما يمكن أن نسميه على نحو أدق بالصحوة الإسلامية شعور قوى بخيبة الأمل من جراء الإدراك بأن التكنولوچيا الغربية والأشياء المادية ليست كافية، وبأن مغزى أعمق للحياة يكمن فى مكان آخر فى جوهر العقيدة الإسلامية»[1].

(١) السابق. ص١٦، ١٧

وعن فخ التأطير المتعسف للإسلام والمسلمين بالتطرف (وأن التطرف ليس حكرًا على دين بعينه):

يؤكد التحليل الموضوعي لخطاب الأمير تشارلز على روح الإنصاف والموضوعية ذات المستوى التقمصي الرفيع، وهنا نرصد من واقع هذا الخطاب رفض إلحاق التطرف والعنف بالإسلام بحكم الاطلاع الدقيق على هذا الدين من قبل الأمير تشارلز، وإن التطرف والعنف والإرهاب لا دين لها، وهنا يقول: «إن علينا في الوقت نفسه، ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن التطرف هو سمة المسلم وجوهره، فالتطرف ليس حكرًا على الإسلام؛ بل ينسحب على ديانات أخرى بما فيها الديانة المسيحية. والغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال من الناحية السياسية، وإن كانوا شخصيًّا أتقياء، ودينهم هو «دين الاعتدال»، والنبى محمد ﷺ نفسه كان يمقت التطرف دائمًا ويخشاه. ولعل الخوف من الصحوة الإسلامية الذى ميز الثمانينيات أخذ يتحول الآن فى الغرب إلى تفهم للقوى الروحية الحقيقية الكامنة وراء هذا المد، ولكن إذا كان لنا أن نفهم هذه الحركة الهامة، فعلينا أن نتعلم التمييز بشكل واضح بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين وأعمال العنف المروعة التى تقوم بها أقلية صغيرة بينهم، والتى يتعين على الناس المتحضرين فى كل مكان أن يدينوها»[1].

وعن فخ تأطير الإسلام بالجهل ونسيان أن الحضارة الإسلامية لا تفصل بين الدين والعلم:

يقول الأمير تشارلز مذكرًا الغربيين بأن هناك الكثيرين منهم قد ربط فكرة فصل العلم عن الدين فى عالمنا من خلال حركة التاريخ

(١) السابق، ص ١٧.

الأوروبى حين كفَّرت الكنيسةُ العلماءَ، ونسوا أن الإسلام ينبنى على الإيمان والعلم، وأن الحضارة الإسلامية كانت تعنى التسامح الإيمانى بأعمق مستوياته والنهضة العلمية بأعمق مستوياتها، ولا سبيل للفصل بين العلم والإيمان، من هنا يقول تشارلز بتجرد فريد: «إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم فى الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك أيضًا قدرًا مساويًا من الجهل بالفضل الذى تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى. وأعتقد أن هذا الفشل ينبع من النظرة الجامدة للتاريخ التى ورثناها. فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى، من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلس، كان عالمًا ازدهر فيه الباحثون المختصون ورجال العلم. ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدوًا للغرب ونظام عقيدة وثقافة ومجتمعًا غريبًا، فقد جنحنا إلى تجاهل أو محو أهميته بالنسبة لتاريخنا. فقد قللنا مثلاً من أهمية ٨٠٠ سنة من المجتمع والثقافة الإسلامية فى إسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر. لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة إسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى فى الحفاظ على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام، وفى وضع اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية، ولكن إسبانيا فى عهد المسلمين كانت أكثر من مجرد مخزن حيث احتفظت بالمعارف والعلوم الإغريقية التى استفاد منها فيما بعد العالم الغربى العصرى الذى أخذ فى الظهور الفكرى للحضارة اليونانية والرومانية، بل فسرت تلك الحضارة وتوسعت بها وقدمت مساهمة هامة من جانبها فى كثير من مجالات البحث الإنسانى - فى العلوم، والفلك، والرياضيات، والجبر (الكلمة نفسها عربية)، والقانون، والتاريخ، والطب، وعلم العقاقير، والبصريات، والزراعة، والهندسة المعمارية، وعلم الدين،

والموسيقى. وقد ساهم ابن رشد وابن زهر، على غرار نظيريهما ابن سينا والرازى فى الشرق، فى دراسة الطب وممارسته بطرق استفادت منها أوروبا لقرون عديدة بعد ذلك»[1].

ويضيف تشارلز قائلاً:

«لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما، وثمة قول مأثور جاء فيه: «إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد». لقد كانت قرطبة في القرن العاشر أكثر المدن تحضرًا فى أوروبا. فنحن نعرف عن وجود مكتبات عامة فى إسبانيا، ويقال إن مكتبة حاكم قرطبة كانت تضم ٤٠٠,٠٠٠ مجلد؛ أى ما يزيد على عدد الكتب فى جميع المكتبات فى بقية أوروبا معًا»[2].

وعن فخ عدم التوظيف الإيجابى لقوة الإسلام الإيجابية للنهوض فى العالم العربى الإسلامى وبالإنسانية جمعاء:

... إن آخر ما نستشهد به فى إطار رصدنا التصنيفى/التحليلى لخطاب الأمير تشارلز التاريخى – حقًّا – والذى لا يعد أساسًا قويًا لأرضية مشتركة فقط، ولكنه يمثل كذلك شهادة مهمة تعبر عما يريد أى باحث مسلم أن يعبر عنه وينقله لتصحيح إدراك الغرب للإسلام، بل وتصحيح إدراك كثير من المسلمين لدينهم وطبيعته العلمية الإيمانية المتكاملة وأهمية التنبيه إلى توظيف القوة الإيجابية للإسلام كشريك فى نماء هذا العالم وليس إقصاءه بالصور السطحية والعدائية القائمة مع الأسف فى الغرب وفى كثير من الكتابات الساذجة فى الواقع

(١) السابق، ص١٧.

(٢) السابق ص ١٧، ١٨.

العربى الإسلامى ذاته لمن يدعون فصل الدين عن العلم وفصل العلم عن الإيمان الإيجابى والوصول إلى شىء من العدمية، هنا يقول تشارلز: «إن كثيرًا من المزايا التى تفخر بها أوروبا العصرية جاءت أصلاً من إسبانيا فى أثناء الحكم الإسلامى. فالدبلوماسية وحرية التجارة والحدود المفتوحة وأساليب البحث الأكاديمى وعلم الإنسان وآداب السلوك وتطوير الأزياء والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدنية العظيمة. وقد كان الإسلام فى العصور الوسطى دينًا يتسم بقدر لافت للنظر من التسامح بالنسبة لتلك الحقبة، فقد منح اليهود والمسيحيين الحق لممارسة معتقداتهم الموروثة، وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها للأسف دول كثيرة فى الغرب. والمدهش هو مدى تشكيل الإسلام جزءًا من أوروبا لفترة زمنية طويلة، أولاً فى إسبانيا ثم فى البلقان، ومدى مساهمته فى الحضارة التى كثيرًا ما نعتقد خطأ أنها غربية بأكملها. إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع مجالات البحث الإنسانى، وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة. إنه جزء من تراثنا وليس شيئًا منفصلاً عنه. وعلاوة على ذلك فإن الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش فى العالم، الأمر الذى فقدته الديانة المسيحية؛ مما أدى إلى ضعفها. ويكمن فى جوهر الإسلام حفاظه على نظرة متكاملة للكون، فالإسلام...»[1].

«فخ التأريخ» و«فخ التنبؤ الخاطئ»!

من فخاخ التفاوض فى أى سياق؛ دينيًا كان أو اجتماعيًا أو سياسيًا أو فى مجال الأعمال ألا يُنظر لتأريخ الأحداث أو لتاريخ

(١) السابق ص١٦.

قضية بعينها أو لتاريخ أشخاص المفاوضين، عند القيام بالتنبؤ الذى يُعتبر بمثابة عملية مستمرة فى تفاعل المتحاورين والمتفاوضين على مستويين، إما على مستوى توقع ما سوف يثار فى نفس جلسة أو جلسات التفاوض وإما على مستوى المستقبل البعيد... وفخ التاريخ والتنبؤ يدعونا إلى تأمل عملية معقدة؛ لأنه إذا كان الماضى يُعد مؤشرًا مهمًا للغاية، فإنه فى حالات الانفراج وفتح صفحات جديدة قد يكون سجنًا يُسجَن فيه المفاوضون فيحرمون أنفسهم من فتح آفاق جديدة قد تكون لصالحهم جميعًا، وأعتقد أن هذا المأزق أو الفخ واضح جدًا عند النظر من خلاله لتاريخ «حوارات الأديان والثقافات والحضارات» فالتاريخ فى الحوار هنا يرتبط بما يلى:

– تاريخ الاستشراق المزيف للدين الإسلامى ـ فى معظمه ـ حيث قام المستشرقون بما يشبه العمل التمهيدى لاستعمار مناطق العالم العربى الإسلامى[1].

– تاريخ الحروب الصليبية واستخدام الصليب كشعار للغزو والهيمنة للاستيلاء على ثروات العالم العربى الإسلامى وتاريخ الفتوحات الإسلامية التى تم تشويهها فى الغرب.

– التاريخ الحديث للإمبريالية والاستعمار الغربى الذى دعم إنشاء الدولة العبرية فى وسط العالم العربى الإسلامى.

– انتهاء الاحتلال من العالم إلا العالم العربى الإسلامى كما فى حالتى العراق وفلسطين.

(١) راجع كتاب إدوارد سعيد بعنوان «الاستشراق» بالإنجليزية:
Said, Edward, Orientalism, Vintage Books, NY 1979.

– ازدياد وتيرة لغة العداء من قِبَل من يسمون بالمسيحيين المتصهينين المؤيدين لهدم الأقصى وبناء المعبد اليهودى.

غير أن هناك بعدًا آخر ينادى به من يرون أهمية الاعتراف بالأخطاء التاريخية فى حق العرب والمسلمين بالاعتذار عن هذه الأحداث وفتح صفحة جديدة حيث أعلن البابا يوحنا بولس الثانى فى خطابه المعنون «عشية الألفية الثالثة» الصادر فى ١٠/١١/٢٠٠٤[١] مطالبته «بالاعترافات بالأخطاء الماضية التى اقترفتها الكنيسة بكافة أفرعها. ونطالع البند ٣٣: «من المفيد أن تعبر الكنيسة هذه الفترة وهى مدركة تمامًا لكل ما عاشته طوال القرون العشرة الماضية؛ إذ إنه لا يمكنها أن تجتاز عقبة الألفية الجديدة دون أن تحث أبناءها على التطهر، وذلك من خلال الندم على الأخطاء، فالاعتراف بأخطاء الأمس يمثل فعل أمانة وشجاعة، ويساعدنا على تقوية إيماننا، ويجعلنا نتبصر إغراءات مصاعب اليوم، ويعدنا لمواجهتها.... ومن ضمن هذه الأخطار «استخدام أساليب التعصب والعنف فى خدمة الحقيقة (بند ٣٥)، واعتقاد الكثيرين أن الولاء الصادق للحقيقة هو إخراس رأى الآخر أو على الأقل تهميشه (بند ٣٥)»[٢].

رحيل قوات أمريكا المحتلة عن الأرض العربية كمطلب من مطالب إعادة بناء الثقة:

السؤال هنا حول كون الأمر يحتاج إلى إجراءات ملموسة لتحسين أجواء العلاقات فى موضوعات حيوية ومؤثرة كحل الصراع العربى

(١) النص باللغة العربية ورد فى كُتيب د. زينب عبد العزيز بعنوان «التعايش السلمى»، دار الهداية (بدون تاريخ) ص٣٥، ٤٠.

(٢) السابق، ص ٤٠.

الإسرائيلى حلاً عادلاً، ورحيل قوات الاحتلال الأمريكية عن العراق ضمن حزمة متكاملة من إجراءات بناء الثقة.. وعمومًا فإن هذا المأزق أو الفخ بحاجة إلى إجراءات صادقة لإعادة الثقة بين العالمين الغربى والعالم العربى الإسلامى[١].

فخ المصطلحات الدقيقة والمتضخمة وصياغتها ودلالاتها وتأثيراتها على مسار الحوار والتفاوض.

تناولت فى سياق سابق[٢] موضوع فخ المصطلحات وصياغاتها ودلالاتها وتأثيراتها على مسار الحوار والتفاوض.

ويهمنى العودة لموضوع هذا البحث وإضافة ما يهمنا فى إطار موضوع الدراسة ومصطلحات ذلك الموضوع تحديدًا - والأمر بحاجة إلى دراسة تفصيلية أخرى عن مصطلحات حوار الثقافات والحضارات - والأديان بالإضافة إلى ما تناولناه هنا فى إطار هذه الدراسة، ولكننا سنكتفى فى هذا الجزء بالتعامل مع المعضلة المصطلحية الرئيسية

(١) بخصوص موضوع بناء إجراءات الثقة فى هذا السياق راجع مقال د. محمود حمدى زقزوق بعنوان «مستقبل العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب» الأهرام ٢٢/١/٢٠٠٥، وراجع لكاتب السطور المرجع التالى بالإنجليزية، وهو من أوراق مؤتمر «خبرة منظمة الأمن والتعاون فى بناء الثقة» الذى عقد بالقاهرة تحت رعاية وزارة الخارجية المصرية، وهو بالإنجليزية بعنوان:

"Conscious And Unconscious Linguistics As A New Dimension In Confidence Building Measures: The Case of The Euro-Arab (MED) Dialogue. A Study Presented To Cairo Seminar: The Organisation For Security and Cooperation (OSCE) Experience in the Field of Confidence Building Cairo, Ministry of Foreign Affairs, Sep. 1995.

(٢) للتفاصيل راجع لكاتب السطور بحثًا بعنوان «المصطلح والمناظرة: خرائط التفاوض ودبلوماسية التعامل مع السياق الدولى الحرج..» قدم لندوة اللغة والهوية وحوار الحضارات، برنامج حوار الحضارات، كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة ٢٠٠٤، ونشر فى عام ٢٠٠٦م.

والمتمثلة في السؤال التالي: هل نسمى مادة التفاعلات فى موضوعنا هنا بـ«حوار الثقافات» أم بـ«حوار الحضارات» أم بـ«حوار الأديان» أم بـ«الحوار الإسلامي المسيحى»؟ خاصة والمناقشات قد احتدمت ولا تزال بخصوص ما يثيره كل مصطلح من هذه المصطلحات، أضف إلي ذلك استخدام هذه الدراسة مصطلحي «الحوار» و«التفاوض»[١]...

فخ تضخم المصطلح وقصوره أم فخ الفلتر الذهني للمتلقي؟!

فالبعض يرى مصطلح «حوار الحضارات» على أساس كونه مصطلحًا غامضًا ومتسعًا وملتبسًا، والبعض تنتابه حالة من الاستنفار والخطر من مصطلح «حوار الأديان» فنجد تصريحًا أخيرًا للدكتور سليم العوا يقول فيه «أنا ضد حوار الأديان»[٢] ومن قبله قال أحد الفقهاء المصريين المعروفين وهو «لا لحوار الأديان»[٣] أما تعبير «الحوار الإسلامي والمسيحى» فهو مصطلح يتم تداوله منذ عدة عقود، خاصة تحت رعاية الفاتيكان، ويرى أنصار استخدام حوار الثقافات – ومنهم كاتب هذه السطور – أنه الأكثر دقة وتحديدًا ويتسع لكل أشكال الحوار...

---

(١) المقصود بالحوار فى أى سياق هو ما ينبنى على المبدأ التعاونى Cooperative Principle وما يتضمنه ذلك من مودة وتسامح وتعارف إنسانى راق وصادق، أما التفاوض فهو ينبنى على وجود المبدأ التنازعى Adversative Principle فى التفاعل ويتعين على الأفراد هنا إدارة اختلافاتهم بخصوص موضوع ما ومفهوم التفاوض الذى نتبناه هنا هو ذلك المبنى على الأخلاق والمقاصد الكبرى السامية للأديان وللدين الإسلامى خاصة.

(٢) راجع حوار مع د. محمد سليم العوا فى مجلة نصف الدنيا بتاريخ ٢٨/١/٢٠٠٥م.

(٣) راجع مقابلة مع د. محمد رأفت عثمان، جاء عنوانها «لا لحوار الأديان والإسلام ضد صدام الحضارات» الأهرام الرياضى ٨/١١/٢٠٠٤.

والرأى الأصوب هو قبول أى من هذه المصطلحات كلها ما دام مستخدمها قد حدد ما يقصده بدقة ووضوح، فلماذا يكون البعض ضد «حوار الأديان»، مثلاً إذا كان الهدف من الحوار وموضوعه هو تلاقى أصحاب الأديان المختلفة لمناقشة مشكلات البشرية كمحارية الفقر والحروب والتعصب والتعاون على البر والتقوى وخدمة مشكلات الإنسانية وقضايا تحقيق السلام العادل والعلاقات السوية وما إلى ذلك دون هيمنة أو تخفٍّ وراء المصطلحات..

من هنا لا نحبذ وجود موقف صارم ومستغرب ضد مجرد مصطلح فى لحظة يعيش فيها العالم حالة لغوية ثقافية تعرف بالتضخم فى المصطلحات.

فطبقًا لعلم اللغويات ونظرية المعلومات فإنه كلما زاد مدى الاتساع فى المعنى لمصطلح ما "Linguistic Inflation" فإن قدرتنا على فهمه تصبح قاصرة/ناقصة (Deflated) وهذا الأمر ينطبق على مصطلحات عديدة فيما يتعلق بحوار الثقافات والأديان والحضارات مثل مفاهيم «العلمانية» و«العلمنة» و«التسامح» وغيرها مما تعرضنا له فى بحث سابق[1].

ونضيف لعمق المشكلة فى سياق موضوعنا هذا التباين الصارخ والكبير فى التعريف بما هو المقصود بالحوار طبقًا لدراسات عديدة نأخذ منها دراستين متباينتين إلى أبعد الحدود، خاصة فيما يتعلق بالفلتر الذهنى الشارح Cognitive Filter لما يقصده متحاور ما؛ أى عندما يعرف الطرف (أ) الحوار بمعنى ويفهم الطرف (ب) معنى مخالفًا لما أوضحه الطرف أ.، ومن المهم

(١) مرجع سابق (المصالح والمناظرة)، ص١٦.

توضيح هذا السجال الذى اكتشفته وأنا مستغرق فى القراءة المتأنية لمواد بيانات هذه الدراسة.

معضلة التباين الإدراكى للحوار عبر الثقافات:

حالة يوحنا بولس السادس وزينب عبد العزيز

وهنا نقول ما قاله الطرف (أ) مثلا وهو هنا تعريف الفاتيكان لمفهوم الحوار وشروطه حيث يقول كتاب الفاتيكان «من أجل حوار إسلامى مسيحى: موقف المسيحية من الإسلام كما حدده الفاتيكان»[1].

أ - أن تسود الصراحة كل موقف..

هنالك خطر مميت يهدد الحوار، وهو الافتراض أن الشريك يخفى سريرته ومقاصده فى عملية تبشير، ودعوة دينية معينة.. وإذا كان هذا الخطر مشتركًا فى العلاقات بين الكاثوليك وغير الكاثوليك، وبين المؤمنين وغير المؤمنين، فإنه لا يمكن أن يكون مشتركًا فى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين.. وإذا كان المسلمون يرون فى هذا الحوار شكلاً من أشكال الدعوة التبشيرية الجديدة، وكانوا يفكرون فى ذلك فعلاً، فإن من المستحسن أن يؤجل الحوار، ولو إلى فترة بسيطة؛ لأن هذا الحوار قد يؤدى إلى توريط دينى، وأن يترك للزمن.

ب - إسقاط الأفكار المسبقة والمتعصبة، مع العمل على تعميق وتوضيح العقليات والأذهان، فمن غير المفيد بالفعل، ومن غير المثمر، أن نجرى ونرتبط بلقاءات لا تؤدى فى النهاية إلا إلى طرق مسدودة وسوء تفاهم.

---

(١) راجع وثيقة الفاتيكان التى جاءت بعنوان «من أجل حوار إسلامى مسيحى»، مرجع سابق، ص٢٠، ٢١.

وموقف الانتظار هذا يغنينا عن التأكيد بوضوح على مواقفنا؛ إذ يجب أن تملى علينا الفكرة الواضحة أو الغاية من كل حوار، طريقة سلوكنا. وهذا الحوار لا يفرض بذاته عملية تغيير دين الآخر، ولكن عليه أن يؤدى إلى القبول السلمى والمفرح للمحاور الآخر بتثبيت أفضل للحقيقة والخير فى كل مجالات الإنسانية»[1].

فى المقابل ـ النقيض ـ تنقل د. زينب عبد العزيز فى كتابها نفس هذه الفقرة (من الفرنسية إلى العربية) قائلة بالنص مايلى:

«... ولا يسع المجال هنا لنورد كل المراجع الكنسية التى تتضمن شرحًا لمعنى الحوار، لكنا سنورد بعض النماذج لأهميتها أو لتلك التى استطعنا الحصول عليها، وفيما يلى بعض المقتطفات من الكتاب المعنون: «توجيهات من أجل حوار بين المسيحيين والمسلمين» الصادر عن الفاتيكان فى عام ١٩٦٩؛ أى بعد انعقاد المجمع بأربع سنوات:

«هناك موقفان لابد منهما فى أثناء الحوار: أن نكون صرحاء وأن نؤكد مسيحيتنا وفقًا لمطلب الكنيسة [ومطلب الكنيسة بات معروفًا].

أخطر ما يمكن أن يوقف الحوار: أن يكتشف من نحاوره نيتنا فى تنصيره، وإذا ما قد تم استبعاد هذا الموقف بين الكاثوليكى وغير الكاثوليكى، فإنه لم يستبعد بعد بين المسيحى والمسلم. وإذا ما تشكك من نحاوره فى هذه النية فعلينا وقف الحوار فورًا، وهذا التوقف المؤقت لا يعفينا من تأكيد مواقفنا بوضوح[2].

(١) راجع وثيقة الفاتيكان التى جاءت بعنوان «من أجل حوار إسلامى مسيحى»، مرجع سابق، ص٢٠، ٢١.

(٢) مرجع سابق «من أجل التعايش السلمى» ص١٩.

مما سبق من الفقرتين يتضح حجم الاختلاف والتباين الشديد بين ما يقوله (أ) (أى كتاب أو وثيقة الفاتيكان) وما يفهمه (ب) (باحث من العالم العربى الإسلامى)، فهل الخطأ فى الترجمة، وهذا أمر يبدو مستبعدًا تمامًا للقدرة المفترضة من الطرفين، أم أن الأمر يتعلق بهيمنة الفلتر الذهنى وصبغ الكلام بصبغة ما وليس بحقيقة ما يقال.. وهذه معضلة كبرى فى الحوار تتجلى فى هذا المثال فهناك كتاب آخر للدكتورة زينب عبد العزيز[1] حيث تقرن مصطلح «الحوار كنسيًا» بمفهوم «التنصير»[2] حيث تقول هذا فى أكثر من مرة وسياق فى كتابها، ففى حديثها عن «أهم حقلى عمل أمام الكنيسة فى الفترة القادمة تقول إنهما: (أ) المواجهة مع العلمانية (ب) الحوار مع الديانات وبخاصة الإسلام.. وهنا نقول بين قوسين (والحوار فى مفهوم البابا يعنى التنصير...»[3]... إن ما تذهب إليه د. زينب هو عبارة عما استقاه الفلتر الذهنى لديها... خاصة أن ما أعلنته وثيقة الفاتيكان التى رصدناها فى تعريفها للحوار ينفى بصورة قاطعة وواضحة أن المقصود من الحوار هو التنصير. إن ما ذكرناه يعتبر مثالاً واضحًا للمأزق الراهن فى قراءة النوايا وليس الألفاظ ومعانيها، ويعبر عن وجود أزمة الثقة التى ينبغى أن يتم عبورها لنجاح أى حوار سواء أسميناه «بحوار الأديان»، أو «حوار الثقافات» أو «حوار الحضارات» أو «بالحوار الإسلامى المسيحى» فى سياقات بعينها.

(١) راجع عبد العزيز، زينب الخطة الخمسية للبابا يوحنا بولس الثانى، دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٩٤م.

(٢) السابق ص٤٤، ٤٥.

(٣)السابق، ص٤٦.

فخ التوقعات المتضخمة أو المبالغ فيها...

من الفخاخ التى يتعين علينا تجنب السقوط فيها فى إدارة الحوار فى التفاوض وفى إدارة الأزمات عدم المبالغة فى التركيز على نداء أو نقطة معينة فى الصراع كون هذه النقطة هى جوهر كل الصراع، وإن حُلَّتْ يتم حل جميع أوجه الصراع بشكل تلقائى، ولكن لابد أن نرى الحلول خاصة فى الأزمات الممتدة كحزمة متكاملة من السياسات، كلٌ يؤدى هدفًا على المدى القريب والبعيد معًا... فحين يقول البعض إن «حل مشكلة فلسطين» سيوقف كل الأزمة بين العالم العربى الإسلامى والغرب، هنا نقول مثلاً بالرغم من جوهرية هذه المشكلة وأهمية حلها حلاً عادلاً، وهو الأمر الذى يخفف كثيرًا من سوء وضع الأزمة والأزمات المتعلقة بها، فإن هذا لن يكون كافيًا ـ من وجهة نظرنا ـ مع وجود الأساليب السلبية القائمة التى تعرضنا لها وآخرها مسألة «الفلتر الذهنى» والمسائل التقنية الأخرى التى تحتاج إلى فاعلين مدربين وقادرين على إدارة الأزمات وحلها ومتابعتها للخروج منها إلى آفاق أكثر سلاسة وعدلاً ونماء؛ لأنه حتى وإن تم حل مشكلة محورية كالمشكلة الفلسطينية مثلاً، يظل بمقدور أصحاب الأساليب الخاطئة فى حل وإدارة ومتابعة الصراعات ـ على الجانبين أن يخلقوا ـ حتى وإن لم يشعروا ـ مشاكل أخرى لا تنتهى.

٣-٤ ماذا عن موضوع قناة الحوار والتفاوض وإدارة الأزمات الفعالة بعيدًا عن الانحياز والاستقطاب والانفعال؟

لاشك أن من أهم ما تثيره هذه الدراسة هو التعرف على شبكة قنوات الحوار، فالحوار طبقًا لموضوع هذه الدراسة متسع إلى حدود بعيدة، والنقطة التى نريد لفت الانتباه لها أن قنوات الحوار بين

العالم العربى الإسلامى أكثر فى حقيقة الأمر من أن تحصى بسهولة، فهناك ملايين المسلمين يعيشون فى ذلك الغرب وهناك حوارات للأديان والثقافات فى ذلك الواقع الغربى تحت المسميات التى ذكرناها وهى «حوار الثقافات» و«الأديان» و«الحضارات» و«الحوار الإسلامى المسيحى»، وهناك آلاف القنوات من خلال البعثات، ومن خلال المؤتمرات المتفرقة ومن خلال حركة التجارة الدولية وحالات النجاح المعقول تفوق بكثير حالات صدام الحضارات التى ذكرناها خاصة فى مجال التجارة الدولية، ومن هنا لابد من أخذ هذه الزاوية الأجدى بعين الاعتبار نحو مزيد من الانفتاح على الجانبين لتخطى كل فخاخ وعثرات ومآزق الحوار والتفاوض التى تعرضنا لها بشىء من التفصيل فى هذه الدراسة، وإن كان من المهم حصر تلك القنوات التى يتم فيها التفاعل تحت عناوين «حوار الأديان» و«الثقافات» و«الحضارات» وهذا يحتاج إلى مشروع بحثى كبير، وأعتقد أن جهد برنامج حوار الحضارات فى هذا الصدد وسعيه لفهم شبكات الحوار القائمة هو جهد مطلوب، وقد تجلى فى أكثر من سياق وأهمها إصدار كتاب فى ٥٦٣ صفحة بعنوان «من خبرات حوار الحضارات: قراءة فى نماذج على الصعيد العالمى والإقليمى والمصرى»[(١)] والأمر يحتاج إلى مزيد من جهود الحصر، ولكن الأهم هو النجاح فى إنشاء مرصد وقناة ذات نوعية تفاعلية مدربة وعالية الأداء خاصة من المتخصصين فى عدة مجالات ومن المدربين على إدارة الأزمات الممتدة، وهو الأمر الذى لا يزال مفتقدًا خاصة من منظور عربى

(١) راجع، مصطفى، نادية، أبو زيد، علا من خبرات حوار الحضارات: قراءة فى نماذج على الصعيد العالمى والإقليمى والمصرى، برنامج حوار الحضارات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ٢٠٠٣.

إسلامى دولى يتخطى واقع السلبيات الكبيرة القائمة إلى آفاق لصالح أجندتنا الوطنية ولصالح مباراة تفاعلية لصالح إنسانية الإنسان فى هذا العالم تنطلق من مصر قلب الأمة العربية الإسلامية إلى العالم كله.

٤-٤ ماذا عن تحديات بناء ونحت الأرضيات المشتركة وتفعيل السيناريو المعيارى المطلوب؟

كما أوضحنا على مدى أجزاء دراستنا هذه أن من المهم لفهم أى موقف حوارى أو تفاوضى أو إدارة أزمة أن نضع الخرائط الذهنية التى تحاكى الواقع على سبيل النمذجة العلمية، فهذا يعطينا تصورًا استراتيجيًا لمسرح التفاعلات وتكون هذه الخرائط الذهنية بمثابة أدوات - لاغنى عنها - لفهم طبيعة الموقف أى (Assessment Tool) كما أنه من المتعين تحديث ما يستجد على هذه الخرائط الذهنية بشكل مستمر، ليس فقط لتقييم هذا الحدث أو ذاك، بل لاتخاذ التحركات الملائمة فى التوقيت الملائم، وهذا ما يسمى فى أدبيات إدارة الأزمات، وخاصة الصراعات والأحداث ذات الطبيعة الممتدة، بالتقييم المرتبط بالفعل أو بالفعل التقييمى Evaluation Based Acts[(١)] وهذا الأمر يحتاج إنشاء مشروع مستقبلى يعتمد على الفكر الحديث فى مجال المستقبليات وليس كما يحدث، خاصة فى واقعنا العربى الإسلامى من

(١) راجع بخصوص تفاصيل أدبيات إدارة الصراعات والأزمات:

D'Estree, T. P. & Colby, B. G., Braving the currents: Evaluating Conflict Resolution in the river Basins of the American west. Norwell MA: Kumer (2003).

Sueskind, L. & Thomas - lamer, J.," Conducting a Conflict Assessment" in the Consensus Building Handbook: A Comprehensive Guide to Reaching Agreement L. suskind, s. Mckearman, and J. Thomas - lamer, eds. Thonand Gaks Sage publication 1999.

ارتباط فكر الدراسات المستقبلية بفترة زمنية محددة ويعد الانتهاء من مثل هذه الدراسات (كمشروع المستقبليات لمركز الوحدة العربية ببيروت على سبيل المثال لا الحصر) حيث تكون الأحداث قد جرفت بنتائج مثل هذه الدراسات بمجرد الانتهاء منها. إن علينا أن ندشن فى واقعنا العربى الإسلامى مشروعًا مستقبليًا لحوار الثقافات والحضارات والأديان متكاملاً يتضمن مراعاة الأبعاد التقنية التى رصدناها فى هذه الدراسة ويعتمد على إنشاء قنوات ومراصد إعلامية تعتمد على المدربين فى واقعنا وعبر الوطن العربى والعالم الإسلامى وفى أنحاء العالم الغربى والشرقى معًا بحيث يكون فهمنا لصياغة ونحت الأرضية المشتركة بالأسلوب الذى نفهم معه أنه ليس هناك أرضية مشتركة لكل السياقات ولكل الخطابات، ولكن وطبقًا لهذه الدراسة سنجد الكثيرين فى العالم اليوم الذين هم على يقين بوقف تداعيات نموذج الصدام الحضارى الجائر، وفى هذا أرضية مشتركة، وسنجد من يشتركون معنا فى التقرير بأن استهداف الإسلام والمسلمين بهذه الرعونة واللاعلمية القائمة فى دوائر إعلامية غربية عديدة سوف يؤدى إلى مشاكل للعالم أجمع وليس للمسلمين وللعرب فقط، وهذه أرضية أخرى كما جاء فى تصريح بذلك للأمين العام للأمم المتحدة كوفى عنان، وسنجد أرضية مشتركة أخرى فى فكر ترشيد طبيعة الحوار الثيولوجى (كما ذكرنا فى الخطاب رقم (١) من الخريطة الذهنية بالجدول رقم (١))، وسوف نجد وسيلة لوضع أرضية مشتركة مع كل من يريد المعلومات الحقيقية غير الناقصة أو الجائرة، وسوف نجد أرضية مشتركة حتى مع منظرى الصدام الحضارى ذاته إذا كانت هناك القناة التى قد تجمعنا بهم للحوار العلمى، فحتى فى وجود أعتى أجواء الصدام التى تمثلها الحروب، وهى بالفعل اليوم حروب هوية، فقد يكون

من المجدى أن يكون هناك مسعى لإيجاد ـ ولو حتى ـ أصغر مساحة من الأرضية المشتركة كالتى تحدث بين الجيوش المحاربة حتى لا يضرب مستشفى ـ وأن يعامل الأسرى بحقوق يُتْفَقُ عليها... إلى آخره، المقصود أنه وحتى فى حالة الحروب هناك قدر من الأرضية المشتركة الضمنية التى توصلت إليها معاهدات دولية، ولقد أثبتت لى خبرة الحوار الدولى أنه اذا ما ترك المتفاعل ليتفاعل مع من يؤيدونه فقط ازدادت حالة ودرجة العداء والاحتقان والتهور مع الآخرين ممن لا يؤيدون، هكذا علمتنا دروس البشرية فى سياقات تاريخية عديدة، ولعل الجزء الأهم فى عمليات نحت وبناء وصياغة الأرضيات المشتركة، ذلك الجزء الخاص بنا فى عالمنا العربى الإسلامى، فعلينا أن نرسل للعالم رسائل تتسم بالقدرة على الأداء الرفيع تقنيًا وعلميًا وإيمانيًا ومن خلال المقاصد الكبرى السامية للإسلام، وأن تتسم تفاعلاتنا بالإنصاف ـ إنصاف الذات وإنصاف الخصم[1] فلا تتسم تفاعلاتنا بالرعونة ومبادلة الخصم نفس أسلوبه اذا اتسم بالجهل وبالعداء والكراهية واللاموضوعية، وهنا لابد من أن نرصد دراسة قيمة للغاية للدكتور عبد الحليم حفنى، كان موضوعها «إنصاف الخصم فى القرآن» ـ الذى جاء فى عدة فصول لتتناول «التزام العدل» ـ العدل إزاء الخصوم، وعدل الله بين رسوله والمشركين، والاعتراف بمزايا الخصم، حرية المناظرة، حرية الرأى، والموقف الذى حدده القرآن الكريم بخصوص معارضة الرسل، مهاجمة القرآن، مهاجمة معالم الدين، إلى

(١) هناك دراسة متميزة عن إنصاف الخصم فى القرآن الكريم وهى للباحث الدكتور عبد الحليم حفنى، «إنصاف الخصم فى القرآن وأثره الإعلامى»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، وليت المشروع القومى للترجمة يهتم بترجمة مثل هذه الأعمال.

آخره، ومن المهم أن نشير إلى ما ذكره الكاتب في فصله عن «مهاجمة القرآن الكريم» حيث يذكر «... أنه كان المتوقع ـ والقرآن بهذه المنزلة الرفيعة عند الله وعند المسلمين ـ أن يغضب الله سبحانه وتعالى ـ حسب عرف البشر ـ غضبًا شديدًا مدمرًا على كل من يمس القرآن بسوء أو يحط شيئًا ولو يسيرًا من منزلته، ولكننا نجد القرآن نفسه ـ وهو كلام الله ـ حافلاً بعرض ما وجهه إليه أعداء الله من إساءات ومن تكذيب ومن تحقير أو تشويه أو غير ذلك، فلا يبدو من الله سبحانه وتعالى ما يعبر عن هذا الغضب المدمر، بل نجد منهج الله الذى ضمنه القرآن ثابتًا وملتزمًا متمثلاً فى أمور:

١- أحدها عرض رأى الخصوم فى القرآن كاملاً ومفصلاً مهما يبلغ من إساءة إلى القرآن أو إلى المتكلم به وهو الرسول ﷺ أو إلى مصدره وهو الله.

٢- إتاحة الحرية لهؤلاء الخصوم فى أن يقولوا ضد القرآن ما يشاءون، بل وحمايتهم من أى ضغط أو إيذاء فى أثناء خصومتهم.

٣- الرد على كل ما يقولون ضد القرآن بالحجة والمنطق حتى يتضح الحق فى غير التباس بالباطل[1].

ويضيف د. حفنى فى هذا الفصل الذى يحتوى تفاصيل كثيرة على درجة عالية من الأهمية أن المطلب فى خضم مثل هذه التفاعلات الشائكة يتمثل فى الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [سورة الأنعام: ٦٨].

(١) المرجع السابق، ص٢١٧، ٢١٨.

ويسترسل د. حفني في الخوض في تفاصيل كثيرة ويرد على ادعاء من يدعي بأن الآيات المكية كانت مهادنة والآيات التي نزلت في المدينة عندما قويت شوكة الإسلام لم تكن كذلك، - وهو ادعاء ينتشر كثيرًا في حملة المعلومات المضللة ضد الإسلام اليوم - خاصة في مواقع شبكة الإنترنت الكثيرة - ولكن يرد د. حفني بإظهار نفس أحكام القرآن في كل من الفترتين المكية والمدنية، فيذكر مثلاً من سورة النساء قوله تعالى: (وهي مدنية) نفس التذكير الذي ورد أعلاه في سورة الأنعام - وهي مكية -: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] وينتهي د. حفني إلى أن القاعدة المقصدية هنا إنصاف حتى الكافرين في التعبير عن كفرهم وأن يتسم رد فعل المسلم بالإعراض فقط عنهم... وهذا بمثابة التنبيه إلى إمكانية تأسيس «الأرضية المشتركة» معهم والمبنية على عدم العداء في الدين –وهو منطق إنساني بحت وذلك في قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة: ٨].

... من هنا ينبغي النظر إلى المستويات المتعددة لفهم فكر صياغة الأرضية المشتركة في السياقات المتعددة، وأن يتم من خلال هذا الأسلوب الديناميكي إدارة الأجندات والسيناريوهات المتنازعة والمختلفة التي رصدناها في إطار خطابات الخريطة الذهنية المقدمة في هذه الدراسة، والانطلاق لتدعيم خطاب الأرضية المشتركة

الإيجابية الذى ذكرناه فى رقم (٦) بالجدول رقم (١)، والذى عبر عنه خير تعبير خطاب الأمير تشارلز الذى قدمنا تحليلاً عامًا لمنطلقاته فى هذا الجزء الثالث من هذه الدراسة، والذى يصلح أن يكون أساسًا للسيناريو المعيارى الذى ينبغى تطويره وتحديثه للخروج من نفق نموذج الصدام الحضارى المظلم، والذى يريد أن يفرض على العالم قلة تستند فى طروحاتها إلى اللاعلم واللاموضوعية وكثير من الكراهية التى يمكننا دحضها ومواجهتها بالعلم والعقلانية والحشد الإيجابى فى كل من العالم العربى الإسلامى ومع عناصر دولية إيجابية تفوق فى إمكاناتها وروحها إمكانات وروح منظرى الصدام الحضارى، والأمر يحتاج أساسًا إلى روح التفاوض النضالى المدعم بالمدربين تقنيًا على إدارة الحوار والتفاوض والأزمات عند حدوثها بالعلم وبالمقاصد السامية للأديان وللإسلام، وخاصة التى لابد أن تكون عونًا للعالم أجمع نحو آفاق أفضل للإنسانية جمعاء، والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان.

فخاخ التفاوض على مائدة الدبلوماسية العربية

هندسة عربية لدبلوماسية التعامل مع «السياق الدولى الحرج»..

(دراسة من منظور لغويات التفاوض والتواصل عبر الثقافات)

نحو موسوعة للمصطلحات الدولية التفاوضية من منظور عربى[*]

أولاً: مشكلة البحث وأسئلته المحورية:

تعاملت الدراسات السابقة مع المصطلحات بأسلوب الترجمة والتعريب لهذا المصطلح أو ذاك على المستوى العربى وكذلك على المستوى الدولى بشرح المصطلحات فى أحسن الأحوال بنفس اللغة أو من لغة إلى أخرى ولكن ما يعتبر غير مسبوق عربيًا ودوليًا ونحتاج إليه هو تقديم دراسة عن مصطلحات السياسة والاقتصادية الدولية (وعلى الأخص مصطلحات ما سمى «بالحرب ضد الإرهاب») من منظور لغويات التفاوض «Linguistics of Negotiation»[1]، وهو

(*) قدم الباحث الجزء الرئيسى من هذه الدراسة فى ندوة اللغة والهوية وحوار الحضارات كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ٢٠٠٤.

(١) قدم الباحث هذا المنظور التكاملى الحديث بين علوم اللغويات والعلوم السياسية والعلاقات الدولية فى أطروحته لنيل الدكتوراه فى جامعة چورچتاون بعنوان: «تحليل لغوى لآليات القدرة فى المفاوضات السياسية الدولية» ١٩٨٩، وطوره فى عدة دراسات أخرى.

ما أقدمه فى هذه الندوة التى تقيمها كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عن قضايا اللغة والهوية وحوار الحضارات وتحديدًا فى إطار محور «وظائف اللغة فى العمليات الحوارية التفاوضية».

والمقصود باستخدام منظور لغويات التفاوض، الذى قدمت فى إطاره العديد من الدراسات، أن أتناول هنا فى هذا البحث مفهوم المصطلح فى إطار تحليل سياقى متعدد المستويات لا يعنى بتقديم المصطلح وتعريبه فقط، بل بفهمه واستيعابه ورصد الحجج التى صاحبت هذا المصطلح الغربى أو ذاك وكذلك ما استدعته هذه الحجج أو هذا المصطلح أو ذاك من حجج مناظرة مضادة ذكرت، أو لا يزال الأمر بحاجة إلى طرحها من المنظور العربى الإسلامى لترسيخها فى الإعلام العربى، وكذلك على الساحة الدولية، والوصول بها إلى العقل الغربى على سبيل إدارة الخرائط التفاوضية أو التصدى المبنى على المنطق العلمى والتواصل الإيجابى عبر الثقافات لمحاولات الهيمنة وطمس المعنى الحقيقى للقيم الثقافية أو إساءة فهمها.

وتمثل هذه الدراسة وأسئلتها نواة لكتابة موسوعة للمصطلحات التفاوضية الدولية من هذا المنظور حيث إن هناك ندرة شديدة وافتقادًا لهذه النوعية من المعاجم، والقليل النادر من المعاجم الراهنة لا يفى بحاجة الباحث فى مجال العلاقات الدولية واللغويات والعلوم السياسية والممارس الدبلوماسى المعنى بها أساسًا.

■ أسئلة الدراسة المحورية:

١- ماذا عن أهم مصطلحات هذه الدراسة مثل «لغويات التفاوض»، «المناظرة»، «الإقناع»، و«الحجج» وما يتعلق بذلك؟ وماذا عن

الدبلوماسية الدولية التى ينبغى تفعيلها للتعامل مع زيف المعلومات والسياق الدولى الحرج الراهن؟

٢- ماذا عن النموذج النظرى الأساسى الذى نتبناه فى هذه الدراسة والمبنى على أهم دراسات المصطلح وصور صياغته الاستعارية «Metaphorical Cinstructions» خاصة فى الواقع الغربى، وما الدراسات الناقدة لعمليات صياغة المصطلح فى الغرب ذاته من قبل علماء اللغويات المرموقين من أمثال جورج لاكوف «George Lakoff»، تشومسكى «Chomsky»، فولر «Fowler» وغيرهم من الممثلين لطبيعة النقاش الأكاديمى الغربى الحديث والناقد للفكر الراهن لصياغة المصطلحات وإدارة الحجج من المنظور الأشمل للغويات التفاوض؟

٣- ماذا عن قائمة المصطلحات المحورية المختارة للتحليل، والتى يندرج تحتها مصطلحات فرعية وحجج متعلقة بها فى هذه الدراسة والمعبرة عن مستويات التناول المتعددة للمصطلح كأساس أو نواة لقاموس أولى ثم لموسوعة فى هذا الإطار؟ وكيف أثارت بعض من هذه المصطلحات المحورية حججًا وحججًا مناظرة خاصة فى إطار ما عرف بـ«الحرب ضد الإرهاب»، وفى إطار «الصراع العربى الإسرائيلى»، وفى سياق «تفاعلات العولمة»، والتى بثت فى الإعلام والفضائيات على كونها خرائط ذهنية تفاوضية أو «غير تفاوضية» ومهيمنة تطرح أجندة الآخرين فى عالمنا وتهدف إلى وضعنا ووضع آخرين فى دول الجنوب على مربعات تفاوضية أو غير تفاوضية

بعينها؟ وكيف لنا أن ندير تفاعلات هذه الخرائط ومربعاتها بصيغة إيجابية واثقة وفاعلة نتجنب من خلالها المزيد من الخلل فى العلاقات الدولية بعيدًا عن حالات الاحتقان والاندهاش وموقع المفعول به السائدة فى كثير من التفاعلات تجاه المصطلحات والأحداث التى جسدتها إلى الآن؟

٤- ماذا عن الحاجة للمنظور العربى الإسلامى لخرائط المفاهيم الغربية القائمة؟ وماذا عن المصطلحات العربية التى تمت صياغتها، والتى يمكن سكها وصياغتها وتفعيلها وإدراجها على أجندة التفاعلات الدولية للتعامل مع هذه الخرائط بشكل إيجابى؟ أى ماذا عن مستوى السجال والامتداد (Reciprocity & Substitution) فى إطار النموذج النظرى المقدم؟

٥- ماذا عن الظواهر اللغوية التمازجية المتعلقة بوظائف اللغة من المنظور العالمى أو عبر الثقافى التى أفرزتها المصطلحات وخرائطها الذهنية من حيث مثلاً:

١-٥- ماذا عن مستوى الغموض السلبى والإيجابى والوضوح Level of Ambiguity؟

٢-٥- ماذا عن مستوى مفهوم السياقية Contextuality وطبيعة مستويات السياق Contextual Levels وتصنيعها Manufacturing of Context أو التلاعب بها Manipulation؟

٣-٥- ماذا عن نوع الاستعارة ودلالات الفلتر الذهنى الثقافى «Metaphorical Construction» وما تزرعه فى الحالة النفسية للمتلقى؟

٤ – ٥ – ماذا عن مستوى الامتداد «Extension» للمصطلح وارتباطه بسيناريو ما؟

٥ – ٥ – ماذا عن مستوى التضخم والقصور فى المعنى «Semantic Inflation and Deflation»؟

٦ – ٥ – ماذا عن مفهوم الخداع «Deception» والوهم «Illusion» والحقيقة اللغوية للمعنى «Semantic truth» ومتطلبات الفهم الإيجابى عبر الثقافات؟

ثانيا: بنك بيانات الدراسة Database of the study:

يتألف بنك بيانات هذه الدراسة من الآتى:

١ – المناظرات الإعلامية التفاوضية واللقاءات الدولية التى كنت طرفًا فيها وأستخدم مادتها وإعادة تحليلها «Revisiting».

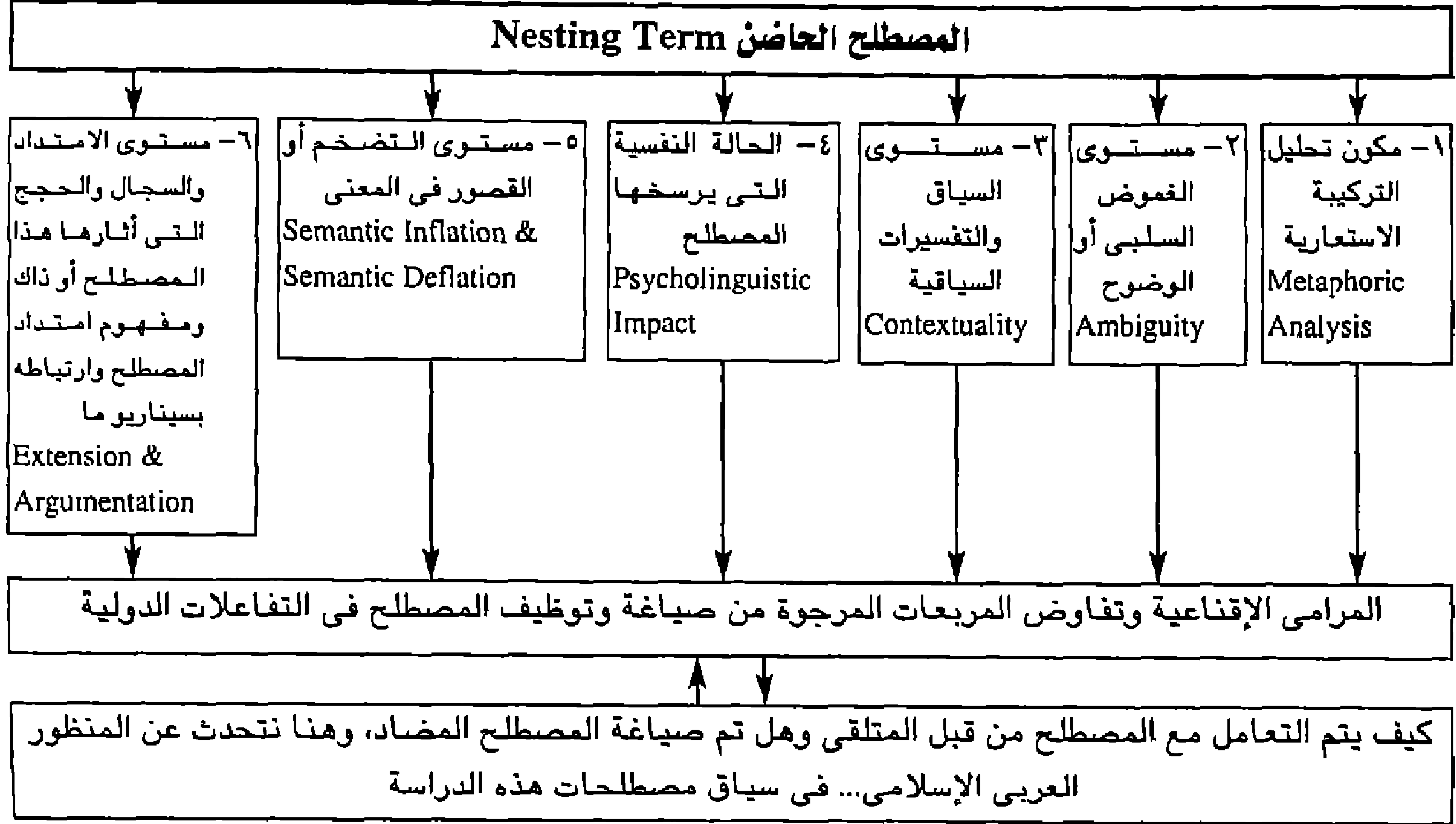
٢ – ملفات من واقع التفاعلات الإعلامية الدولية والتواصل عبر الثقافات، قمت بتجميعها منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وما قبلها.

٣ – مجموعة من الكتب والمقالات التى صدرت أساسًا منذ ما عرف بالحرب الجديدة ضد الإرهاب من سبتمبر ٢٠٠١ وإلى ٢٠٠٤ وتغطى نفس المحاور فى رقم ٢.

ثالثا: بعض التفاصيل الضرورية عن النموذج النظرى الذى يستند إليه تحليل مادة هذه الدراسة:

النموذج التالى هو ضمن عدة نماذج قدمتها فى إطار منظور لغويات التفاوض السابق الإشارة إليه فى سياقات ودراسات عديدة سابقة. وفيما يلى الخريطة الذهنية التى توضح عناصر هذا النموذج وكذلك تعريفات أولية موجزة للمقصود بكل مكون:

الشكل رقم ١: النموذج النظرى المقدم لتحليل المصطلح من منظور لغويات التفاوض والتواصل عبر الثقافات



سنقوم بتوضيح كل مكون من المكونات المتضمنة بالنموذج الموضوع فى الشكل رقم ١ بشيء من التفصيل مع شرح المصطلحات، ولكن فيما يلى تعريف موجز للغاية:

١- ماذا عن منظور لغويات التفاوض؟

هو نموذج لدراسة التفاعلات التفاوضية ويشمل ذلك نوع التفاوض، نوع المباراة Game، نموذج التحليل المناسب للحالة التفاعلية، والتفاوض يختلف عن الحوار فى أن الأول ينبنى على المبدأ التنازعى وإدارة الاختلاف والحوار Dialogue ينبنى على المبدأ التعاونى.

٢- ماذا عن المصطلح الحاضن Nesting Term؟

أقصد بهذا التعبير الذى صغته بالعربية والإنجليزية هو ذلك المصطلح الذى يرتبط ارتباطًا وثيقًا بسيناريو حاضن Nesting Scenario. والسيناريو الحاضن هو سيناريو رئيسى يتفرع منه سيناريوهات أخرى فرعية وكذلك المصطلح الحاضن، فكما سنوضح فى التحليل المقدم فإن مصطلح «صدام الحضارات» هو مصطلح حاضن للعديد من المصطلحات الأخرى التى يجب النظر إليها كلها وتقييمها فى هذا الإطار من أجل التفاعل والتعامل معها[1]... أى أن للمصطلح الحاضن مصطلحات أخرى تدور فى فلكه. كما أن هناك مستوى آخر وهو علاقة مستوى طرح بالمستوى الآخر من المكونات الستة المذكورة فى الشكل السابق رقم ١.

---

(١) للمزيد من التفاصيل بخصوص مفهوم السيناريو الحاضن وأنواع السيناريوهات الأخرى، راجع لكاتب هذه السطور دراسة بعنوان «سيناريوهات الحرب والسلام: دراسة من منظور اللغويات الاجتماعية والسياسية، دار المعراج الدولية، الرياض ١٩٩٩.

٣- ما المقصود بتبادل الحجج Argumentation والإقناع والمناظرة؟

المقصود بالحجج هو تبادل المقولات والآراء فى إطار قواعد الحجج والمناظرة للوصول للحل الأصوب بين الأطراف، أما الإقناع Persuasion والمقصود به ترسيخ قناعات لدى الآخرين وتغيير سلوكهم على النحو المراد فى اتجاه أحادى من متحدث أو كاتب متلق.

٤- ماذا عن مستوى الغموض Level of Ambiguity؟

أى إلى أى مدى يمثل المصطلح غموضًا، وما مستوى هذا الغموض؟ وهل هو غموض بنَّاء أو سلبى؟

٥- ماذا عن مستوى السياق Contextual Level وماذا عن دبلوماسية «السياق الحرج»؟

أى هل يمكن فهم المصطلح فى السياق المباشر؛ أى على مستوى الجملة فيكون ذلك كافيًا؟ أم أن هناك مصطلحات لا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى منظومة من الحجج والنصوص واقتفاء أثر السياق وتتبعه. أما بخصوص دبلوماسية السياق الحرج، فهى أن ينظر الجميع إلى السياقات الحرجة والتعامل معها بدلاً من التجاهل الذى تتفاقم معه مشاكل العالم. والتفاصيل الخاصة بهذه الدبلوماسية (فى استنتاجات الدراسة).

٦- ماذا عن الحالة النفسية التى يرسخها المصطلح Psycholinguistic Impact؟

هل يترك المتلقى فى حالة من السعادة، أو الخوف أو الإرهاق أو الحماس وما إلى ذلك من عواطف وحالات نفسية؟

٧- ماذا عن مفهوم «تحليل التركيبة الاستعارية» Metaphoric Analysis؟

نقدم هنا نموذجًا أكثر تفصيلاً مما قدمناه بخصوص المكونات السابقة؛ نظرًا لأننا نقدم قراءة فى إطار هذا المكون تحديدًا على

درجـة كـبـيـرة مـن الأهـمـيـة، فـفـى الـوقت الـذى قـررنـا فـيه دراسـة المصطلحات فى إطار منظومة متكاملة من المفاهيم ورصدناها لتكون نواة لقاموس أو موسوعة من منظور لغويات التفاوض، وجدنا هذه الدراسة عن التركيبات الاستعارية لعالم اللغويات الشهير جورج لاكوف George Lakoff ومعه مارك جونسون Mark Johnson التى كتباها عام ١٩٨٠[1] على درجة كبيرة من التعمق والموضوعية والنقد العلمى الجاد والرصين لممارسة الواقع الثقافى الغربى الأمريكى على مستوى الاستخدام اليومى الكثيف «للتركيبات الاستعارية» فى اللغة الأمريكية إلى الحد الذى رسخ فى العقل الأمريكى مثل هذه «الاستعارات» أكثر من ترسيخ مفهوم «الدليل الحقيقى». ولقد كانت تلك الدراسة من جانبها بمثابة محاولة لتصحيح مسار الممارسات اللغوية الفكرية التى يرى العالمان أنها خاطئة وبحاجة للتقويم فى واقعهم الثقافى خاصة وأن كثيرًا من التركيبات الاستعارية التى توظف فى التفاعلات الأمريكية اليومية والتى تهدف إلى إدارة خلافات فى غاية «العنف» وتتخذ كل مصطلحات القتال، وكأن التفاعلات تحدث فى أرض معركة حقيقية، ولقد وجد عالما اللغة لاكوف وجونسون أن التنظير لعلم الحجج فى كتابات سائدة ولها هيمنتها الفكرية هى مفاهيم علمية اتخذت من الاستعارات الشائعة فى مجال المعارك الحربية وممارستها، ومن هنا نرى الأهمية الخاصة - فى إطار موضوع دراستنا هذه - أن نقدم قراءة موجزة لدراسة جورج لاكوف وچونسون التى جاءت بعنوان «الاستعارة التى نعيش بها»، والتى من الممكن أن نرصد أهم

(1) Lakoff, George & Johnson, Mark, "Metaphor We Live By", University of Chicago Press, 1980.

عناصرها فى الخريطة الذهنية التالية التى أسميها «خريطة فهم الحجة واللغة الاستعارية فى الواقع الغربى الأمريكى».

شكل رقم ١: خريطة ذهنية لتوضيح خطوات التشريح والتفكيك العلمى للمصطلحات المركبة والفياضة والمفاهيم ذات الطبيعة العسكرية للحجج

<u>الاستعارة وصياغة الإدراك</u>

١- الاستعارة تسهم بشكل كبير فى صياغة حقائق العالم وإدراكنا وفهمنا له «Perception».

↓

<u>مفاهيم النظام الإدراكى تحكم علاقاتنا بالآخرين</u>

٢- إن نظام إدراكنا للمفاهيم التى تحكم فكرنا ليست متعلقة فقط بمجرد الفكر ،بل هى التى تحكم طريقة التعامل مع العالم وفهمنا للآخرين فيه.

↓

<u>النظام الإدراكى أوتوماتيكى</u>

٣- إن نظام إدراكنا «Conceptual System» ليس من الأمور التى ندركها بشكل واضح وملموس، بل يكاد أن يكون نظامًا أوتوماتيكيًا قد ترسخ لدينا.

لا يعمل النظام الإدراكى للإنسان طبقًا للدليل عادة بقدر ما يتأثر أكثر بالاستعارة الأكثر ترددا

٤- إن هذا النظام الإدراكى لا يعمل فى الواقع على فكرة الدليل «Evidence» بقدر ما يعمل على أساس الاستعارة «Metaphor» الأكثر ترددًا والموضوعة لفهم العالم الذى نعيش فيه.



النظام الإدراكي للحجج هو نظام لا تنفصل فيه الحرب في الجبهة عن الحرب اللفظية فى النظرية العلمية السائدة لفهم الحجج وتبادلها

٥- إن النظام الإدراكى الرئيسى لمفهوم الحجة «Argument» فى الثقافة الغربية الأمريكية خاصة هو نظام تسيطر عليه «استعارة الحرب» بكل مفرداتها، كما يذهب إلى ذلك چورچ لاكوف ومارك چونسون، حيث ينتقدان ذلك ويرصدان ما يلى: فى الحجج نقول:

١-٥- «كسبنا أرضًا أو خسرناها».

.«Wegain and Lose ground»

٢-٥- «إن ادعاءك لا يمكن الدفاع عنه».

.«Your claime are indefensible»

٣-٥- «لقد هاجم كل نقطة ضعيفة فى حجته».

.«He attacked every weak point in his argument»

٤-٥- «لقد قوضت/ دمرت حجته».

.«I demolished his argument»

٥–٥– «أنت لا تتفق معى؟.. حسنًا فلنبدأ إطلاق النار».

«You disagree? Okay, shoot!».

٥–٦– «إذا استخدمت تلك الإستراتيجية فإنه سوف يمحوك من على وجه الأرض».

«If you use that strategy, he'll wipe you out».

٥–٧– «لقد أسقط كل حججى».

«He shot down all my arguments».

٥–٨– أضيف لما ذكره لاكوف وچونسون أمثلة أخرى استمعت إليها فى الواقع الأمريكى مثل: «لقد حاول ضرب حجتى بصاروخ سكود ولكننى أحبطت مسعاه بصاروخ باتريوت».

«He tried to scud my argument but I patrioted his...».



إن من الخطر أن نقتنع بأن نظم الاستعارة المهيمنة على نظام إدراكنا للعالم يمثل «الصدق» «Truth»

٦– وهنا يرصد لاكوف وچونسون من الفصل ٢٣ إلى ٣٠ تحليلاً متعمقًا ومحترمًا وفى غاية النقد العلمى الذاتى للثقافة الأمريكية الغربية فيما يتعلق «بالاستعارة» والصدق / الحقيقة Truth والفعل Action والفهم الدقيق بعيدًا عن المركزية الثقافية السائدة.

ويختتم الباحثان لاكوف وجونسون دراستهما الصارمة التى قمنا بتلخيصها فى إطار النقاط السبع أعلاه بأهمية التنظير العلمى وإيجاد نظرية للصدق والحقيقة عبر عنها تساؤلهما فى عنوان الفصل ٢٤ الذى جاء بعنوان «لماذا نهتم بتأسيس نظرية للبحث عن الحقيقة/ الصدق «Why care about a theory of truth?».

فيناقشان مفهوم الموضوعية والذاتية «Objectivity & Subjectivity» فى الثقافة الغربية باستفاضة ويتصوران لو جاء أناس من كوكب آخر فسيتعجبون لمنطق هيمنة الاستعارة على النظام الإدراكى للغة والثقافة الأمريكية ويخلصان إلى القول بأننا ينبغى وأن نعى أن أَوْجُهَ الحقيقةِ متعددة بتعدد الثقافات والشعوب، والحل الأمثل للتقدم فى عملية التواصل يتمثل فى أن نعى أن هناك هذه الأوجه المتعددة للحقيقة فى سياقات بعينها «Several Truths» وأن الوصول للحقيقة بعيدًا عن تأثير المركزية الثقافية وما تطرح من استعارات لفهم العالم والآخرين هو عمل مشترك مع الآخرين فى هذا العالم الفسيح يستلزم خروج الثقافة الأمريكية الغربية من أحادية المفاهيم وإطلاقيتها كما لاحظ لاكوف وجونسون ذلك فى دراستهما المتعمقة والموضوعية.

رابعًا: عينة تحليلية لأهم المصطلحات الحاضنة على الساحة الدولية فى إطار ما عرف «بالحرب ضد الإرهاب» و«الصراع العربى الإسرائيلى» و«العولمة»:

والبعد الإجرائى هنا لن يتمثل فى رصد المصطلحات الحاضنة لكل موضوع من الموضوعات الثلاثة المشار إليها كل على حدة، فهذا

الإجراء سوف يكون فى إطار القاموس أو الموسوعة المقترحة للمصطلحات الحاضنة فى التفاعلات التفاوضية أو اللاتفاوضية الدولية. ولكن الإجراء البحثى المتخذ فى إطار هذه الدراسة يعنى بتوضيح وتجسيد مكونات النموذج النظرى الذى يقدمه الباحث أساسًا واستخدم مكوناته بالفعل فى مناظرات عديدة له حول مصطلحات حاضنة فى سياق التفاعلات الدولية. إن هذه المكونات المذكورة فى النموذج ليست بالضرورة تتجسد كلها وتتضح فى مصطلح واحد، ولكن كل مصطلح له خصوصيته عند تحليل الباحث له واتخاذ الاقتراب الأكثر مناسبة من المكونات الرئيسية فى النموذج النظرى الذى تكون فى ذهنية الباحث من تفاعلاته مع تلك المصطلحات ودخوله فى مناظرات بخصوصها... وهى كما يلى:

١- مكون «السياقية» ومناظرة توماس فريدمان حول مصطلح «السياق الحرج»:

من دواعى فهم «مكون السياقية» Contextuality أن نفهم المستويات المتعددة لهذا المفهوم فيكون السؤال هو: هل سياق الجملة يكفى لتحديد المعنى الدقيق؟ أو أن الأمر يتعلق بما يمكننا تسميته بالسياقية التتبعية الدقيقة Consecutive Contextuality أو اقتفاء أثر السياق Context Tracing؟ والمقصود به استقصاء السياق الحقيقى للتفاعل وكشف أى سياق غير حقيقى ومفتعل، أو ذلك السياق الذى تم رصده واعتباره «السياق الدقيق أو الحرج» ـ ربما دون عمد ـ بناء على الخطأ الناتج عن مباريات المعلومات غير الدقيقة Imperfect Information أو نتيجة لازدحام السياقات فى عصر المعلومات، ولقد

استخلصت هذا المستوى ومستويات أخرى لفهم مفهوم السياق من واقع تحليل كم كبير من بيانات التفاعلات فى إطار الإسلام والغرب قبل سبتمبر ٢٠٠١ وبعده، وللمزيد من تفاصيل هذا الأمر فلها سياق آخر، ويكفى هنا إعطاء مثال مصطلح أثاره وكرره الصحفى الأمريكى «توماس فريدمان» وهو مصطلح «السياق الحرج» Critical Context والحجة الرئيسية من ورائه إثبات أن على العرب كل المسئولية لعدم فهمهم «للسياق الحرج» الذى عرضه كلينتون عليهم وعلى عرفات حين قدم لهم «تسوية متميزة» فى كامب ديفيد الثانية ورفضوها ونزلوا لساحة ممارسة العنف، وهنا ناظرت بالتفصيل مصطلح «السياق الحرج» بحجج أخرى أهمها أن «السياق الحرج» هو الاحتلال للأرض وأن كل المنظمات التى خرجت وسميت بالإرهابية، كانت كلها رد فعل للاحتلال ولم يكن لها أى وجود قبله. وهذا هو «السياق الحرج» الذى ينبغى فهمه والتعامل الجاد معه بعيدًا عن سيناريو النعامة، كذلك فإن «السياق الحرج» هو رصد حقيقة أن عقب كل نداء أو تحرك للسلام تنسفه إسرائيل كما فى حالة «باروخ» قاتل رابين أو... أو... وهذا هو السياق الحرج (راجع مقال مناظرة فريدمان فى ملاحق الدراسة بعنوان «السياق الحرج وكتاب فريدمان الأخير» الأهرام ٩/١١/٢٠٠٢) وبالإنجليزية كذلك.

٢- مستوى الامتداد والسجال من سياق نصر أكتوبر ١٩٧٣ / رمضان ١٣٩٣هـ إلى سياقات العولمة وصدام الحضارات:

المقصود بمستوى الامتداد والسجال Extension & Debating هو استخدام جزء من مصطلح قائم بما يتيح الامتداد لنفس المصطلح، ولكن فى إطار مناظرته من داخل مفرداته، ولعل الأمثلة التالية تكون شارحة:

حقيقة ما قاله السادات عندما قال إن حرب أكتوبر هى آخر الحروب:

■ مصطلح «أكتوبر آخر الحروب» ضد «حرب يونيو آخر الحروب»:

يذكر الفريق الجمسى، رحمه الله، فى كتابه «يوميات حرب أكتوبر»[1] أن السادات قال بهذا عقب نصر أكتوبر ١٩٧٣ كرد سجالى على مقولة ديان التى قالها عقب نكسة أو هزيمة ١٩٦٧ بأن «حرب يونيو هى آخر الحروب»... ولقد تعرضت مقولة السادات إلى نقد كبير من منتقديه بعد أن أخرجت بالكامل من سياقها Decontextualization.

أفقدنا العدو توازنه فى ست ساعات ردًا على مصطلح «حرب الأيام الستة»:

كذلك فى إطار هذا الاشتباك الفكرى السجالى الذى ولده عدوان إسرائيل جاء تعبير الراحل أنور السادات «أفقدنا العدو توازنه فى ٦ ساعات» ردًا على المصطلح الإسرائيلى الذى شاع فى العالم كله بعد يونيو بتسميتها «حرب الأيام الستة».

الجدار العنصرى فى مواجهة الجدار العازل:

وحديثًا ناظر الإعلام العربى بنجاح مصطلح «الجدار العازل» وسمى «الجدار العنصرى» والمستوطنات «ببؤرة الاحتلال» وإن لم تترسخ بعض من هذه الجهود المحمودة، والأمثلة فى التفاوض والصراع الدولى كثيرة، وعلينا أن نقدم للعالم مصطلحاتنا فى هذا الصدد، وعلينا التخلى عن مقولة مختلة علميًا... وهى ذهاب البعض لتكرار أن «اللغة العربية قادرة على... وعلى...» المشكلة ليست فى اللغة العربية بل فى الصيغة الفاعلة لنا... ولقد نجحنا فى صياغة ما أردناه أحيانًا وتقاعسنا فى سياقات أخرى كثيرة، ولا مبرر للتقاعس إطلاقًا، وعلينا تفعيل طاقاتنا للذود عن هذه الأمة بعدم السكون

---

(١) الجمسى، عبد الغنى، «يوميات حرب أكتوبر» ص ٢٤٤.

أو الوقوف على مربعات التفاوض التى يريدها لنا الخصوم والأعداء... ولهذا السياق تفاصيله العديدة ومرفق فى ملاحق الدراسة مقال تفصيلى عن هذا البعد بعنوان «عودة إلى خطاب آخر الحروب» لكاتب هذه السطور (الأهرام المسائى ٢٩/٦/٢٠٠٣).

صراع الجهالات بدلاً من صراع الحضارات:

إنه وفى إطار مستوى الامتداد والسجال فى سياق «صدام الحضارات»، نلاحظ أن إعلامنا اختار مفهوم «حوار الحضارات لا صدامها»: أى تم الاختيار مما هو موجود من مصطلحات مثل «حوار الحضارات»، أما مفكرنا الراحل الكبير إدوارد سعيد فلقد صاغ المصطلح السجالى الذى رآه مطلوبًا وهو ما أسماه «بصراع الجهالات» Clashes of Ignrances وكان موفقًا، وكذلك كان لنا أن نصوغ مصطلح «صدام هنتجتون» نظرًا لأن دراسة دراساته السابقة تنقسم إلى جزءين: جزء تعلق بحوار الحضارات و«الموجة الثالثة» والتعددية، ثم مرحلة انقلب فيها ١٨٠ درجة بتبنيه للصدام الحضارى، راجع مقالاً بالتفاصيل لكاتب هذه السطور بعنوان «تفكيك أمريكا وسيناريو الفوضى فى العالم»، الأهرام ٩/٢/٢٠٠٢. أما فى موضوع «العولمة» و«التعولم» Globalization & Globalism فلقد تمت صياغة مصطلح «الأقلمة» Regionalism ولهذا سياق تفصيلى آخر.

٣- مناظرة الكاتب لفكر صموئيل هنتنجتون «عصر حروب المسلمين» ٢٠٠١ والمصطلح المقابل «عصر تكنولوجيا العداء»:

طرح منظر نظرية ومصطلح «صدام الحضارات» صموئيل هنتنجتون مصطلحًا آخر يندرج فى إطار ذلك المصطلح الحاضن وهو «عصر حروب المسلمين» Age of Muslim War فى المقال الرئيسى

بالعدد السنوى الخاص فى ديسمبر ٢٠٠١/ فبراير ٢٠٠٢، فوصف حروب العالم على أساس أن المسلمين ضالعون فيها فى كل مكان فى العالم، ودعم مقولته بإحصائيات غير دقيقة ومبتسرة، ولقد كان ادعاء هنتنجتون من خلال مصطلحه ينقصه الصرامة العلمية، وأنه لم يقدم دراسة دقيقة عن إحصائيات الحروب فى العالم وأسبابها فى هذا العصر، ولو فعل لوصل لنتائج مخالفة تمامًا، ولكنه انضم إلى أسلوب تلك الحملة الدعائية لتدشين عصر لتصنيع الأعداء وتأطيرهم وإدخال المسلمين إلى مربع يسمح بالقصف الفكرى والفعلى ضدهم وتجاهل أن الإسلام ضد الإرهاب فى المعنى والجوهر، وأن الغالبية العظمى فى العالم الإسلامى تدين كل أشكال العنف والإرهاب وأن تصنيع العداء والإرهاب كما ذهب إلى ذلك بول بيرمان فى كتابه «الإرهاب والليبرالية» يناظر هنتنجتون ويختلف معه ويؤكد أن الإرهاب، لا دين له... مرفق طيه تفاصيل تلك المناظرة فى ملاحق الدراسة «مناظرة هنتنجتون» (٢٢ ديسمبر ٢٠٠١) ومقال بعنوان «الليبرالية والإرهاب ودائرة الحوار الأوسع!» (٢٩/٧/٢٠٠٤).

مناظرة الكاتب لمصطلحات فوكوياما وفلسفته المدمرة:

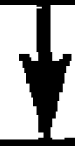
٤- فوكوياما ومصطلحات «نهاية التاريخ» و«النموذج الليبرالى» و«الفاشية الإسلامية»... (مستوى السياقية والامتداد واستعارة الإلحاق الفاسد):

كرر فوكوياما مصطلحات عديدة فى سياقات كثيرة وربطها ببعضها البعض، وخاصة فى مقاله المهم فى العدد السنوى بعنوان «إنهم يستهدفون العالم المعاصر» (العدد السنوى للنيوزويك، ديسمبر ٢٠٠١/٢٠٠٢)، وكان لى أن أناظره فيما طرحه وأفند الربط الخاطئ والمتدرج الذى يمكن تصويره فى الخريطة الذهنية التفاوضية الصفرية التالية:

الشكل رقم ٣ تصويرات فوكوياما المتدرجة

١- صور معادلة «نهاية التاريخ»

النجاح الغربى = النموذج الليبرالى = نهاية ما توصل إليه الفكر المنجز فى عالم اليوم = نهاية التاريخ.



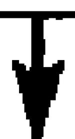
٢- الفاشية الهتلرية النازية كإطار تعبوى راهن

الفاشية الهتلرية كان لابد من مواجهتها وتدميرها ماديًا وعسكريًا... إلى أن حدث ما حدث وتم تدمير وهزيمة ألمانيا الهتلرية (Fascism).



٣- معادلة الاحتلال والإبادة كحل!!!

يقول فوكوياما إن «العالم اليوم عليه أن يتحالف لضرب (الفاشية الإسلامية)» Islamo-Fascism ولو اقتضى الأمر ضرب وتدمير عدة دول إسلامية فى هذا الصدد كما حدث مع النازية الهتلرية الألمانية فى الحرب العالمية.



٤- تبنى النموذج الغربى العلمانى وفرضه

خلوص فوكوياما وقطاع مماثل من المفكرين الغربيين من منظرى الحرب ضد الإرهاب إلى أن على المسلمين الاقتناع بنموذج العلمانية الليبرالية الغربية وتبنيه وتطبيقه فى العالم العربى الإسلامى.

ولقد قمت بمناظرة وتفنيد كل هذه الجزئيات تفصيلاً في حينها وكان المصطلح المناظر هو: «للفاشية الفكرية المغالطة» التي لابد من مناقشتها في إطار مقاومة الإرهاب بكل أنواعه، ومنها الإرهاب الفكري والسعي للاغتيال المعنوي الجماعي للعالم العربي الإسلامي. (للتفاصيل راجع ملاحق الدراسة لكاتب هذه السطور «مَنْ يستهدف مَنْ في طرح فوكوياما؟!» الأهرام ٢٠٠١/١٢/٢٩) ردًا على مقالة بعنوان: «إنهم يستهدفون العالم».

٥- مناظرة مصطلح «الحرب ضد الإرهاب» والحالة النفسية التفاوضية الناتجة عنه ومعادلة «الحليف والمستهدف» معًا!!

تعرضت بالتحليل لمصطلح «الحرب ضد الإرهاب» وذكرت أنه قد ترك مستويات للغموض السلبي، كلها تزيد الأمور تعقيدًا، وتجعل من العالم العربي الإسلامي الحليف في هذه الحرب ضد الإرهاب، وكذلك تجعله المستهدف منها في آن واحد وهو وضع غير مسبوق في التفاعلات الدولية[١].

وفي هذا السياق أطرح هذا التحليل المتميز الذي قدمه چورج لاكوف بخصوص «مصطلح الحرب ضد الإرهاب» مؤخرًا. فإذا كنا قد رصدنا دراسة لاكوف وچونسون التي قدماها عام ١٩٨٠ أي منذ ٢٤ عامًا، فإن شرح لاكوف لمفهوم «الحرب ضد الإرهاب» War on Terror في مقابلة أجريت في ٢٤ أغسطس ٢٠٠٤ ليؤكد على مصداقيته وجرأته العلمية

---

(١) راجع حسن محمد وجيه، بخصوص هذه المستويات «حروب الهوية ومستقبل التفاوض مع الغرب: نحو المشروع العربي لإدارة النوازل الدولية واستباقها»، المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٢ م. ص. (٥٣ ـ ٦٢).

واتساق تحليلاته عام ١٩٨٠ مع تفسيره لما يحدث اليوم عام ٢٠٠٤، حيث يقول: «إن أى إنسان تقدمى لا يمكن له أن يستخدم مصطلحًا كالحرب ضد الإرهاب War on terror لعدة أسباب؛ لأنك إذا قلت على سبيل استخدام الاستعارة الحرب ضد المخدرات War on durgs أو الحرب ضد الفقر War on poverty فإن مثل هذه المصطلحات قد تشعرك بشيء من الأمان، أما مصطلح «الحرب ضد الإرهاب» فهو يشعرك بالخوف والرعب فورًا، ويجعلك خائفًا دائمًا. وكان من الممكن صياغته بأنه «حرب ضد الإرهابيين» فعادة هم أقلية وليسوا بحجم ما يوحى به مصطلح الحرب ضد الإرهاب، والذى استخدم لشن حروب خاطئة ضد دول أخرى وهذه «الدول الأخرى» ليست مثل «الإرهابيين» فالإرهابيون قلة مهما كان عددهم وليسوا دولاً. ويضيف چورج لاكوف قائلاً: «إننا نتحرك على المستوى الخاطئ ولقد تبع استخدام هذا المصطلح أن سمى الجمهوريون الرئيس بوش «برئيس للحرب أو رجل الحرب War president»، كما تلقفنا مصطلح «صلاحيات الحرب» War powers ويضيف لاكوف قائلاً: «إنه بثلاث كلمات «الحرب ضد الإرهاب» قام هؤلاء (الذين يصفهم بالمتطرفين Radicals) من الجمهوريين بتدشين تغييرات سياسية ضخمة فى البلاد مست كل الأمريكيين وحقوقهم» كما أن مصطلح «الحرب ضد الإرهاب» يفيد الاستمرارية ربما إلى ما لا نهاية...

ويخلص لاكوف إلى أن ما يحدث فى أمريكا اليوم على عدة أصعدة لهو ضد مفهوم «المساواتية الأمريكية» American Egalitarianism أى المساواة بين الأمريكيين والبشر... وضد فكرة

العدالة الاقتصادية وأن ما يحدث من وجهة نظره الوطنية الأمريكية هو «غير أمريكى» Un American.

فى التصدى لمصطلحات «التدمير الخلاق» و«البلقنة» و«مغنطة الإرهاب»:

٦- مناظرة مصطلحات «التدمير الخلاق» Creative Destruction وبلقنة العالم العربى وتفتيته Balkanization و«مغناطيس الإرهابيين» Terrorist Magnet:

تحدث مايكل ليدن وهو واحد من مفكرى «المحافظون الجدد» عن خطة تفتيت المجتمعات العربية على غرار ما أوضحه قبل ذلك المفكر المعروف «تشومسكى» عن خطة تفتيت المنطقة تحت مصطلح «البلقنة» أو «العثمنة» وكانت المسميات التى وصفها تشومسكى أقل شراسة، وإذا بمايكل ليدن يسميه «التدمير الخلاق» إشارة لفكر تفتيت المجتمعات العربية بشكل عدائى إرهابى فى واقعه، وفى إطار هذا الفكر المدمر نرصد مصطلحًا آخر على درجة كبيرة من الهيمنة؛ وهو مصطلح شارح لرد الفعل وهو «مغناطيس الإرهابيين» ولقد قدم هذا المصطلح الجنرال الأمريكى Ricardo Sanchez قائد القوات البرية الأمريكية فى العراق قائلاً فى يوم ٢٠٠٣/٧/٢٨: «إن الولايات المتحدة هى بمثابة مغناطيس كبير للإرهابيين»[١].

إن هناك فيما يبدو مغناطيسًا يشد الإرهابيين أينما وُجِدَتْ أمريكا فى العراق.. فهى هدف واضح لهم. ولقد اعتبرت وسائل الإعلام الأمريكى هذا التعبير «غير وطنى» ولكنه قد عبر ضمنيًا عن خطأ غزو العراق (الذى اعترف «كوفى عنان» ـ سكرتير عام الأمم المتحدة ـ مؤخرًا أنه غير مشروع وأنه قد وَلَّد نوعًا من الإرهاب

(١) راجع جريدة Middie East Times عدد ٩ ـ ١٥ أغسطس ٢٠٠٣.

والإرهاب المضاد وأوجد حالة هذه الدائرة الجهنمية التى يعترف بها كل أصحاب العقول المنضبطة فى تحليلها... وهو الأمر الذى جعل من العالم كله مغناطيسًا كبيرًا للإرهاب والإرهاب المضاد وتلك الحلقة الجهنمية التى يتطلب الأمر معها تدشين دبلوماسية جديدة تتعامل مع جذور الإرهاب وليس ظواهره. فهل يفسر هذا المصطلح «التدمير الخلاق» وهل يكون التدمير خلاقًا؟!!!

فى الكشف عن دلالات المنظور العربى الاستعلائى لمصطلح «علمنة المجتمع الإسلامى» ومصطلح «الاختزال العلمانى»:

٧- مناظرة مصطلح «علمنة المجتمع الإسلامى» Secularization of the Islamic World مستوى التضخم والقصور والالتباس Semantic Inflation/ Deflation وسياقات هنتنجتون لعام ٢٠٠٤ والمعادلات المطروحة فى هذا الصدد:

إن مصطلح «علمنة المجتمع الإسلامى» هو كذلك اسم لمعهد غربى ينشر كل ما يتعلق بهذا الموضوع، وأكثر ما استوقفنى مما ينشر عن هذا المعهد كان هجومه على مفكرنا الراحل الكبير إدوارد سعيد، والطريف أن ابن وراق[1] الذى هاجمه فى منشورات هذا المعهد كان يدين وينتقد نوعية العلمانية التى كان يصف بها إدوارد سعيد. فالحقيقة أن مفهوم العلمانية هو مفهوم ينطبق عليه ظاهرة لغوية معروفة لعلماء اللغويات وهى الخاصة بتضخم المعنى Semantic Inflation أى أن المفهوم قد وردت بخصوصه تعريفات متعددة وتوجهات مختلفة، مما يخلق نوعًا من «القصور» أو الالتباس فى استخدامه على الإطلاق Deflation. فالعلمانية عرِّفت على المستويات التالية:

(١) انظر:
Ibn Warraq, "Debunking Edward Said", Institute for the secularization of Islamic Society, 11/7/2003.

١- أنها ترتبط بالعلم فى أحد التعريفات.

٢- أنها ترتبط بالعالم (بالحياة الدنيا وشئونها) فى تعريف آخر.

٣- أنها ضد الدين فى بعض تعريفاتها وقناعات متبنيها.

٤- أنها تدعو لفصل الدين عن الدولة وليست ضد الدين كما يتبناها البعض الآخر. ولكن على أى أساس يهاجم هذا المفهوم فى الواقع العربى الإسلامى؟

وفيما يلى بعض من مستويات رد الفعل للمصطلح:

١- أن مصطلح العلمانية ارتبط بتاريخ التفاعلات الغربية بفصل الكنيسة وتأثيرها على السياسة، وبالتالى فإن فى هذا إسقاطًا متعسفًا على الواقع العربى الإسلامى المختلف.

٢- إن المصطلح لازم مفاهيم «الغرب واستعماره للمنطقة».

٣- أنه مصطلح تاريخى عابر لا يمكن مقارنته ومزاحمته للقرآن الكريم... فى الوقت الذى يتبنى فيه البعض العلمانية، وأنها «دين» فى مواجهة «دين»...

لقد ترددت، بكثافة، الدعوةُ هذه الأيام وبعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ إلى ترويج وترسيخ العلمانية فى العالم العربى الإسلامى - كلٌّ بتصوره للمفهوم - وهى دعوة رددها العديد من المفكرين الغربيين، ومنهم فوكوياما بمعنى «فصل الدين عن الدولة»، ولكن هناك من يروج لها طبقًا للمستويات الأخرى التى ذكرناها خاصة على ذلك المستوى الملازم للحملة ضد الإسلام وتشويه صورته الحقيقية تمهيدًا لاعتباره مرادفًا - والعياذ بالله - لقيم التسلط والتخلف والكراهية وكل التشوهات التى روجوا لها ظلمًا وافتراءًا فى سعيهم للاغتيال الجماعى للشخصية العربية الإسلامية.

فى هذا الخضم لابد أن نرى ماذا يقترح هنتنجتون فى أحدث كتبه بعنوان «مَن نحن؟ والمناظرة الكبرى فى أمريكا اليوم؟»[1].

باختصار شديد يرى هنتنجتون فى كتابه الأخير هذا أنه لبناء الهوية الأمريكية لابد من إجراء تحويلين مركزيين هما:

١- عودة الأمريكيين للدين المسيحى وزيادة دور المسيحية فى الحياة العامة الأمريكية بالمستوى المطلوب لإعلاء الهوية المسيحية لأمريكا.

٢- الدور الذى يمكن أن يؤديه الإسلام «كعدو أساسى جديد لأمريكا»!!

وإذا أردنا أن نضيف بُعْدًا آخر لمناقشة وفهم مصطلح «العلمانية» فلابد من رصد حجج غربية أخرى تتعلق بالمصطلح. ورد فى كتاب بعنوان «الدين ذلك البعد المفتقد فى السياسة الدولية»[2]. والذى قدم له الرئيس الأسبق للولايات المتحدة «چيمى كارتر»، حيث ورد تعبير «الاختزال العلمانى» Secular Reductionism والذى انتقد من خلاله مفهوم العلمانية وإنكارها للدور الإيجابى للأديان فى إدارة العلاقات الدولية بدلاً من التخوف غير المبرر منها، كما أشاع ذلك خطأ الفكر العلمانى المتطرف أو المختزل للحقائق... كل ما سبق لابد وأن يتم وضعه داخليًا ودوليًا لمناقشة الجانب الإيجابى للأديان وقوتها الخلاقة، خاصة فى العالم العربى الإسلامى؛ لأن مهاجمة الدين الإسلامى وفرض العلمانية الملتبسة لهو خطأ استراتيجى لكل

---

(١) راجع:
Huntington, Samuel, Who Are We?, America's Great Debate, Simon & Schuster U.K Ltd. 2004.

(٢) راجع:
Johnston, Douglas & Sampson, Cynthia: "Religion, The Missing Dimension of State Craft; (Forewrd) by Jimmy Carter, Oxford University Press, 1994.

من يعتنقه سواء كان فى الداخل أو الخارج، وهنا على العالم العربى الإسلامى أن يجتهد فى وضع وصياغة حيثيات أجندته بشكل إيجابى وغير ملتبس، وهو أمر لابد من أن تتم مناقشته فى إطار من التفاوض الإيجابى ومواجهة الهيمنة والتسلط القادم من الخارج فى هذا الصدد... وبناء التنمية طبقًا لمعطيات الهوية وتقديم النموذج الإسلامى المعاصر المبنى على المقاصد الإنسانية الإسلامية الكبرى، والذى سيكون إضافة لخير العالم كله.

فى التصدى لمصطلحات «الإرهاب الإسلامى» و«التهديد الإسلامى» و«الخطر الأخضر» و«الغواصات الإسلامية»!!

٨- مناظرة مصطلح «الإرهاب الإسلامى» و«التهديد الإسلامى الثلاثى» و«الخطر الأخضر» ومستوى الترجمة وأخطاء التفاعل الإعلامى ومحاولات الاغتيال المعنوى الجماعى للعالم العربى الإسلامى:

إن التطور الأخطر فى تاريخ العلاقات الدولية بين الغرب والعالم الإسلامى هو مستوى التشويه والتأطير الذى لحق بالإسلام والمسلمين تمهيدًا لاستباحة العدوان عليهم، ولا ننفى وجود أخطاء كبيرة فى ممارسات البعض الذين رفعوا شعار الإسلام خطأً وظلمًا دون فهم لجوهر هذا الدين السمح، من هنا فإن المعادلة تستلزم تصحيح صورة الإسلام فى الغرب وتصحيح الأصل فى ممارسات التفاعل فى الواقع العربى الإسلامى بتبنى كل قيم التقدم التى هى فى صميم المقاصد الكبرى للإسلام. وعلينا التعامل مع جذور الصورة التى تم ترويجها فى الغرب فى إطار حملة ما أسميه «بالاغتيال الجماعى للشخصية العربية الإسلامية».

فلقد تُم الترويج لمفهوم «الإرهاب الإسلامى» منذ أكثر من عقدين وحتى قبل سقوط الاتحاد السوفيتى وصعود مقولات «الخطر الأخضر».

ولابد من استنهاض كل قوى الإنصاف والاعتدال فى العالم لمواجهة تطرف وإرهاب عملية الاغتيال الجماعى الذى يمارسه البعض ضد العرب والإسلام والمسلمين والمعادلة أمامنا تتمثل فى الشكل التالى:

الشكل رقم ٤: التعامل مع صورة العرب والمسلمين فى الغرب

١- معادلة التعامل مع عمق وجذور الحملة ضد الإسلام ووقف عملية الاغتيال الجماعى للشخصية العربية الإسلامية من خلال الكوادر المدربة تدريبًا متميزًا فى عالم اليوم.
↓
١- معادلة التعامل مع أخطاء كبرى فى ممارسات الواقع العربى الإسلامى ووقوفه فى موقع رد الفعل المتأخر أو اللافعل أو الفعل السلبى، وأهمية زيادة وتيرة الإصلاح النابع من الداخل وترسيخ كل قيم التقدم والندية النفسية والفكرية وإدارة النوازل واستباقها فى عالم اليوم الذى يتسم بروح تنافسية وصراعية عالية الوتيرة لا تقبل «التسلحف» القائم مع الأسف فى الداخل العربى الإسلامى واستنهاضه ورده لدوره فى الاضطلاع بالإسهام الحضارى الإيجابى على كافة الأصعدة

وللحديث عن المعادلتين تفاصيل أخرى، ولكن أحيل القارئ إلى واحدة من مشاكل الترجمة الشائعة وأخطاء التفاعل من جانبنا فهى لا تقل خطورة عن أخطاء وإجحاف الآخرين على سبيل المثال لا الحصر، (راجع مقالاً لكاتب هذه السطور فى جريدة الأهرام بعنوان: «مواجهة الإسلام... معجميًا» ٢٠٠٤/٨/١٨) والذى أقدم فيه أمثلة من الترجمات الخاطئة التى قدمها المسلمون للقرآن الكريم وخاصة فى موضوعات على درجة كبيرة من الحساسية للإرهاب.

استنتاج الدراسة حول «فخ المصطلح»

نحو دبلوماسية دولية للتعامل مع «السياق الحرج» الراهن فى ظل خرائط التفاوض الممكن و«لغة الهيمنة والاستعلاء» والتحرك المطلوب:

هناك العديد من المصطلحات والحجج المصاحبة لها التى تعامل معها كاتب هذه السطور على مدى سنوات من المناظرات والتفاعلات العديدة الإعلامية منها والمباشرة عبر الثقافات ولم يتسع المجال لرصدها فى إطار نقطة التركيز الخاصة بهذه الدراسة، ويكفى فى هذه الدراسة توضيح عناصر النموذج النظرى المستخدم فى تحليل «المصطلح ومجرة الحجج المصاحبة له» وأهمية المناظرة من المنظور العربى الإسلامى فى إطار تدشين دبلوماسية دولية تتمثل منطلقاتها فيما يلى:

أولاً: تعريف «السياق الحرج» الذى يتعين على العالم أن يتعامل معه اليوم من خلال حركة دولية جماعية تضمن تحقيق مباراة؛ فلنكسب منها جميعًا.

وهنا نعرّف «السياق الحرج»، والذى لابد للعالم أن يتعامل معه وهو المتمثل فى الآتى:

١- وجوب إنهاء احتلال كل من العراق والأراضى الفلسطينية فلا يوجد فى عالم اليوم احتلال كما يحدث فى دول المنطقة، كما لا يوجد تهديد صارخ كالذى يحدث ويمارس ضد الدول العربية

الإسلامية. وهذا لا يفيد فى مباراة تطبق مبدأ «نكسب جميعًا لصالح العالم، كما أن سياق الاحتلال وإرهاب الاحتلال هو المولد لرد الفعل الإرهابى والدخول إلى حلقة جهنمية... ينبغى وقفها لصالح العالم كله اليوم.

٢- التعامل مع حالة «الاغتيال المعنوى الجماعى» القائمة الذى تتعرض له الشخصية العربية الإسلامية تحت بند تزييف الحقائق و«شيطنة الآخر» بما يؤثر سلبًا على أصعدة التفاعل الإيجابى بين العالم العربى الإسلامي والغرب.

٣- أهمية فصل الإرهاب فى عالم اليوم عن وصفه بالدين، وخاصة بالإسلام ظلمًا وعدوانًا، ونسيان أن العنف والإرهاب لا يولدان سوى العنف والإرهاب المضاد بمنطق لكل فعل رد فعل مضاد. وليس للإسلام أو للأديان كلها شأن بالإرهاب، فالإرهاب القبيح لا دين له.

٤- تشجيع الاعتدال والخطوات المؤدية إليه فى قرارات العالم على المستوى الدولى بخصوص كافة قرارات التعايش الدولى وترسيخ أسس الشرعية الدولية.

٥- رفض المعايير المزدوجة، والتى تمارس فى العالم على عدة أصعدة، وخاصة فى إدارة الصراعات الممتدة والصعبة التى يتعين على العالم المشاركة فى إدارتها بشكل عادل إيجابى بعيدًا عن الإجحاف وصور المصطلحات الاستعارية التى تطلق خطأ لتعبئة الجهود الدولية فى اتجاهات خاطئة بعيدًا عن الحقائق الموضوعية على الأرض.

ثانيًا: معايير التفاوض التى ينبغى أن تتبناها هذه الدبلوماسية الدولية التى لابد أن تأخذ فى إطارها جهود الأفراد والمجتمعات المدنية والمؤسسات الحكومية لترسيخ هذه الدبلوماسية من خلال التشبيك الفعال Networking.

وهذه المعايير التفاوضية الإيجابية الصارمة تتمثل فيما يلى:

١- ترسيخ التفاعل الإنسانى المبنى على مباراة «فلنكسب جميعًا» Win win Game.

٢- رفض وتجنب أسلوب التهديد فى التفاوض كما يحدث اليوم وفى ذلك ردة عن التفاعل الإيجابى.

٣- التصلب فى المواقف Sticking to Position بعد أن يثبت أنها خاطئة.

٤- رفض وتجنب التفاوض المبنى على الخداع والمناورات والكمائن الحوارية التفاوضية مثل:

- فخ الإلحاق الفاسد The Anchor Trap المبنى على المعلومات غير الدقيقة والانطباعات الأولية التى تسد الطريق على المعلومات المستجدة.
- فخ التنبؤ The Prediction Trap ويحدث عندما يفشل المفاوضون فى النظر للإيجابيات ويركزون على سلبيات الماضى فقط عندما ينظرون للمستقبل.
- فخ التمادى فى الخطأ بعد اكتشافه واستحضار حجم الاستثمار الذى بذل فى إطاره Investment Trap والمقصود بهذا الفخ هو عدم التمادى فى الخطأ حتى وإن كان ما أنفقه المفاوض فى

استثمار فكرة ما كبيرًا، فلا يبرر الإنفاق أو الاستثمار السابق التمادى فى الخطأ، فإذا كان الاستثمار مثلاً فى فكرة غزو العراق كبيرًا على الساسة والأموال الداعمة للفكرة، وثبت الخطأ الاستراتيجى والخطأ فى الشرعية الدولية فالتفاوض الإيجابى ينبغى أن يصب فى عدم التمادى بدلاً من «التمادى فى استثمار خاطئ لفكرة خاطئة»، وفى ثقافة تقرن الاحتلال، أى احتلال، بالمقاومة مهما كان المحتل ومهما كان ثمن المقاومة.. وعلى العالم أجمع أن يتفهم هذه الحقيقة عبر الثقافية وعبر التاريخ الإنسانى كله.

- فخ التأطير الخاطئ وافتقاد الدليل الصحيح Framing & Evidence Trap، فعلى المفاوض الجيد التأكد من صحة المعلومات وصحة الإطار المفسر لها.. وهذا ينطبق على صحة المعلومات عن الإسلام والمسلمين بعيدًا عن فخ التأطير الخاطئ (راجع مقالاً لكاتب هذه السطور «إنهم خبراء تحكمهم النمطية والقولبة ويتجاهلون واقعنا» الأهرام ٢/٣/٢٠٠٢.
- فخ المناطق الآمنة Comfort Zone Trap وليس المقصود هنا بمصطلح المناطق الآمنة Safe Heaven ذلك المصطلح السياسى الدولى الغامض الذى يصب فى تخصيص أماكن للأقليات أو أماكن «للإبادة الجماعية» فى دول بعينها لتكون تحت الحماية والتدخل الدوليين فى لحظات بعينها (كما يراد لدارفور وخلافه)، وإنما المقصود هنا بالمنطقة الآمنة Comfort Zone هو تجنب الخوض فى المشاكل وحلها واختيار منطقة يعتقد

المفاوض أنه فى أمن وأمان من خلالها فتزداد المشاكل تفاقمًا وتستعصى المشاكل المتروكة للتفاقم على الحل[1].

٥- التعريف الدقيق لمشاكل التفاوض وللأرضية المشتركة هو أمر ليس بالسهولة، بل يحتاج إلى مهارات متعددة سيكون لرصدها سياق آخر.

٦- تعميق فهم مشاكل التواصل عبر الثقافات ومعضلات التفاوض وطرق البحث فى التغلب عليها.

---

(١) بخصوص بعض أنواع فخاخ التفاوض وسلبيات التفاعل إطار السعى لإحداث التغيير السلوكى السلبى من خلال البرمجة اللغوية العصبية، راجع على سبيل المثال:

Knight, Sue, NLP at Work, Nicholas Brealey, 2000.

وارجع للموقع التالى:

WWW.negotiation-academy.com/index.htm.

ـ الجزء الثالث الملف رقم ٣ ـ

دراسة بعنوان: فخ حرب الدخان والإدمان
إشكال الإدمان والتدخين كحرب منخفضة الوتيرة
وكتهديد للأمن المجتمعى والقومى:
تحليل لأوجه الخلل فى إدارة الأزمة الممتدة وفى خطاب
المعالجة المجتمعية والإعلامية
دراسة من منظور التفاوض الجماعى وإدارة الأزمات(١)

تمهيد وموجز لمحاور الدراسة:

إذا كان العنوان الرئيسى لهذه الندوة هو «الرقابة على تداول الأدوية» بعد أن أصبحت أنواع معينة من الأدوية تستخدم كشكل من الأشكال المستحدثة للإدمان والتعاطى للمواد المخدرة اليوم، فإن المحاور المتعددة لهذه الندوة تتعامل مع البنية العميقة للنطاقات الأوسع الموضحة لعمق هذه الظاهرة. ومن هذه المحاور ذلك المحور الذى تندرج فى إطاره هذه الدراسة وهو «المواجهة الاجتماعية والإعلامية الشاملة لمشكلة التعاطى والإدمان».

(١) بحث أولى مقدم إلى ندوة: الرقابة على تداول الأدوية، محور: المواجهة الاجتماعية والإعلامية الشاملة لمشكلة التعاطى والإدمان، مركز بحوث الشرطة ـ أكاديمية مبارك للعلوم الأمنية والشرطية القاهرة ١٢ يونيو ٢٠٠٥م.

وإذا تأملنا عمق ظاهرة تعاطى الأدوية كشكل من أشكال المخدرات ـ والتى يسهل الحصول عليها وعدم تجريمها ـ لوجدنا أن البنية العميقة لهذه الظاهرة تتمثل فى فعل وسلوكيات الإدمان والأجواء المحيطة به والمشجعة عليه، وبالتالى فإن هذه الدراسة لا تركز على أساليب الرقابة على تداول الأدوية والسبيل الحاسم لذلك، فهذا إجراء أمنى رقابى لا غنى عنه ومطلوب ومهم ولكن هذا البعد لا يتعامل بالطبع مع جذور المشكلة وبنيتها العميقة. إن الطرح الرئيسى لهذه الدراسة يتمثل فى الذهاب إلى أن هذه الظاهرة الأوسع انتشارًا ووبائيةً وإدمانيةً فى المجتمع المصرى والعربى تتمثل فى ظاهرة التدخين.

الفخ الأول: التدخين كمقدمة وجذور للتعاطى والإدمان:

وإذا كان من المهم إحداث التراكم النوعى والكمى فى دراساتنا للظواهر المجتمعية، فإنه كان من المتعين على الباحث الرجوع إلى أدبيات سابقة عديدة وكان من أهمها ما يربط بين التدخين وباقى ظواهر التعاطى والإدمان حيث أكد تقرير حاشد للأدبيات السابقة صدر عن البرنامج القومى للوقاية من تعاطى وإدمان المخدرات أن التدخين المبكر هو أحد الدوافع القوية للإدمان»[1] ونؤكد هنا أن التدخين هو المدخل الأول والأصيل للإدمان بكل أشكاله، فلا يوجد متعاط للمخدرات إلا إذا كان فى الأصل من المدخنين.

---

(١) للتفاصيل راجع دراسة البرنامج القومى للوقاية من تعاطى وإدمان المخدرات ٢٠٠٠م ـ ٢٠٠١م، الصادرة عن ثلاث جهات وهى: صندوق مكافحة وعلاج الإدمان والتعاطى ورئاسة مجلس الوزراء والمجلس القومى لمكافحة الإدمان، ص٤٣.

ولقد أشار نفس التقرير السابق إلى أنه وبالنسبة لصحبة التعاطى وهو ما يمكننا تسميته بالمصاحبات الإيجابية شكلاً والوهمية مضموناً، والتى تدفع للتدخين أو التعاطى، فلقد أشارت الدراسات إلى أن نسبة ٦٠٪ من المدمنين يتعاطون المخدرات مع الأصدقاء استكمالاً للجو الاجتماعى[١]. وفيما يتعلق بالنسبة لتأثير التعاطى ونتائجه، أشارت إلى أن هناك قطاعًا من المدمنين يقتنعون بأن المخدرات تساعد على «نسيان الهموم»[٢] كذلك أفادت الدراسات أن هناك نسبة ٦٥,٩٪ من عينة المدخنين الخاضعة لتلك الدراسة تتعاطى بشكل جماعى»[٣] لقد أثبتت الدراسات أيضًا أن «تأثير الإعلام على الشباب فى غاية السلبية، فبعض هؤلاء الشباب أو كثير منهم يحاكى البطل المدمن، وذلك يرجع إلى المبالغة فى إظهار المدمن على كونه ضحية للظروف، وهذا يخلق تعاطفًا معه[٤].. ومن الأسباب التى ذكرها الشباب أيضًا غياب القدوة[٥].. فى هذه الأجواء الاجتماعية التى تدعم من ربط التدخين بالتفاعل الاجتماعى SOCIALIZATION وهو الأمر الذى يتم دعمه بشكل مؤسف ومكثف فى الكثير من الأعمال التليفزيونية والسينمائية حيث إن كل «المصاحبات الاجتماعية والإيجابية» (الوهمية والخاطئة) نراها تتجسد لتترك أكبر الأثر على الآخرين حيث نجد شخصيات من المفترض أنها مرموقة ولها وجاهتها الاجتماعية، تؤكد فى اللاشعور أن الجزء الأكبر من هذه الوجاهة الاجتماعية تتجسد فى أفعال التدخين و«العزومة بالسجائر».

(١) السابق ص٤١.
(٢) السابق ص٤١.
(٣) السابق ص٤٤.
(٤) السابق ص٤٦.
(٥) السابق ص٤٦.

من هنا نقدم فى هذه الدراسة التى تندرج فى إطار محور المواجهة الاجتماعية والإعلامية الشاملة لمشكلة التعاطى والإدمان الأسئلة المحورية الخمسة التالية:

١- حجم المشكلة والنطاق الأوسع لها وبنيتها العميقة.

٢- أسئلة هذه الدراسة المحددة والمعبرة عن مدى تفاقم الأزمات بصفة عامة وأزمة الإدمان الممتدة تحديدًا وأوجه الخلل القائمة فى حجج التعامل مع هذه الأزمة أو تلك الحرب منخفضة الوتيرة من منظور التفاوض وإدارة الأزمات.

٣- ماذا عن الحالات التفاعلية التطبيقية موضع التحليل فى هذه الدراسة؟

٤- ماذا عن سيناريوهات إدارة حالات الإدمان كما تجسدها أزمة/ حرب التدخين؟

٥- ماذا عن منطلقات وحجج وخلفيات التعامل مع سيناريو التدخل الإيجابى والتفاوض الجماعى المطلوب؟ وماذا عن التعامل مع السيناريو الأسوأ الذى بدأنا ندخل عتباته؟

السحابة الأكثر سوادًا: ندخن ٥٢ بليون سيجارة فى مصر فى العام الواحد.

أولاً: حجم المشكلة ذات النطاق الأوسع لهذه الدراسة مع اعتبار أن إدمان التدخين بمثابة البنية الأخطر والأوسع وبائية وانتشارًا لكافة أشكال وسلوكيات الإدمان الأخرى، وكذلك اعتبار ما أسميه بحرب التدخين بمثابة حرب منخفضة الوتيرة وكتهديد للأمن المجتمعى والقومى وليست مجرد مشكلة...

فى سياق سابق لكاتب هذه السطور ومنذ عدة سنوات ذهبت إلى القول بأننا لم نعد بصدد التعامل مع مجرد مشكلة للتدخين أو للإدمان، بل لقد تفاقمت الأمور وتداخلت لتصبح بمثابة ما يسمى فى مفاهيم إدارة الصراعات فى مجال العلوم السياسية «بالحروب/ الصراعات منخفضة الوتيرة» Low Intensity Conflict والمقصود بالمفهوم هو تلك الحرب غير العسكرية، والتى قد تحقق نتائج أكثر بشاعة من استخدام القوة العسكرية، وهو الأمر الذى ولا شك يمثل تهديدًا للأمن القومى والمجتمعى[1]. وفى تطور لاحق يتفق مع هذا التوصيف الذى قدمته (فخ التدخين والكارثة الإقليمية:٢٥ مدخنًا جديدًا كل ساعة فى مصر).

ففى عام ٢٠٠١ أصدر المكتب الإقليمى للشرق المتوسط لمنظمة الصحة العالمية فى عام ٢٠٠٤ تقريرًا بعنوان «اقتصاديات التبغ فى منطقة شرق المتوسط» ليصف الوضع بأنه كارثة إقليمية Regional Catastrophe حيث يذكر التقرير أن: «استهلاك التبغ يتزايد بشكل مطرد فى المنطقة، وقد زاد بمعدل ٢٤٪ عما كان عليه فى الفترة من ١٩٩٠ ـ ١٩٩٧ وبخصوص مصر ذكر التقرير أن مصر بها أعلى معدلات استهلاك التبغ فى العالم العربى. وأن الاستهلاك قد ارتفع من ١٢ بليون سيجارة فى عام ١٩٧٠ إلى ٥٢ بليون عام ١٩٩٧، وأن عدد المدخنين قد زاد بمعدل الضعفين، وأن معدل الزيادة فى ارتفاع كبير يقدر بـ ٨٪ سنويًا...»[2].

(١) راجع لمزيد من التفاصيل مقالاً لكاتب هذه السطور بعنوان: «مستقبل حرب الدخان الكبرى» الأهرام ٢٠٠١/٢/١٣م (مرفق نص المقال فى ملحق الدراسة).

(2) WHO Report titled "The Economics of Tobacco in the Eastem-Mediterranean Region", by the regional office of the Eastern Mediterranean, 2004.

٢٥ مدخنًا جديدًا فى مصر كل ساعة:

ويضيف التقرير أن دراسة مسحية عام ١٩٨٠م قد أشارت بأن هناك ٢٥ مدخنًا جديدًا فى مصر كل ساعة يدخن كل واحد منهم ٢٢٨٠ سيجارة فى العام...»[١].

وفى تقارير أخرى أشار إليها كل من د. فاطمة سليم العوا ود. السعيد على عون بأن مصر تحرق ٣٠ مليون جنيه يوميًا، وأن الدخان يقتل ٩ أشخاص كلَّ دقيقة فى العالم. وأن مصر تستهلك ٦٠ بليون سيجارة سنويًا مما يضاعف مشاكل الصحة والبيئة ويلحق أكبر الأذى بغير المدخنين خاصة[٢].

إن السيجارة والتدخين هما أكثر المقدمات خطورة لفعل الإدمان بكل أشكاله المختلفة، ومنها المخدرات وشرب الأدوية المخدرة إلى آخره. وعناوين دراسات الإدمان ومانشتات بعض الصحف تزيد من تصوير طبيعة «الحرب/ الصراع» الكبير الذى علينا إدارته بشكل مختلف تمامًا عما هو قائم حاليًا... وهنا نرصد عينة من بنك بيانات هذه الدراسة مثل «خبراء التخطيط القومى يحذرون: تجارة المخدرات تستنزف ١٤,٥ مليار جنيه سنويًا من موارد الاقتصاد المصرى، الإنفاق على المخدرات يزيد على ٨٪ من الناتج القومى»[٣].

ويقول د. عبد الفضيل فى دراسة له نشرتها مجلة «مصر المعاصرة» عام ١٩٨٥: «أن الإنفاق على المخدرات يزداد فى مصر

---

(١) المصدر السابق ص١.

(٢) تحقيق فى الأهرام بعنوان مصر تحرق ٣٠ مليون جنيه يوميًا! كتبه يحيى يوسف ٢٠٠٤/١٢/٤.

(٣) الأهرام ٢٠٠٣/٧/٢٦.

بمعدل مليار جنيه سنويًا... وهو الأمر الذى يعمق من مفهوم «الحرب منخفضة الوتيرة» التى قد تكون خسائرها ونتائجها أبشع من الحروب العسكرية المباشرة[1].

ولقد ورد فى دراسات البرنامج القومى للوقاية من تعاطى وإدمان المخدرات المشار إليها آنفًا، وفيما يتعلق بأنواع المخدرات، فإن هناك نسبة ٢٥,٥٪ من عينة الدراسة تشير إلى أنهم يتعاطون البانجو، وأن نسبة ٢٤.٢٪ يتعاطون الكحوليات، وأن نسبة ١٢,١٪ يتعاطون الهيروين و٦٪ يتعاطون أدوية كحة و٣٪ يتعاطون أقراصًا منشطة و٣٪ يتعاطون الحشيش[2].

إن المقارنة إذن تتكامل وتتضح الخطورة الكبيرة لكل أنواع الإدمان، ولكن الخطورة الأكبر لا تزال تتمثل فى السلوك الأوسع انتشارًا ووبائية فى مصر وهو سلوك إدمان التدخين.

فخ الشركات المتعددة الجنسيات:

■ دور الشركات متعددة الجنسية فى تغذية وشن حرب كوكبية منخفضة الوتيرة، أصبحت تستهدف الدول النامية لتحويلها إلى سوق بلا هوادة لسمومها:

قدمت فى مقالى بالأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٢/١٣م قراءة أولية للوثائق (ومنها الوثائق السرية)، بعد أن علمت بأن المحكمة الدستورية العليا فى أمريكا قد أجبرت الشركات متعددة الجنسية

(١) السابق ص١٧.
(٢) السابق ص٤٠.

على نشر ٢٠٠٠ من هذه الوثائق على شبكة الإنترنت، وذلك حتى تتجنب هذه الشركات إصدار أحكام قاسية للغاية ضدها، وبالتالى فلقد نجح بعض المواطنين الأمريكيين الذين رفعوا قضايا على هذه الشركات فى الحصول منها على سبيل التسوية على تعويضات تقدر ببلايين الدولارات، مما جعلها تتحرك خارج نطاق «سوق الأغنياء فى الولايات المتحدة خاصة لتستهدف الدول النامية» ـ ومنها إقليم الشرق الأوسط والعالم العربى والإسلامى ـ وفقراءها من خلال هندسة بالغة التعقيد والتفكير الاستراتيجى على عدة مستويات. ولقد قدمت منظمة الصحة العالمية، وكذلك جمعيات المجتمع المدنى المناهض لحرب التدخين وسمومها عبر العالم، العديد من التقارير الكاشفة لاستراتيجيات تلك الشركات واستهدافها ولذلك تفصيل فى سياق آخر.

ثانيًا: أسئلة هذه الدراسة المحددة:

بعد أن قدمنا إطار المشكلة ذات النطاق الأوسع فى «أولاً» والتى توضح حجم وخطورة مشكلة الدراسة، وأننا بصدد «أزمة ممتدة» A Protracted Crisis. وقد تم وصفها كذلك بالكارثة الإقليمية A Regional Catastrophe. نعود هنا لتحديد بؤرة تركيز هذه الدراسة وهى المتمثلة فى الإجابة الأولية عن الأسئلة المتداخلة والمركبة التالية:

١ – إذا كنا بصدد أزمة ممتدة (أو حرب منخفضة الوتيرة كما تشير إلى ذلك كل المؤشرات)، فهل نحن ندير هذه الأزمة فى إطار سياقها

الأشمل والصحيح «The Largest Contextual Frame »، أو أن مديرى الأزمة عندنا (أو المفترض أنهم كذلك) يتبنون ما يعرف بسيناريو النعامة Ostrich Scenario حيث تكون بؤرة تركيزهم على السياق الأصغر لمباريات التفاوض Localized Context؟ (وهو الأمر الذى يؤدى إلى افتقاد القدرة على إدارة الأزمة الحقيقية ووصول الحالة إلى انزلاق للأزمات Crisis Slide وتصبح أزمة كبرى غير قابلة للإدارة Non Manageable Crisis فى توقيت بعينه).

٢- ماذا عن جزئية الحجج المتبادلة Argumentation Map التى يتضمنها خطاب المعالجة المجتمعية والإعلامية الراهن؟ وما أوجه الخلل القائمة به؟ وبكلمات أخرى ماذا عن الحالات التفاعلية الكاشفة عن مستوى الأداء وما ينبئ به ذلك فى إدارة هذه الأزمة الممتدة؟

٣- ماذا عن متطلبات إدارة عمليات التغيير السلوكى التفاعلى وإدارة عمليات وعوامل مقاومة التغيير Change-Resistance التى هى جوهر إدارة عمليات التفاوض الجماعى Collective Negotiation اللازمة لإدارة الأزمة الممتدة والحرب منخفضة الوتيرة بعنصريها الداخلى على الصعيد المصرى العربى/ الإسلامى والخارجى على صعيد التفاعلات الدولية، خاصة فى إطار أول اتفاقية عالمية تتعلق بحماية صحة الإنسان من أخطار التدخين، وهى الاتفاقية الإطارية لمنع

التدخين The Framework Convention on Tobacco Control FCTC؟[١]

وماذا عن مستويات الأسئلة الأخرى التابعة لهذا السؤال المركزى؟

وسوف أطرح على هذه الندوة إجابات أولية عن السؤالين الأول والثانى، أما السؤال الثالث الذى يحتاج إلى دراسة منفصلة فقد تعاملت معه بتفاصيل كبيرة فى بحث سابق لى قدمته فى المؤتمر الدولى الأول لعلوم اللغة واللغويات الذى انعقد فى جامعة أكسفورد فى إنجلترا فى يوليو ٢٠٠٤م[٢]، والذى قمت بتحويل مادته العلمية إلى مادة تدريبية للتفاوض الجماعى حينما تم

---

(١) استمرت المفاوضات المكثفة لمدة أربعة أعوام متتالية ووصلت فى نهاية المطاف إلى صياغة وتوقيع أول اتفاقية عالمية تتعلق بحماية صحة الإنسان عبر العالم كله من أخطار التدخين التى أصبحت معروفة بخطورتها على الإنسان والبيئة معًا، ووافقت عليها بالإجماع ١٩٢ دولة، ثم بدأت بعد ذلك توقيعها للتصديق، ولقد وقعت مصر عليها فى ١٧ يونيو ٢٠٠٢م ومن بين ما تقضى به الاتفاقية هو أن تتخذ كل دول العالم الموقعة والمصدقة على الاتفاقية كافة الإجراءات الفعلية التى يتأكد معها منع أضرار ومخاطر التدخين الكبرى، بما فى ذلك منع الإعلانات عن التبغ فى جميع وسائل الإعلام، ومنع الاستعانة بشركات التدخين فى تمويل الأنشطة الرياضية والاجتماعية والخيرية، على أن تكتب على علب السجائر الآثار المدمرة للتدخين بحيث تحتل نصف مساحة العلبة على الأقل، وليست عبارة «التدخين ضار جدًا بالصحة» فقط كما تقضى الاتفاقية برفع سعر الضريبة على منتجات التبغ كخطوة للتقليل من التدخين وتقضى بحظر التدخين فى الأماكن العامة والمغلقة وكافة وسائل المواصلات، وأهم ما فى هذه الاتفاقية أنها تحتاج إلى عمليات مكثفة أسميها «التفاوض الجماعى البَعْدِى» أى بعد أن تمَّ إقرار وصياغة بنودها.

(٢) تمَّ تقديم البحث التالى باللغة الإنجليزية:

Hassan M. Wageih, Collectiv Negotiation, NLP & Cross-Cultural Communication: Analysis of Discourse Files of Change-Risistance in Dealing with Smoking Problems, A Study Presented at Oxford University. The first International Conference on Language & Linguistics, Oxford Center for Islamic Studies 30 July 2004.

توجيه الدعوة لي لتقديمها لـ«منظمة الصحة العالمية» ممثلة في مكتبها الإقليمي بالقاهرة[1].

من هنا نتناول السؤال الأول وهو:

١- إذا كنا بصدد أزمة ممتدة (أو حرب منخفضة الوتيرة كما تشير إلى ذلك كل المؤشرات)، فهل نحن ندير هذه الأزمة في إطار سياقها الأشمل والصحيح «The Largest Contextual Frame»، أو أن مديري الأزمة عندنا (أو المفترض أنهم كذلك) يتبنون ما يعرف بسيناريو النعامة Ostrich Scenario حيث تكون بؤرة تركيزهم على السياق الأصغر لمباريات التفاوض «The Localized Context»؟

(وهو الأمر الذي يؤدي إلى افتقاد القدرة على إدارة الأزمة الحقيقية ووصول الحالة إلى انزلاق للأزمات Crisis Slide وتصبح أزمة كبرى غير قابلة للإدارة Non Manageable Crisis).

وللإجابة عن هذا السؤال يتعين علينا أولاً أن نرصد تلك العناصر أو السمات التفصيلية التي من شأنها أن تتفاقم معها الأزمات ويصعب إدارتها، حينما يتجاهلها أو يخفق في التعرف عليها وإدراكها مدير هذه الأزمة أو تلك. وسوف نوضح كيف جسدت تفاعلات هذه الدراسة مثل هذه العناصر أو السمات بعد رصدها.

(١) تم تقديم مادة هذا البحث العلمية في إطار مادة تدريبية للمعنيين بمقاومة وحظر التدخين وتنفيذ بنود اتفاقية منع انتشار التبغ، وذلك في المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية بالقاهرة في الفترة من ١٢ - ١٣ أكتوبر ٢٠٠٤م.

فخ افتقاد القدرة على إدارة الأزمات الممتدة وتفاقمها: فخ حرب التدخين كمثال سمات/ عناصر تفاقم الأزمات وانفلاتها أو استعصائها على الإدارة الرشيدة خاصة فى موضوع ملف أشكال الإدمان والتدخين:

فيما يلى نقدم رصدًا لما نعتبره مصدرًا لتفاقم وفشل إدارة الأزمات العديدة فى واقعنا العربى مع كل الأسف على أصعدة عديدة نراها متجسدة بشكل صارخ فى إدارة أزمة/ حرب الإدمان والتدخين وتتمثل فى:

١- الجمود الذهنى والتركيز على جزئيات أقل أهمية وترك الإمساك بخيوط الأزمة الاستراتيجية والمحورية فى خضم التفاوض لإدارة الأزمات.

٢- وقوع المفاوض مدير الأزمة فى فخ التأطير الخاطئ Wrong Framing والاستغراق فى المسميات الخاطئة والتلاعب بالألفاظ المراوغة ـ غير المسئولة ـ والبعيدة عن واقع الأمر، دون استيعاب المستجدات التى تحدث على الأصعدة المختلفة وخاصة الدولية.

٣- افتقاد المفاوض/ مدير الأزمة إلى رؤية الأولويات Priorities بشكل دقيق أو تحديد أولويات لا تتناسب مع الموقف.

٤- اتخاذ المفاوض/ مدير الأزمة القرار المعاكس أو افتقاد اتخاذ الفعل المناسب مع الموقف فى الأزمات الممتدة Course of Action وفهم حدود الوقت والتوقيت الملائم Role of time قبل أن تتفاقم الأوضاع بما لا يمكن معه إدارة الأزمة فى الواقع، فتترك الأمور لعواقب عدم إدارة واستباق الأزمات.

٥- الوقوع في فخ رد الفعل المزدوج السلبي Double Actions، أي اتخاذ إجراءات معينة ووجود واقع أو إجراءات مخالفة مما «يشنج» الأمور فلا يتم أى حسم لها.

٦- الوصول إلى حالة عدم وجود أى رد فعل وتجاهل للأزمة وكأنها لم تحدث، أو انتهاج ما يعرف بسيناريو النعامة التى تضع رأسها في الرمال عند المخاطر ظنًا منها أنها تعاملت مع تلك المخاطر بهذا الأسلوب.

ويعد رصد سمات تفاقم الأزمة أعلاه نؤكد أننا بصدد إدارة «كارثة» من جراء المعدل الخطير والمتزايد للتدخين في مصر، وأن هذه السمات منطبقة من خلال ما ورد في الجزء الأول (أولاً) عن حجم المشكلة في بداية الدراسة وفيما يلى تحليل لحالات عاكسة لأنماط الحجج وأوجه الخلل الكبير بها كما وردت في عينات ممثلة من الخطاب المجتمعي والإعلامي.

رابعًا: حالات تفاعلية تطبيقية:

الحالة رقم ١: تحليل لحالة تحقيق صحفى عن مبيعات الشركة الوطنية للدخان، حيث نركز على توضيح سمات تفاقم الأزمة التالية:

١- ترك الإمساك بخيوط الأزمة الاستراتيجية والحقيقية، والتعامل التجزيئى مع جزئيات تزيد من استفحال الأزمة واتخاذ القرار المعاكس.

٢- الاستخدام المتلاعب للمصطلحات ولغة المراوغة الساذجة.

وهذه الحالة تستند إلى قراءة تحليلية لمادة تحقيق إخبارى على شكل لقاء مع السيد رئيس هذه الشركة الوطنية للدخان وفيما يلى عناصر هذا التحليل:

١- سمة افتقاد أو ترك الإمساك بخيوط الأزمة الاستراتيجية والحقيقية والتعامل مع جزئيات تزيد من استفحال الأزمة واتخاذ القرار المعاكس:

فالحجة «الخاطئة» التى تُساق فى المجتمع المصرى، ومن قِبَل بعض الاقتصاديين كذلك، تتمثل فى أن الشركة الشرقية للدخان تحقق دخلاً معتدلاً ومعقولاً للاقتصاد الوطنى، وهنا ينظر هؤلاء إلى موقع أقدامهم فقط دون النظر للمليارات المضاعفة التى ينفقها المصريون على علاجهم وخسارتهم الفادحة ماديًا وبشريًا من جراء إدمان التدخين... وهى المشار إليها بالأرقام فى أولاً فى هذه الدراسة عن «حجم المشكلة» وهى أضعاف ما يدخل من دخل من تجارة السجائر أو تجارة المرض والموت هذه. وهنا يرد تساؤل: لماذا لا يتم تغيير نشاط هذه الشركة، خاصة وأن المعاهدة الإطارية لمنع التدخين تتضمن فى نصوص موادها مواد خاصة بتمويل تغيير النشاط من الدخان إلى نشاط إيجابى آخر؟

فالتحقيق يعكس فى الواقع حقائق على الأرض تفيد التركيز فقط على النظرة التجزيئية الخطيرة التى تتضمن مبالغات غير علمية بالمرة حيث يقول السيد مدير الشركة: «إن الشركة تنتج سجائر ذات فلتر يحتوى على الكربون النشط للتقليل من أخطار التدخين..» ويقال إنه «لحماية المدخنين» وهنا نسأل أين «حق غير المدخن» الذى ليس لديه «فلتر» حين يسحب المدخن الدخان المدمر للصحة والبيئة ويلفظ أسوأ السموم فى وجه ورئة وعين غير المدخن... فلا اعتبار لحق غير المدخنين... ولا حماية حقيقية لأى مدخن يدعى التحقيق أن هناك فلترًا للمستهلك الغنى من الأصناف الفاخرة وفلترًا آخر

للمستهلك الفقير، حيث يذكر: «أننا نحرص دائمًا على أن يكون لأعمالنا بُعْدٌ قومي ونرى أن استفادة فئات محدودى الدخل تستحق التمتع بإمكانية شراء أصناف أقل ضررًا».

عن أى بُعْدٍ قومى نتحدث؟!

إنهم يتحدثون عن الحجج القومية الوهمية القائلة بالحفاظ على المدخنين المصريين والاستحواذ عليهم بالدخان المنتج مصريًا بدلاً من أن يقعوا ضحية منتجات سجائر الشركات الدولية الأخرى!!! وهذا هو عين النظرة التجزيئية التى تؤدى إلى استفحال الأزمات وأزمة أو كارثة التدخين هنا، والحجة التى ينبغى تبنيها هى منع التدخين بتغيير نشاط الشركة المصرية وكذلك بمنع السوق السوداء واستهداف الشركات الدولية لنا بالامتناع عن التدخين، أى باتخاذ موقف كالذى حدث فى نيوزيلاندا حينما احتفلت بآخر عقب سيجارة ليصبح التدخين من التاريخ المنصرم! واتخاذ كل الإجراءات اللازمة لذلك... خاصة أن هذه الشركات قد تركت الأسواق الأمريكية وغيرها ممن امتنعوا عن التدخين لتستهدف الدول النامية، وعلى الدول النامية أن تفعل كل ما بطاقتها لكى لا تكون «مقلب قمامة العالم» فى التدخين وفى الأغذية الفاسدة والمبيدات المسرطنة والأدوية المغشوشة... إلخ.

٢- فخ الاستخدام المتلاعب للمصطلحات ولغة المراوغة الساذجة:

ونرصد فى هذا التحليل ما يلى من تعبيرات ومصطلحات خادعة:

٢-١- «تشجيع التوجه القومى الواعى..!» و«نحرص دائمًا على أن يكون لأعمالنا بعد قومى» و«حماية المدخنين» و«توعية المستهلك بالفلتر الجديد».

... إن مثل هذه التعبيرات لا يمكن أن تكون إلا مضللة ولا يمكن أن يكون التوجه بإنتاج السجائر المدمرة للصحة وللبيئة عملاً من «أعمال الوعى» أو «التوجه القومى». فالوعى القومى الحقيقى وليس الزائف هو أن يتم تحويل نشاط هذه الشركة إلى نشاط آخر وهذا ممكن بكل تأكيد بدلاً من التوجه بالمزيد من الإنتاج لملاحقة الحاجة فى السوق المصرى الذى أثبتت الإحصائيات التى قدمتها منظمة الصحة العالمية بأن هناك ٢٥ مدخنًا جديدًا فى مصر كل ساعة، فهل من الوعى القومى أن تساهم فى الحفاظ على هذا المعدل الخطير وزيادته؟!!

٢-٢- ورد فى التحقيق: «أعتقد أن إعلام المستهلك «للسجائر» بطرح منتجات أقل ضررًا يجب إدراجه تحت مسمى «التوعية» وليس تحت مسمى «إعلان». ونعلق هنا بأن هذا التلاعب بالألفاظ يزيد من محاولات استهداف المستهلكين وزيادتهم وقد حدث بالفعل بعوامل متعددة أشرنا إليها سابقًا. فأية توعية نتحدث عنها؟! وهل هذا يعتبر التفافًا على «الإعلان الممنوع» بكل قوانين اليوم؟! إن ما ورد من أمثلة فى هذه الحالة ليمثل إجابة نوعية محددة توضح كيف تتجسد سمات استفحال الأزمة وتفاقمها بدلاً من حلها والتعامل العلمى مع جذور هذه المشكلة التى تصل إلى ما أسميه بحالة حرب منخفضة الوتيرة. (تتضمن ملاحق الدراسة نص التحقيق الإخبارى الذى قدمنا له تحليلاً فى هذه الحالة).

فخ التدخين فى ملاعب الكرة:

الحالة رقم ٢: الرياضيون المدخنون!!

حالة الفعل المزدوج والمصاحبة الإيجابية المفتعلة:

إن أخطر أنماط التسلط الموجه هو ذلك الكذب المتسلط بزرع صورة إيجابية غير حقيقية وفرضها فرضًا من خلال الإعلام المتسلط، وفى سياق دراستنا هنا يتم توظيف هذا الإعلام الموجه المتسلط لصالح «صورة المدخن» أى زرع «صورة إيجابية للمدخن»!! وكأنه بحاجة إلى المزيد من «البرستيج» والوجاهة الرسمية والاجتماعية، وهو الأمر الذى يصبح مرفوضًا أكثر فأكثر عندما ينتقل هذا الوضع المؤسف لمدربى ولاعبى كرة القدم أو لأى رياضى، راجع الصورة التى وردت فى الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم المصرية بتاريخ ١٦/٢/٢٠٠٢م.

فخ صورة «الوجاهة الاجتماعية الوهمى» التى هى العكس تمامًا من ذلك:

مثال آخر عن الصور الذهنية المصاحبة لفعل التدخين وحالة الفعل المزدوج المفاقم لأزمة التدخين واستفحالها (وذلك مع احترامنا الكامل لشخص أى مدخن، إلا أن الكارثة فى فعل التدخين هى إيجاد مصاحبة نفسية إيجابية - خادعة - ولا يصح أن تزرع له فى إعلامنا والكارثة الكبرى عندما يتباهى بذلك من يشتغل بالمجال الرياضى العام!!).

أما فى المجال السياسى فهذا الأمر كان ولا يزال شائعًا مع عدد من القادة السياسيين.



الرئيس جمال عبد الناصر ومعه بعض رجال الثورة عام ١٩٦٤.

الحالة رقم ٣: التأثيرات الجانبية «الإيجابية» المخادعة وتجنب اللغة والصور المؤثرة والمنفرة والمعبرة عن حقيقة الدمار الذى يتسبب فيه التدخين:

بدلاً من الإقدام بخطوات فعالة لمنع التدخين بشكل حاسم تظل الأمور فى غاية التسيب والتناقض، ففى قطارات السكك الحديدية يمنعون التدخين فى عربات القطار، ولكن عند تقاطع العربات يقف عشرات المدخنين ليملئوا كل القطار بسموم لا يعوض عن أضرارها أى شيء فى العالم، فهم يقومون بنفث هذه السموم فى رئة غير المدخنين دون أى رادع حقيقى لهذا الفعل الذى ينبغى تجريمه وتوصيفه «بالاعتداء» كما يحدث فى الدول المتقدمة. وفى نوادى مصر كَمٌ لا يحصى من «طفايات السجائر» التى أصبح وجودها «دليل إدانة» أو «أداة جريمة» Criminal Device فى أى مكان فى الدول الحاسمة فى منع التدخين، وبالتالى يمتلئ هواء أنديتنا كذلك بتلوث من دخان السجائر، ولا يمكن الاستمرار فى التهاون والسلبية معه. ويأتى فى إطار سمة التسيب والتأثيرات السلبية هذه ترك علب السجائر «بأناقتها وشياكتها» عندنا فى الوقت الذى وضعت فيه الدولة المتعاملة بحسم صورًا مقززة تعبر عن بشاعة التدخين وأضراره مثل «قلب مفتوح» أو «عرق يخرج منه كم كبير من الدهون التى تؤدى إلى انسداد الشرايين بسبب التدخين والتدخين السلبى كذلك».

وفى هذا الإطار تمت مقاومة اقتراح د. نصر فريد واصل مفتى مصر كتابة عبارة «التدخين حرام شرعًا» على علب السجائر، حيث أكد فى فتواه أن التدخين حرام شرعًا؛ لأنه يضر بصحة الإنسان. وإعلاء هذا البعد نراه مهمًا ضمن حزمة إجراءات متعددة لابد وأن يتم

تنفيذها بحسم إذا أردنا استعادة الإمساك بالخيوط الصحيحة للأزمة أو الكارثة التى أصبحنا بصددها، وأهمها كذلك منع الشيشة فى الفنادق والأندية، خاصة بعد أن انتشرت «المقاهى العشوائية» فى أرقى أحياء مصر لتضخ على المواطنين كمًّا كبيرًا من السموم...

وفيما يلى أمثلة من الملصقات على علب السجائر فى الدولة الحاسمة فى التعامل مع كارثة التدخين.



يحتوى الدخان على البنزين، والنتروزامينات، والفورمالديهايد، وسيانيد الهيدروجين.



التدخين يؤدى إلى انسداد الشرايين، ويتسبب فى النوبات القلبية والسكتات.



التدخين يسبب سرطان الرئة المميت.



التدخين مسبب قوى للإدمان فلا تشرع فيه.



خامسا: سيناريوهات إدارة حالات الإدمان كما تجسدها أزمة/ حرب التدخين:

كما أوضحنا في مقدمة هذه الدراسة أن سمات المنظور التفاوضى الذى نتبناه في تحليل مشكلة الإدمان أو حرب التدخين هو رسم السيناريوهات المستقبلية ورصد حججها الرئيسية من أجل التدخل الإيجابى لتفعيل أفضل هذه السيناريوهات من ناحية واحتواء وإحباط أسوئها بوسائل التفاوض الجماعى الذى يدعم سياسات معينة ولا يدعم أخرى، من هنا نرصد ثلاثة سيناريوهات رئيسية من خلال الشكل التالي:



عن الحجج وخلفيات سيناريو التدخل الإيجابى والاستباقى:

لا شك أن الإحصائيات المقدمة فى هذه الدراسات قد أوضحت ضخامة وحجم المشكلة أو حرب الإدمان بأشكاله المتعددة والتدخين كالنطاق الأوسع لبنية الإدمان وزواياها المتعددة وكيف تأخذ شكل التفاقم المخيف على المستوى المصرى والعربى والإقليمى والدولى.

إن طبيعة القرارات المتخذة فى التصدى للإدمان والتدخين كنطاق أوسع للإدمان تعرف فى أدبيات عملية صناعة القرارات واتخاذها بالقرارات ذات الأساس المبنى على تكييف وترشيد السلوك من خلال الإعلام فى المقام الأول Media & Behavior Modification-Based Decisions أى تلك القرارات التى تتخذ وينبغى أن يتبعها تنفيذ حملات ممتدة لتقويم سلوك التدخين وليس مجرد الحديث عن أضراره فقط كأن نرى تلك اللوحات المنتشرة جدًا فى الكثير من الشوارع العربية، حين لا نرى سوى «جون» يتحدث فيها إلى «بوب» وكلاهما فى لباس رعاة البقر الكاوبوى الأمريكانى ووراءهما خلفية لمناظر الطبيعة بولاية أمريكية كأريزونا مثلاً... ليقول له بوب «لقد أصبت بالسرطان» فينظر المدخن عندنا لهذه اللوحة وغالبًا لا تحدث له الإفاقة والانتباه المطلوب تحقيقه، وربما علق عليها آخر كما فى فيلم للفنان/ جميل راتب وهو فيلم «الكيف» عندما واجهه الفنان/ يحيى الفخرانى قائلاً: «أنت مجرم هذا الكيف سيقتل الناس ويصيبهم بأبشع الأمراض» فأجابه قائلاً: «ده بره عندهم بس، إنما احنا فراعنة، الحاجات دى مش بتأثر فينا!!». ولقد تناولنا بالتفصيل فى الجزء الرابع عينة من الأمثلة الباهتة وضعف التوجه الإعلامى عندنا الذى ينبغى أن يصاحب قرارات منع التدخين

لكى تتحقق بالفعل الآثار المرجوة منها وتصب أهدافها لصالح المجتمع وإفاقته من هذا الخطر الجسيم؛ لأن العلاج الأفضل والبديل عن التفاوض مع شركات التبغ وغيرها أو مقاضاتها مثلاً بعد أن تكون الكوارث قد حلت بنا... هو أن يكون الفرد محصنًا فيمتنع أساسًا فتسهل المهمة على الجميع ولصالح الجميع... ولكن ينبغى أن أعترف هنا أنها مهمة بالغة الصعوبة، ولكنها تحتاج إلى استراتيجيات تفاوضية جماعية على درجة عالية من التوظيف الماهر والملح على آذان وأسماع الناس فى إطار حزمة أو منظومة متكاملة من الإجراءات لا تتصدرها الأولويات الخطأ كالبداية برفع أسعار السجائر أو من خلال استمرار وشيوع الاستراتيجية التفاوضية السلبية التى أسميها «التشحيم الاجتماعى»، والتى تتجاهل حقوق غير المدخن والتساهل مع المدخن تجاه هذه الحقوق، والتى قدمت لها أمثلة متعددة فى ثنايا الدراسة وفى الجزء الرابع خاصة.

إذا كان الواقع العربى/ المصرى يعانى أزمات فى الحوار والتواصل الجماعى ومشكلة بناء الفريق الواحد والتعامل الفعال مع المشاكل دون سلبيات التناول المتعددة التى تتجسد كثيرًا فى تفاعلات القطر العربى الواحد، وعلى مستوى الأقطار العربية المتعددة مع بعضها وبشكل مزمن وهو ما تصديت له فى عدة دراسات سابقة لى فى إطار تناول أزمات سياسية واجتماعية مزمنة على وجه الخصوص[1]. وهنا أرى أن توحيد

---

(١) راجع على سبيل المثال:

١- حسن محمد وجيه ١٩٩١م. أزمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى الوطن العربى، دار سعاد الصباح، الكويت.

٢- حسن محمد وجيه ١٩٩٤م، مقدمة فى علم التفاوض الاجتماعى والسياسى، مرجع سابق.

٣- حسن محمد وجيه ١٩٩٩م، سيناريوهات الحرب والسلام، مرجع سابق.

الجهود العربية للتعامل مع مشكلة الإدمان أو حرب التدخين كنطاق أوسع لها، والتى أرى أنه يمكن تعريفها وأساليب التعامل الفعال معها (على نحو أيسر بكثير من المشاكل السياسية المزمنة ذات العوامل Variables الكثيرة التى عادة ما يصعب السيطرة عليها وتحديد أبعادها كما أوضحنا فى هذه الدراسة ـ ليمثل فرصة حيوية ومهمة لكى نجرب أنفسنا ونحن نسعى لتفعيل السيناريو الأفضل س١ فنؤكد على ما يلى:

خطوات إدارة أزمة حرب الدخان الممتدة:

١- تفعيل أسلوب التفاوض الجماعى الفعال:

فهذه المشكلة التى يتعين التصدى لها على عدة مستويات هى فرصة أخرى كى نجرب إدارة العمل الجماعى المصرى/ العربى الفعال من خلال فرق العمل وأساليب إقامة شبكة التحرك الجماعى المؤثر Networking ـ المفتقدة إلى حد كبير ـ بعيدًا عن سلبيات التفاعلات التقليدية والراهنة.

٢- مراعاة حقوق الجميع واسترداد حقوق غير المدخنين المستباحة من خلال مباراة لصالح الجميع:

إن مشكلة أو حرب التدخين مشكلة ضخمة لتعد من أكبر المشاكل اليومية الصحية والمعنوية لغير المدخنين، خاصة الذين يستباح هواؤهم ورئاتهم يوميًا، وهم والحمد لله وإلى الآن الأكثر عددًا ـ أى الغالبية ديمقراطيًا ـ ومن حقهم التكاتف للتصدى لهذه الحرب ووقفها لصالح الجميع (مدخن وغير مدخن).

٣- وقف إهدار أهم مصادر التنمية:

إنها حرب تستهدف أهم مقومات التنمية وهى صحة المواطن (مدخن وغير مدخن)، ولذلك تستحق تركيز الجهد على الإدارة والخروج خارج نطاق تأثيرات هذه الحرب من خلال التفاوض الجماعى الفعال المؤدى إلى السيطرة على ومنع التدخين.

٤- وقف استباحة المنطقة العربية فى بعد حيوى:

إنها مشكلة غير قطرية بل عربية إسلامية وعالمية، كذلك أصبحت تستهدف المنطقة من خلال محاولات دوائر بعينها عن قصد أو بمؤامرة أو عن غير قصد ـ لسهولة استباحتها ـ لجعلها مقلبًا لمصائب العالم من أوبئة إلى أغذية فاسدة إلى دخان إلى نسب خطيرة من مواد الإدمان وتدمير الصحة لجعلها منطقة نفايات وقمامة وسلبيات Dumping Area كما سبق أن أوضحنا، وهو الأمر الذى ينبغى التنبه إليه ومقاومته بكل الجهود الخلاقة.

٥- إن إدارة هذه المشكلة قد تكون الفرصة لإسقاط مقولة مثل «نبذ الخلافات»!!

إن قاموس التفاعلات الثقافية عندنا مفعم بالكثير من العبارات العديدة التى تعكس أسباب الخلل التواصلى الراهن فى أزمات عديدة، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر عبارة «نبذ الخلافات»[١]..

فعلى الرغم من أنها عبارة جميلة وجليلة كذلك، وهى مطلب دينى واجتماعى فى جوهرها، ولكنها أصبحت تستخدم ليل نهار بأسلوب «إن وأخواتها» وعقلية تسجيل المواقف فى مضبطة الحوار اليومى

(١) للتفاصيل بخصوص هذا البُعْد فى لغة تفاعلات الواقع الثقافى العربى، راجع لكاتب السطور مقالاً بعنوان «نحو قمة عاجلة «مفردات» حدث القمة و«ثقافة نبذ الخلافات»!!، الأهرام ٢٠٠٤/٤/١م.

من الكثيرين من المسئولين وغير المسئولين.. بطريقة الينبغيات، أى عليك أو عليكم بكذا وكذا وانتهى الأمر. فالمطلوب ليس نبذ الخلافات بل الاعتراف بأنها حقيقة إنسانية بحتة كامنة فى النفس البشرية، فالاختلافات توجد بين أفراد الأسرة الواحدة فما بالنا بين الأسر وبعضها وبين عناصر المجتمع وتياراته المتعددة وحتى بين الدول وبعضها... فالأصوب إذن أن نقول علينا «بإدارة الاختلافات» لأن مقولة نبذ الخلافات تتجاهل حقيقة أمر وجود اختلافات كحقيقة إنسانية، ولا يمكن تنفيذ الدعوة «الينبغية» بنبذها بمجرد نطقها فى هذا المجلس أو هذا الحوار، ولكن المطلوب إدارة الاختلافات بشكل وأسلوب علمى وفعَّال، فعندما تكون وفى سياقنا هذا أجندة لنوعية كبيرة من المدخنين فى أن يشعل أحدهم سيجارته دون أى سابق إنذار لتلوث الهواء فهو يعتدى بذلك على رئة غير المدخن بأسلوب سافر ولا يمكن قبوله، وحين يطلب منه غير المدخن أن يتوقف عن تلويث الهواء الذى هو ملك للجميع فإذا بنوعية من المدخنين تعتبر أنه قد تم الاعتداء على حريتهم وخاصة لو لم يكن يوجد فى هذا المكان لوحة «ممنوع التدخين»، وعندئذ يتصاعد الموقف إلى مستوى التنازع الواضح، فيتدخل أصحاب «المساعى الحميدة» لا لينصفوا غير المدخن، وإنما تجدهم يقولون «لا داعى للخلاف والأمور لا تستدعى كل هذا أو «معلهش خلينا نستحمل بعض!!» وهى نفس الدعوة لمجرد «نبذ الخلافات» حتى ولو كانت هذه الاختلافات فى مثل هذا السياق مشروعة تمامًا ولا يتعين «نبذها» بل إدارتها بما يتطلبه ذلك من مراعاة حقوق وتبعات هذه الخلافات المشروعة

بأسلوب موضوعى يعطى كل ذى حق حقه بدلاً من توظيف أفعال «المطاوعة» فى النحو العربى فى غير محلها كأن يقول القائل: «طالبته بنبذ الخلافات فنبذها!».

٦- إن إدارة هذه المشكلة قد تكون الفرصة إلى الحد من ظاهرة تحويل الواقع العربى إلى معسكرات متخندقة... حيث من العبث الشديد هنا تحويل مشكلة التدخين إلى إطار «متحررين» فى مقابل «متزمتين»[1]...!!

فى حوار لى مع المدخن من تلك الحوارات التى تدخل فى باب «اللامعقول» وهى كثيرة مع الأسف، ذكر لى هذا المدخن الذى كان يدير أحد المشروعات بمؤسسة عربية عند طلبى منه منع التدخين فى أثناء العمل فى مكان مغلق، فكانت إجابته: «ماذا بك يا دكتور... أنت راجل تعرف أنى ليبرالى ولا يمكن أن أحجر على حرية أحد، ولاً احنا هنعمل زى المتزمتين؟! ويعدين أنت راجل متفتح!» والمشكلة هنا هى عودة لثنائيات الحوار الاختزالى فى كثير من تفاعلات الواقع العربى: «ليبرالى» فى مواجهة «انغلاقى»، أو «دينى» فى مواجهة «علمانى»، أو «حكومة» و«معارضة»... إلى آخره من كم كبير من تلك الثنائيات المتناحرة عادة. ومن العبث أن تتحول مسألة حقوق غير المدخنين إلى ممارسات المدخنين لتدخل تحت عباءة مثل هذه الثنائيات الاختزالية التى تقحم إقحامًا من قبل التيارات الفاعلة فى الواقع العربى فى الكثير من تفاعلاتنا اللاحوارية واللامعقولية.

(١) راجع تحقيقًا إخباريًا يتسم بلغة تهكمية تعمق فكر الثنائيات المطلقة والخاطئة فى واقع التفاعلات العربية بعنوان «مطوعون يأمرون بالصلاة وينهون عن التدخين فى شوارع القاهرة»، صوت الأمة ٢٠٠٣/٦/٩م. (نص التحقيق فى ملاحق الدراسة).

٧- إن الإدارة الناجحة لهذه المشكلة قد تحدث إدراكًا ورد فعل أكثر إيجابية للتعامل مع مرض التسلط والنظرة الأحادية والنرجسية المتمثلة فى شعار «أنا أولاً... ثم بعد ذلك أنا أيضاً!!».

فى حوار من حوارات اللامعقول فى واقعنا العربى دار الحديث بين رئيس فى مكان العمل مع أحد مرءوسيه، حيث يدخن الأول سيجارة تلو الأخرى بشكل مزعج للمرءوس الذى اضطر مع كثافة الدخان المتدفق إلى عينيه ورئتيه بلا رحمة أو شفقة من المدخن أن يقول له: «أنا مضطر أن أقول لسيادتك إننى منزعج من دخان السجائر ولا أقدر أن أحتمل المكوث مع سيادتك لفترة أطول مما أمضينا...».

فأجابه قائلاً: «السيجارة هذه هى غرامى... هل تعرف معنى كلمة «غرام»؟! غرام تعنى الغرامة، وأنا ليس عندى مانع من أن تغرمنى السيجارة ما تغرمنى، مهما قالوا عن السجائر لا يمكننى الاستغناء عنها، إنها الصديق الحميم ولا سبيل للتوقف عن هذا الغرام والصداقة».

انتهى الحوار وعلى الرغم مما يبدو عليه من «استظراف» رئيس العمل أو جرأة غير تقليدية فى واقعنا من مرءوس، فإن هناك العديد من المواقف الأخرى التى تحدث بين رئيس ومرءوس فى موقع العمل، حيث يدخن الأول ويكون غير المدخن من المتضررين، ولكنه لا يملك أى مستوى من الجرأة على التحدث مع رئيسه وتوجيه أى رسالة له - مباشرة أو غير مباشرة - عن أن تدخينه السجائر يضايقه أو يسبب له أعمق الأذى! وفى كلا الموقفين؛ أى فى حالة الجرأة فى الحوار أو فى توظيف الصمت، يظل أمر التسلط ذو النظرة الأحادية

غير المراعية للآخرين وحقوقهم من الأمور التى يتعين علينا حسمها من خلال حملات التوعية وتعميق منطق حقوق الآخرين فى إطار منظومة متكاملة لمكافحة التدخين ومواجهتها بشكل جماعى يحد من وجودها وفرض منطقها اللاحوارى وهو أمر إذا ما نجحنا فى محاصرته وإدانته على مستوى جماعى اجتماعى لحقق أهدافًا مطلوبة ليس فى موضوع التدخين وحده بل فى قضايا وأمور أخرى فى غاية الأهمية، فلا ننسى أن التسلط أو النظرة الأحادية هى فى صميم وجوهر معظم مشاكلنا وإدارتنا للأعمال السبب فى فجوة الإدارة Management Gap والتى يمثل وجودها دون مواجهة إيجابية أحد أسباب التخلف التى ينبغى القضاء عليها إذا ما أردنا التحرك إلى الأمام. إن تفعيل السيناريو الأفضل س١ يتطلب ضمن ما يتطلبه التعامل إيجابيًا من خلال استراتيجيات ومواد إعلامية وتربوية ذكية ومبتكرة مع جذور عوائق التواصل الإيجابى المذكورة آنفًا فى ثنايا الدراسة. كما أن التعامل مع جذور هذه العوائق بشكل فعال وناجح لن يكون مردوده فقط على محاصرة واحتواء مشكلة التدخين/ الإدمان، بل سيكون له مردوده على قضايا أخرى ترتبط بمعضلة ومقاومة التغيير إيجابيًا والممثلة لمشكلة هيكلية وجذرية فى تفاعلات الواقع العربى عمومًا.

■ ماذا عن السيناريو البينى س٢ والسيناريو الأسوأ س٣:

المقصود بالسيناريو البينى هنا هو أن تتعادل جهود مكافحة التدخين/ الإدمان مع عوامل التفاقم البيئى والصحى المدمرة الناتجة عن التدخين وعوامله المتعددة أو تقترب نتائجها. أما

السيناريو الأسوأ فهو ما أفادت به وثائق منظمة الصحة العالمية والاتحاد الدولى لمكافحة السل وأمراض الرئة، وجمعيات حقوق غير المدخنين والمؤتمر العالمى للتبغ والمنظمة الدولية للطيران المدنى التى كانت أول من يعمل على منع التدخين على رحلات الركاب الدولية، وعشرات الدراسات عبر دول العالم المختلفة أفادت، أيضًا، أن مشكلة التدخين اليوم هى أخطر مشكلة صحية فى العالم، ولقد أشرنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة للكثير من الإحصائيات التى تؤكد أنه إذا لم يتم التدخل الإيجابى فى دول العالم المختلفة - وخاصة دول العالم الثالث - للحد من مخاطر التدخين، فسيتحول الأمر إلى أمراض وبائية خطيرة ناتجة عن التدخين كما سينتج تلوث بيئى خطير، وأن دول العالم الثالث هى الأكثر تعرضًا للمخاطر، نظرًا إلى أن الدول المتقدمة والساعية للتقدم تتخذ إجراءات بشكل مطرد وصارم نحو الحد من مخاطر التدخين.

هل تتحول منطقتنا إلى مسرح لدفن النفاية وبؤرة لمصانع الدخان وكل صور التلوث والقمامة؟!

دلالات السيناريو الأسوأ فيما يتعلق بمنطقتنا...!

أوضحنا فيما سبق حجم المخاطر الكبرى على منطقتنا فيما يتعلق بمخاطر الإدمان/ التدخين ووجوب التدخل الإيجابى فى هذا الصدد.

أما دلالات تلامس الوضع الراهن مع عتبات السيناريو الأسوأ فتتمثل فيما يلى:

١- إن الأرقام مخيفة عن الآثار المدمرة للإدمان/ التدخين على مجتمعاتنا، لا سيما أن الخسائر أصبحت تتعدى الجوانب الاقتصادية التى عادة ما تقاس بها كثير من الأمور إلى أهم شيء فى بناء المجتمع وهو الإنسان نفسه، فمصر أكبر الدول العربية سكانًا ارتفع عدد المدخنين بها - حسب الإحصاءات الأخيرة لوزارة الصحة والسكان - إلى ثلاثة عشر مليون مدخن يمثلون ما نسبته ٢١٪ من عدد السكان، يدخنون حوالى ثمانين مليار سيجارة سنويًا ويكبدون الدولة خسائر سنوية تقدر بحوالى ثلاثة مليارات جنيه مصرى تنفق على علاجهم حيث يعانى ٢٦٪ من المصريين من أمراض القلب المختلفة التى يتسبب التدخين فى أغلبها، ويقتطع التدخين نسبة متوسطها ٥٪ من الدخل العام للأسرة المصرية، حيث ينفق على التدخين الذى يتسبب أيضًا فى تسميم الجو العام الذى يوجد به المدخن بعدما أشارت تقارير طبية دولية عديدة إلى أن السيجارة الواحدة بها ما يزيد على ستة آلاف مادة سامة وستون مادة تؤدى للإصابة بالسرطان والسكتة الدماغية والقلبية وأمراض الجهاز التنفسى، وأن الخطورة الأكبر فى كل هذا أن نسبة المدخنين من صغار السن فى ارتفاع متواصل حيث أثبتت الدراسات التى نشرتها وزارة الصحة المصرية أن ٣٥٪ من طلبة الجامعات المصرية يدخنون وهذه نسبة مزعجة، والأكثر منها رعبًا هو أن عدد المدخنين من المصريين من الأطفال - ما دون سن الخامسة عشرة - يزيدون على نصف مليون مدخن، وهنا مكمن الخطر: أن يتحول ما يقرب من نصف الجيل القادم إلى مدخنين فيكونوا عرضة للإصابة بالأمراض القاتلة وإلى مضاعفة المشكلات

الاقتصادية وزيادة النفقات الصحية على الدولة ليكون الرابح الوحيد فى النهاية هو شركات التبغ الدولية والتجار[1].

٢- إن ما يحدث فى مصر يحدث للأسف في كل الدول العربية الأخرى، فالسعوديون يستهلكون سنويًا سجائر تقدر قيمتها بأكثر من مليار دولار ويكبد المدخنون الدولة هناك خسائر باهظة فى مجال الصحة مما دفع مستشفى الملك فيصل التخصصى، وهو أكبر المستشفيات فى المملكة، إلى أن يقوم برفع دعوى قضائية على شركات التدخين الدولية ومطالبتها بأكثر من عشرة مليارات ريال سعودى كتقدير مبدئى لخسائر المستشفى من جراء الإنفاق على مرضاها من المدخنين، وهذا ما قامت به الحكومة الأمريكية مؤخرًا واستطاعت أن تكسب الدعوى ضد شركات التبغ حيث تخسر الحكومة الأمريكية سنويًا ما يزيد على عشرين مليار دولار تنفقها على مشاكل صحية ناتجة عن التدخين. وقد كشف تحرك مستشفى فيصل التخصصى حقائق كثيرة من بينها أنه ثبت أن شركات السجائر الدولية تسوِّق للأسواق الخليجية والدول النامية سجائر تحتوى على كمية أكبر من القطران والنيكوتين مقارنة بتلك التى تبيعها فى الأسواق الأمريكية مما يعنى أن شركات التبغ تستهدف صحة زبائنها فى دولنا وتهتم بتدميرها بشكل مدبر، فالذى يجعلها تصنع سجائر خاصة لمدخنين فى أمريكا وأوروبا، يجعلها كذلك تصنعها لباقى الدول بنفس المواصفات وبالتالى فإن ما قام به مستشفى الملك فيصل التخصصى ينبغى أن تقوم به وزارات الصحة مجتمعة فى العالم العربى ضد شركات التبغ

(١) أحمد منصور «بلا حدود... تدمير الجيل القادم!!»، جريدة الأسبوع ٨ يناير ٢٠٠٠م.

الأمريكية لا سيما أن المجموعة الأوروبية شرعت هى الأخرى فى مقاضاة أكبر شركتين أمريكيتين منتجتين للسجائر وهما شركتا «فيليب موريس» و«دار جى رينولدن»[1].

٣- إن دولة مثل قطر يزيد عدد المدخنين فيها على ثمانية آلاف مدخن ينفقون سنويًا ٦٥ مليون دولار على السجائر وتنفق الدولة على علاجهم ١٥٠ مليون دولار سنويًا فيما لا يزيد دخلها على الضرائب التى تفرضها على السجائر على ٢٠ مليون دولار فقط سنويًا، هذا حسب إحصائيات نشرها مركز أصدقاء البيئة فى قطر وقد كشف وزير الصحة القطرى د. حجر أحمد حجر فى حوار أجريته معه مؤخرًا عن أن شركات السجائر الأمريكية تمارس ضغوطًا على الدول العربية حتى لا تتخذ الإجراءات الكفيلة بمحاربة التدخين ومحاصرة المدخنين حرصًا على أجيالها القادمة بعد أن فقدوا الأمل فى المدمنين الحاليين للتدخين، وقد رصدت شركات التبغ ٣ مليارات دولار للإنفاق على الإعلانات سنويًا فى المنطقة العربية وحدها، نصيب دولة صغيرة مثل لبنان هو ١٠٠ مليون دولار منها، والمشكلة الأساسية هى أن شركات التبغ تركز على الجيل القادم بعدما ضمنت هذا الجيل...[2].

٤- حالات الانفلات الناتجة عن مستنقع الإدمان والارتباط القوى بين «إدمان التدخين وإدمان المخدرات» والوصول إلى حالات مستعصية على الحل والإدارة والاستغاثة بوزارة الداخلية لإنشاء معتقلات خاصة للإقامة الجبرية للمدمنين...

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

فيما يلى عينات من خطابات الاستغاثة للمواطنين وردت فى الصحف القومية المصرية والعربية وتعبر عن وصول الأمور فى سياقات بعينها إلى حالة الكارثة التى يتعين علينا التدخل ولو المتأخر للغاية للتعامل معها.

العينة رقم ١ وهو ما أسميه بعينات السيناريو الأسوأ، وقد جاءت فى بريد الأهرام بتاريخ ٢٤/١/٢٠٠١م بعنوان «أرجوكم اعتقلوا ولدى!» حيث تذكر الرسالة حالة إدمان حادة لأحد الأبناء حيث فشل الأهل فى التعامل معها وانتهى الأمر بمناشدة موجهة لوزارة الداخلية تقول: «لقد تمنيت مرة أن يموت ابنى فيريح ويستريح...» والسؤال المطروح هو: هل تقوم وزارة الداخلية بإعداد معتقلات خاصة للإقامة الجبرية للمدمنين الذين يشكلون خطرًا على أنفسهم وعلى من حولهم! فمتى تقوم الدولة بواجبها نحو مواجهة هذه الكارثة التى يعانيها عدة ملايين مدمن متعاط فى مصر لايجدون من يمد لهم يد العون بعد أن غرقوا فى مستنقع الإدمان؟! (مرفق فى ملاحق الدراسة نص هذه الرسالة وكذلك رسائل أخرى مماثلة).

خلاصة دراسة «فخ حرب الدخان والإدمان»:

تنبه هذه الدراسة المقدمة من منظور التفاوض وإدارة الأزمات، لأهمية تدافع وحشد كل الجهود الممكنة للخروج من نطاق السيناريو الأسوأ الذى أصبحت كل المؤشرات والإحصائيات تدل على دخولنا لأعتابه، ومن هنا قدمت هذه الدراسة منطلقات وتوصيفات لإدارة أزمة الحرب غير الرسمية والتقليدية التى علينا إدارتها بكل عقلانية وشفافية وجرأة تنطلق من حقائق العلم ومن المقاصد الكبرى للدين.

وهذا المنظور المقدم فى هذه الدراسة مفتقد تمامًا فى دراسات الإدمان السابقة، فإذا نظرنا إلى مرجع مهم وحاشد للأدبيات التى كتبت عن الإدمان من منظور العلوم الاجتماعية المختلفة لدلنا ذلك على هذا الافتقاد (راجع الشكل رقم ٢ فى المرجع المشار إليه والمقدم من البرنامج القومى لمكافحة الإدمان والخاص بتوزيع بحوث ودراسات المخدرات على فروع العلوم الاجتماعية المختلفة، وهذا الشكل موجود فى ملاحق الدراسة)(١).

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾

... والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان..

(١) راجع: ظاهرة المخدرات: دراسة توثيقية للبحوث والدراسات الاجتماعية، ملخص البرنامج القومى لمكافحة الإدمان، القاهرة ٢٠٠٠ ص٧.

ـ الجزء الرابع الملف رقم ٤ ـ

المثال الأول: «فخ الإسلاموفوبيا.. ونور محمد ﷺ»

تهل علينا هذه الأيام ذكرى مولد المصطفى ﷺ الذى أضاء برسالته الأرض نورًا ورحمة وسلامًا وعدلاً، وتمر علينا هذه المناسبة فى ظل وضع عربى إسلامى تتجمع فيه سحب كثيفة للعديد من الصراعات المركبة والممتدة والآخذة فى التداخل والتعقيد والمعضلة التى يتعين على المفاوض العربى إدارتها بفاعلية وحذر تتمثل فى نوعيتين من فخاخ التفاوض (Negotiation TRAPS) النوع الأول ويتمثل فى فخاخ ذات طبيعة سلوكية تتعلق بالأسلوب التفاوضى، والنوع الثانى ويتمثل فى طبيعة موضوعات وملفات التفاوض، والتى أصبحت على قدر كبير من التداخل، فبعد أن كان العقل التفاوضى الغربى يصر على فصل الملفات فى كثير من السياقات كما يتأكد من مقولة جورج بوش الأب فى مرحلة ما سمى «بتحرير الكويت» «لا ربط بين الملفات» NO LINKAGE ولقد ذكر ذلك عندما طلب منه التعامل مع ملف القضية الفلسطينية فى إطار التعامل مع ملف أزمة الخليج الأولى... أما اليوم فهناك من يدير ملفات المنطقة فى حزمة تفاوضية متداخلة (حتى وإن لم تكن مباشرة) وما أدل على ذلك سوى تلك المحاضرة التى قدمها وليم كوانت الخبير الدولى المعروف أخيرًا فى

كلية الاقتصاد بجامعة القاهرة، والتى أظهرت من عنوانها هذا التداخل حيث كان العنوان «إيران ولبنان وفلسطين»... ولكن ما الذى استجد؟! الذى استجد هو طبيعة الصراع بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وغزو العراق وأفغانستان حيث إن الهلع الغربى والتبرير والذرائع تتمثل فى نظرة الخوف من الإسلام كعدو أو إلى «مفهوم الإسلاموفوبيا» الذى تم تركيبه ـ عنوة ـ أو لأسباب بعينها مع مفهوم «صدام الحضارات» ومع منظومة مفاهيم الصراع الأساسية فى ملفات فلسطين ولبنان والعراق وإيران وفى ملفات وضعية الجاليات الإسلامية فى الغرب والشرق وما يستجد، ولذلك كان من المهم والحيوى أن يقوم المفاوض الممثل للواقع العربى الإسلامى بفك الاشتباكات الخاطئة بخصوص هذا المفهوم الملتبس، والذى أصبح «عابرًا» للملفات..

من هنا نحتاج أولاً لفهم تعقيدات هذا المصطلح والإشارة إلى حجم التفاعلات المكثفة بخصوصه.. يحكى لى المرحوم د. زكى بدوى، والذى حصل على لقب سير فى بريطانيا، أنه ومعه مجموعة من غير المسلمين من أصحاب العقول المنصفة، وعلى رأسهم الأمير تشارلز، أن هذه المجموعة هى التى قامت بصك مصطلح «الإسلاموفوبيا» فى مستهل التسعينيات وكان تعريفه يتسم بالتحذير من الخلط بين قيم الإسلام النبيلة وأهداف الحملة الجائرة التى تخلط بين هذه القيم وبعض الممارسات الخاطئة هنا أو هناك... ولكن تم الانقضاض على هذا المعنى للمصطلح ومن قبل دوائر بعينها فى الإعلام الغربى وأصبح مصطلح الإسلاموفوبيا يستخدم ليعمق أوصافًا كارثية على الإسلام والمسلمين، فمثلاً تقول موسوعة Wiki Pedia المعروفة، والتى يستخدمها الملايين عبر شبكة الإنترنت:

«إن (الإسلاموفوبيا) تعبر عن الاعتقاد بأن معظم المسلمين ما هم إلا جماعة من المتدينين المتطرفين (ReIlgious Fantics) الذين لديهم ميول عدوانية بالطبيعة تجاه غير المسلمين، وهم كذلك ضد مفاهيم لا يقبلها الإسلام على حد تعبير الموسوعة ـ مثل «المساواة» و«التسامح» و«الديمقراطية»... من هنا يُنْظَرُ وحسب الموسوعة إلى أن (الإسلاموفوبيا) هو شكل من أشكال العنصرية التى تمارسها جماعة المسلمين (وليس العكس)»... ومع الأسف تمكنت دوائر من الإعلام الغربى من «عولمة» ونشر هذا المعنى الذى صبغت به تفاعلات الجاليات الإسلامية فى الغرب ـ خاصة ـ مستغلة فى ذلك أوضاعًا غير مواتية لأعداد كبيرة من المهاجرين من الدول الإسلامية ممن يعانون البطالة ورفض الاندماج الإيجابى ـ لظروف أخرى اجتماعية واقتصادية يطول الخوض فيها ـ والمشكلة أن هذه الجماعات المأزومة قد مارست سلوكيات تعبر عن أزمتها أكثر مما تعبر عن الدين الإسلامى مثلها فى ذلك مثل أى جماعات مأزومة تمارس سلوكًا يعكس أزمتها وليس بالضرورة دينها وربما لا تملك التعبير عن صحيح هذا الدين لتدنى معظم مستوياتها العملية والاجتماعية والاقتصادية... من هنا فإن إلحاق الإسلام بسلوكيات هذه الجماعات يعد من باب ظاهرة الإلحاق الخاطئ، وهو الأمر الذى دعا بعض أصحاب العقول المنصفة للتصدى للمفاهيم الجائرة المتضمنة فى «الإسلاموفوبيا»، وهنا تقول المفكرة المعروفة كارين أرمسترونج (بمجلة التايم ١٧/٩/٢٠٠١) إذا كان الإسلام بكل هذه الصفات السيئة.. فلماذا هو الدين الأوسع انتشارًا ونموًا بين الغربيين أنفسهم؟ إن سبب هذا الانتشار المتزايد ـ كما تقول أرمسترونج ـ يعود إلى الطبيعة السلمية للإسلام، وتضيف قائلة: «فإذا كانت التعبيرات التى

تطلق بهذا العداء على الإسلام حقيقية ما كان لهذا الدين أن ينتشر بهذه المعدلات ولكان الناس قد هربوا منه» وتنتقل أرمسترونج لمسألة العنف فتفند المقولة التى تؤكد على أنها خاطئة من أن «الإسلام قد انتشر بحد السيف» فتوضح وفى كتاب بأكمله عن محمد نبى الإسلام، الكثير من جوانب الإسلام المشرقة وأن الجهاد قد شرع للدفاع عن النفس، وأن مسألة العنف خاصة لابد أن ينظر إليها فى سياقها الدقيق فتذكرٍ أن العنف الغربى هو الأصل تاريخيًا وإلى يومنا هذا... فتاريخيًا تعود كارين أرمسترونج إلى أحداث الحروب الصليبية فتذكرٍ العالم بمجزرة تاريخية لا تنسى حيث قتلت إحدى الحملات الصليبية حوالى ٦٥ ألف مسلم فى ليلتين فقط فى القدس فى عام ١٠٩٩... واليوم يظل مسلسل قتل المسلمين مستمرًا حيث عشرات الآلاف من القتلى فى كل من العراق وفلسطين وهى وقائع لا ينكرها إلا مضلل... وبالتالى لابد من النظر لملف العنف فى سياقه الصحيح حتى تحدث المعالجة الصحيحة... المشكلة أن حجم الأخطاء فى تزايد ولا يزال هناك من يستخدم «الإسلاموفوبيا» لمزيد من الذرائع ومزيد من العداء ومزيد من الدماء، ففى وثيقة أصدرها المركز الأوروبى لمراقبة العنصرية يتم تحديد ثمانى سمات للإسلاموفوبيا تتمثل فيما يلى:

١- إن الإسلام يُرى على كونه: «كيان منفصل» وليس به قيم مشاركة مع الثقافات الأخرى.

٢- إن الإسلام كتلة إستاتيكية غير مستجيبة للتغيير.

٣- إن الإسلام يُنظر إليه على كونه بربرية منافية للعقلانية.

٤- إن الإسلام يُرى على أنه يمثل تهديدًا وتدعيمًا للإرهاب.

٥- الإسلام هو أيديولوجية سياسية وعسكرية.

٦- إن العداء للإسلام يُستخدم لتبرير الممارسات العنصرية وفصل المسلمين عن العالم.

٧- إن البعض يرى أن العداء للإسلام شيء طبيعي..

٨- إن البعض يرفض الانتقاد الموجه للغرب ضد الإسلام.

إن هذه النقاط الثمانى التى أشرنا إليها تمثل فى حقيقتها عمق ممارسات فكر صدام الحضارات تحت مسمى «الإسلاموفوبيا» وهو الأمر الذى حدا بالسيد عمرو موسى أن يصف «صدام الحضارات» بأنه «صدام مع الإسلام ذاته» وهو الأمر الذى يشكل عمق المعضلة الراهنة.. جاء ذلك فى حديث لأكثر من ٢٤٠ مفكرًا فى مؤتمر الباجواش العالمية تحت رعاية الخارجية المصرية وبالاشتراك مع مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية... وهذا النوع من الصدام الخاطئ الذى ينبغى وضع حد له هو الذى حدا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية أن يناقش فى مؤتمره السنوى الذى انعقد أخيرًا (فى الفترة من ٢٧ ـ ٣٠ مارس ٢٠٠٧) وتحت رعاية الرئيس محمد حسنى مبارك ـ مشكلة الهوية الإسلامية فى ظل العولمة... وأن يصرح د. حمدى زقزوق بأن «مشكلة الهوية لها الأولوية على القضايا السياسية والاقتصادية» ويأتى ذلك فى حضور أكثر من ١٣٠ مفكرًا وشخصية دولية ومن بينهم محمد خاتمى الرئيس الإيرانى السابق (ولوقائع هذا المؤتمر تفاصيل فى سياق آخر) لكن الاستنتاج الذى أقدمه من واقع تحليلى للتفاعلات المكثفة المندرجة تحت مفهوم «الإسلاموفوبيا» يتلخص فى أهمية أن يتجنب المفاوض الممثل للواقع العربى الإسلامى الفخاخ التالية:

١- الوقوع فى فخ «الرد الهستيرى والمنفعل» الذى يستجيب لاستفزازات واضحة وعلى صعيد أكثر من ملف ويتم هندستها

لإحداث هذه الاستفزازات وتحويلها إلى غضب سلبى منفلت يُمَكِّن لمروجى المفهوم من تعميقه واستخدامه كذريعة (كما حدث فى حروب سابقة وحروب أخرى يراد شنها على دول إسلامية).

٢- فخ عدم التحرك الفعال المحتوى بهدوء منهجية واستراتيجية وآليات واضحة بعيدًا عن الجهود المشتتة والفردية التى لن تحقق الأثر الجماعى المطلوب.

٣- فخ استغلال حركات العنف والإرهاب وتوليد المناخ الملائم لنموها وترك الساحة لفسطاطين أحدهما غربى والآخر يستخدم تحت مسمى «الإسلام والمسلمين» بينما ينعزل المعتدلون وأصحاب العقول المنصفة فى كل من العالم العربى الإسلامى وفى الغرب دون إنشاء الجسور القوية بينهما لمنع مباراة المتطرفين من احتلال الساحة الدولية على اتساعها والانفراد بها.

٤- فخ «الفتوى» من غير مؤهلات أو بدافع الشهرة المؤسف أو بدافع عدم التروى الكافى.. فهناك «فتاوى» مثل «إرضاع الكبير» التى قدمت إساءة أكثر من أى حملات ضد المسلمين، لأنها صدرت من واقعنا العربى الإسلامى ومن أستاذ أزهرى (تم فصله) وتم استخدامها أسوأ استخدام.

٥- فخ الاستجابة النهائية لضغوط «مباريات الإسلاموفوبيا» التى تمارسها آلة الإعلام الغربية، والتى يشاركها فى أداء مهمتها حشد غير مسبوق من الباحثين وأقسام ما يسمى فى يومنا هذا بأقسام الدراسات الإسلامية فى الغرب (وهذا الأمر بحاجة إلى تفاصيل أخرى)... وهذه المهمة هى إيجاد صورة مشوهة للإسلام والمسلمين إلى درجة «الحرج» و«التجنب» وإلى الحد الذى يجعل النخب فى

العالم العربى الإسلامى أن تتجنب حتى كلمة «الإسلام» والتعامل من منظور علمانى اختزالى وأحادى وصفه الرئيس الأمريكى كارتر تحت مسمى الاختزال العلمانى (Secular Reductionism).

فى كتاب الدين ذلك البعد المفتقد فى إدارة العلاقات الدولية وهو منظور أدى إلى تدهور إدارة العديد من الأزمات فى العالم هذا مع إيجاد - فى حالة العالم العربى الإسلامى - «إسلام» «مفصل» أو «جاهز»... بعيدًا عن فكر الاجتهاد وتجديد الفقه الإسلامى بما يناسب التعامل مع الواقع والمصالح العليا للأمة - وطبقًا لمستجدات الأمور التى تحتاج إلى اجتهاد وعلوم تمازجية تكاملية حديثة تنطلق من المقاصد الكبرى للإسلام بالمعنى الجوهرى والحقيقى الذى أسس لحضارة علمية وإنسانية لابد أن تعود لتساهم من جديد فى بناء استقرار وإنسانية العالم. إن تجنب كل الفخاخ السابقة يأتى بالأخذ بالعلم والمنهجية وبالقيم السامية التى أرساها محمد ﷺ الذى أضاء الأرض نورًا، ولم ولن ينطفئ إلى يوم الدين.. يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الصف وهى السورة التى تدعو للأخذ بالأسباب والتعامل مع الواقع بهمة واحتواء نفس وروح لا تعرف اليأس.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان.

المثال الثانى: كارتر ومشاهد من أيام السادات

كيف واجه چيمى كارتر فخ الإعلام الأمريكى وفخ اللوبى الصهيونى؟

بعد أن أصدر چيمى كارتر الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية كتابه الجديد بعنوان «فلسطين: سلام لا فصل عنصرى» يتعرض الرجل إلى حملة صهيونية ضارية تتهمه بالعنصرية وبمعاداة السامية ويمثل هذه التهم الجاهزة والجائرة التى أصبح أى عقل منصف فى العالم يحلها ويعرف حقيقتها ولا يبالى بها إذا أراد أن يصر على كشف الحقائق بلا خوف من أى «إرهاب فكرى».. والرئيس كارتر يقوم حاليًا بظهور مكثف فى الإعلام الأمريكى والدولى ويقوم بالرد على كل هذه الحملات ويؤكد أن كتابه لم يتحيز إلى أحد، بل إنه أصر على إظهار حقائق أصبحت معروفة لكل أصحاب العقول المنصفة ولكثير من جمعيات حقوق الإنسان فى مشارق الأرض ومغاربها.. وفى أحدث لقاء من لقاءات الرئيس الأمريكى وكان فى جامعة برانديز وأمام طلبة هذه الجامعة التى أسسها زعماء يهود أمريكيون ويشكل الطلاب اليهود نحو نصف طلابها، اغرورقت عينا كارتر بالدموع وهو يعدد مظاهر القهر والمظالم وأشكال التمييز العنصرى التى يتعرض لها الفلسطينيون؛ فغزة تحولت إلى أكبر سجن فى العالم وأن «السور العنصرى» الذى بنته إسرائيل قد جعل الفلسطينيين يعيشون فى كانتونات وسجون كبيرة هذا

بـالإضـافة إلـى تـجفيف مصـادر المـيـاه العـذبـة ومصـادرة الأراضـى الفلسطينية الـخصبة وتـجريف أراض أخرى وهدم بيوت فوق رءوس أصحـابـهـا.. طـالب كـارتـر، أمـام الرأى الـعـام الأمريكـى والـدولـى، أن يـذهب هـؤلاء الـذيـن وصـفـوه عـقب نشر هـذا الـكـتـاب بـأنـه «كـاذب ومتعصب ومعاد للسامية وجبان ومنتحل لآراء الغير».. طالبهم أن يذهبوا إلى الأراضى الفلسطينية لكى يروا بأنفسهم إذا كان ما ذكره يعبر عن الحقيقة أم لا..

إن ملف التفاعلات الخاص بهذا الكتاب وما يثار من حوله من نـقـاش فـى الإعـلام الأمريكى والدولـى بحـاجـة إلى دراسة تفصيليـة خـاصـة.. أهـم أسـئـلـة ونـقـاط مثل هـذه الدراسة الأولـيـة الـتـى ستكون نتائجها مفيدة للفهم المتعمق لمستجدات وطبيعة تضاريس الصراع الإسرائيلى الفلسطينى العربى تتمثل فيما يلى:

١- هل لا تزال قضية فلسطين هى الأخطر والأهم فى الصراعات الدولية الراهنة؟

والإجابة الأولية.. نعم هى كذلك.. ولكن السؤال الأهم كيف يمكن للغرب إظهار ذلك بشكل مؤثر خاصة أن دورهم اليوم يكاد يكون منتقدًا.

٢- هل الإعلام الأمريكى قد أصبح رهينة فى أيدى اللوبى الصهيونى تمامًا؟

والإجابة الأولية.. كما ورد فى كتاب كارتر وكذلك فى دفاعاته عن كتابه قوله: «إنه لم يجزم على الإطلاق بأن الأموال اليهودية تسيطر على الإعلام الأمريكى» كما اتهمه البعض بذلك لكنه قال: «إن اللوبى الموالى لإسرائيل قوى».. وما قاله كارتر وما يحدث

اليوم يمكن أن يستفاد منه كدرس للعالم العربى ورسالة لأصحاب العقول المستسلمة والخائبة بأن كل شىء فى يد اللوبى، نعم إنه لوبى قوى.. ولكن هناك مساحة حتى فى الإعلام الأمريكي ذاته لآراء متعددة ومتنوعة تحتاج إلى إرادة ومهارة العرض، وأن اللوبى أو غيره أو أى شىء فى الدنيا ليس له «القوة الجبارة» لكن ما يجعله كذلك هو «الخوف السلبى من أى شىء وكل شىء بلا مبرر حقيقى كما حدث لدبلوماسيين وأصحاب قرار فى العالم العربى مع كل الأسف.. إن شخصية چيمى كارتر وطبيعته وعناده فى الدفاع عن العدل والحق لتمثل لمحة إيجابية فى الصراع الإعلامى الدولى القادم المتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى..» وهو ليس الوحيد فى هذه المعركة الإعلامية وهذا ما سنتناوله فى مقال قادم.

٣- كيف تعامل الإعلام العربى مع ملف كتاب كارتر والحوارات التى دارت بخصوصه؟

لقد تعامل الإعلام العربى ببرود وحذر غريبين فى بدايات تلقى خبر الكتاب وما يدار حوله.. ولقد رصدت سؤالاً غريبًا مثارًا ومتكررًا عند الكثيرين.. وهو «لماذا تيقظ كارتر أخيرًا؟» ولماذا يتيقظ كل رئيس وكل مسئول «سابق» أمريكى متأخرًا عندما يتيقن من الظلم وعدم العدل والمعايير المزدوجة؟

وهنا لابد من كلمة فى حق الرئيس كارتر، وهى كلمة أقولها بعد أن قمت بتحليل أزمة أكتوبر ٧٣ وما تبعها من تفاعلات حتى معاهدة كامب ديڤيد فى سياق أكاديمى وتفاعلى سابق، فكارتر يختلف عن أى

مسئول سابق وهنا استدعى مشاهد من «أيام السادات».. أى تلك الأيام التى شهدت مفاوضات كامب ديفيد الأولى.. وليس الكلام هنا هو بالطبع التقييم الاستقصائى لكامب ديفيد، فهذه المعاهدة لها ما لها وعليها ما عليها، لكن هناك أشياء مفتقدة وغير مدققة ويتم تداولها فى الإعلام العربى على وجه الخصوص، وهى التى تدفع تيارات أو أشخاصًا بعينهم إلى القول «بإلغاء كامب ديفيد» بأسلوب فيه الكثير من الرعونة دون معرفة ما حدث من تفاصيل تفاوضية.. وهنا أذكر ما يلى: إن هناك فرقًا بين مفاهيم «الحوار» (Dialogue) ومفاهيم «المساومة» Bargainng والتفاوض (Negotiation) ويطول الخوض فى تفاصيلها، ولكن بإيجاز «فإن الحوار ينبنى على المبدأ التعاونى وبناء العلاقات ودعمها وكل من التفاوض والتساوم ينبنيان على المبدأ التنازعى، والذى يستلزم إدارة الاختلافات الكبيرة».. والمفاهيم الثلاثة واختيارات المناهج المناسبة فى الاختيار تحدد الناتج التفاوضى، وهنا أقول إن السادات فى نهجه التفاعلى، خاصة مع الرئيس كارتر «الوسيط فى عملية السلام» حينذاك، قد ركز كثيرًا على الحوار وليس التفاوض، ولقد بدأ هذا النهج فى خطابه السياسى عندما كان يرسل إشارات بهذا المعنى لبناء علاقة شخصية قوية مع الرئيس كارتر، حيث كان يرد فى خطابه السياسى فقرات على غرار: «كارتر صديق عزيز وما يجمعنى به الكثير، حيث كان يقول، رحمه الله، وبكثير من (الطرافة) «كارتر فلاح وأنا فلاح.. يعنى احنا الاتنين نؤمن بأخلاق القرية، وهو راجل متدين وأنا متدين.. وهو يؤمن بالأخلاق فى السياسة ونحن نؤمن بالأخلاق فى السياسة»! إلى آخره.. وعندما تعثرت عملية السلام بسبب أن «الأمن» لبيجين كان ضد وجود قوات مصرية فى سيناء وكان

السادات يصر على أنَّ انسحاب القوات المصرية الرئيسية إلى غرب القناة وجعل سيناء ذات ثلاث مناطق «أ»، «ب»، «ج» يعطى الأمن لإسرائيل مع وجود تعهد أمريكى وقوات طوارئ دولية لمنع أى اعتداءات من الجانبين وكذلك يعطى السيادة لمصر إلا أن الخلل الذى حاول بيجين، الإصرار على إبقائه هو «ألا تمس إحدى عشرة مستوطنة إسرائيلية أقامتها إسرائيل فى سيناء، وهنا تدخل كارتر بكل قوته ضد مطلب بيجين وتم تدمير ١١ مستوطنة إسرائيلية بالكامل وكان ذلك بفضل تدخل وسيط حاول الاقتراب كثيرًا من أن يكون عادلاً فى صراع جائر.. كذلك كان السادات يلح على أن المشكلة الفلسطينية «هى لب الصراع» ولذلك أصر على وجود ملاحق فى كامب ديفيد تطالب بحقوق الفلسطينيين وأنه لا سلام حقيقيًا بدون هذه الحقوق، هذا ما سمعه كارتر وفهمه وطالب به منذ البداية، وعندما كان أول رئيس أمريكى يحقق السلام بين أهم دولة عربية وإسرائيل تم وضع كارتر، من قبل تيار اليمين المسيحى المتصهين (Christian Zionism) المعروف بقوته فى «قائمة الكفار» وإنه يعمل - أى كارتر - «ضد إرادة الرب» التى يرى أصحاب هذا التيار البالغ عدده بالملايين فى أمريكا أن إرادة الرب هى أن تفعل إسرائيل كل ما تريده حتى يتم هدم الأقصى وبناء المعبد اليهودى على أنقاضه.. وهو ما يرفضه كارتر وكل أصحاب العقول المنصفة فى عالمنا، وكل من يريد التصدى للهوس والتطرف الدينى والعنف باسم الأديان.. من هنا يقول كارتر إن كتابه هو دعوة أخرى لرؤية الحقائق من أجل استئناف عملية سلام تنشد الحقوق، خاصة الحق الفلسطينى المهدر ولهذا الحديث بقية.

والله ولى التوفيق وهو وحده المستعان.

المثال الثالث: الأكاديمى والدبلوماسى وفخ قرار مجلس الأمن رقم ١٧٩٩

تواجه المنطقة العربية والعالم الإسلامى تحديات غير مسبوقة وملفات لصراعات ممتدة آخذة فى التداخل والتعقيد وتحتاج إلى جهود ومهارات بحثية وتفاوضية مركبة وجماعية لا تنفع معها شيوع الجزر المنعزلة وردود الأفعال بل تحتاج إلى فكر الاستباق، لرصد وفهم طبيعة الفخاخ التفاوضية عبر الملفات القائمة وتلك التى هى فى طور الإعداد أو الحدوث التلقائى. وفى هذا المقال سأتحدث عن فخ الجزر المنعزلة الذى نحتاج إلى أن نخرج من براثنه، وسأقدم كذلك مثالاً. بخصوص «فخ» قرار افتراضى يراد استصداره من مجلس الأمن لتجريم ممارسات «الإسلاموفوبيا» أو أفعال ازدراء المسلمين والإسلام والأديان بصفة عامة... وهو الأمر الذى نادت به أصوات وشخصيات كبيرة نكن لها كل الاحترام والتقدير لحرصها على الدفاع عن مصالح هذه الأمة، من هنا فإن تعبير «قرار مجلس الأمن ١٧٩٩» الوارد فى العنوان هو على سبيل افتراض حدوثه «Virtual» ولمناقشة ما يدور بخصوص السعى لإصداره.. وأول نقاط الحوار بخصوص هذا الصدد هو التأكيد على أهمية تحقيق الهدف فى أنها كانت الوسيلة، أى التعامل بفاعلية لمنع التفعيل الجائر للصدام الحضارى، أو احتواء الآثار السلبية لتفاعلات مكثفة تدور تحت ما يسمى «الإسلاموفوبيا»؛ ذلك المفهوم التفاعلى الذى استخدم ولا يزال عبر ملفات الصراع،

سواء الصراع العربى الإسرائيلى أو الصراع الإيرانى الأمريكى وفى العراق وفلسطين وفى لبنان.. بشكل أو بآخر... وبنسبة أو بأخرى، الهدف إذن هو كيف نتعامل مع هذا المكون الإسلاموفوبيا؛ لأنه أصبح من المفاهيم «العابرة للملفات» والذى أصبح يستخدم بشكل مباشر وغير مباشر ضمن ذرائع التحركات الرئيسية فى إدارة الأزمات الممتدة بين العالم العربى الإسلامى والغرب... إذن ما نحتاجه هو التفكير إما بأسلوب «السعى لاستصدار قرار من مجلس الأمن وإما حتى من الجمعية العامة وإما أن نفكر بأسلوب آخر أو بأساليب أكثر ابتكارًا وفاعلية للتعامل مع ذلك المفهوم العابر للملفات... وكذلك رصد عوائق الوصول إلى تحقيق الهدف، ومن أهمها ما أسميه «فخ الجزر المنعزلة بين الأكاديمى والدبلوماسى» حيث إن الدلائل عليها لا تزال كثيرة ومتكررة بشكل يتطلب وضع نهاية لها؛ لأن فى ذلك الأساس للتحركات الصحيحة نحو إدارة الكثير من الملفات وليس ملف الإسلاموفوبيا فقط... وهنا لابد أن أرصد تفاعلات مشتركة مهمة لامستها عن قرب من خلال أربعة مؤتمرات دولية وإقليمية متتالية شاركت فيها وكانت على الترتيب:

١- مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية ودور التقريب فى الوحدة العملية للأمة، والذى نظمته جامعة قطر وجامعة الأزهر والمجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية ٢٠ ـ ٢٢ يناير ٢٠٠٧.

٢- مؤتمر منظمة الباجواش العالمية للعلوم والشئون الدولية، والذى انعقد فى القاهرة قبيل انتهاء عام ٢٠٠٦ وكان بالاشتراك مع مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام وكان تحت

رعاية وزارة الخارجية المصرية وكان عنوانه «منطقة فى طور التحول: الإصلاح والسلامة فى الشرق الأوسط» وحضره ٢٢٠ عالمًا ومفكرًا من دول العالم المختلفة.

٣- ندوة الدبلوماسية العربية وحوار الحضارات، والذى كان تحت رعاية المنظمة العربية للتنمية الإدارية وهى إحدى منظمات جامعة الدولة العربية (٣ ـ ٧ مارس ٢٠٠٧).

٤- المؤتمر التاسع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر وكان تحت رعاية السيد الرئيس محمد حسنى مبارك ٢٧ ـ ٣٠ مارس ٢٠٠٧.

والنقاط المشتركة الرئيسية بتحليل تفاعلات هذه المؤتمرات تتمثل ـ بعد الإشادة بالجهود الرائعة والمتميزة للقائمين عليها ـ فى أن عمق التفاعلات فى إطارها قد أكدت على عمق وتجذر حالة أو فخ الجزر المنعزلة رغم السعى لمحاولة الخروج من هذا الفخ من حيث التوجه والعنوان لكل مؤتمر؛ وذلك لأن تعريفنا لفخ الجزر المنعزلة يتمثل فى وجود السمات التفاعلية التالية:

١- أن الفجوة لا تزال كبيرة بين متطلبات الصراعات وتعقيداتها وتحتاج إدارة هذه الصراعات إلى دمج الجهود الاستباقية البحثية بالخطوات الدبلوماسية الرسمية وغير الرسمية، ولا تزال التحركات محكومة بالعقلية التجزئية والمرحلية والأحادية الاتجاه..

٢- سيادة عقلية التسكين اللحظى والموسمى للأزمات الممتدة أو الطارئة مما يؤدى إلى تكرار الأزمات أو تفاقمها، فالمؤتمرات السابقة وغيرها فى معظمها إما موسمية وإما سنوية وغير تراكمية وليس لها آليات واضحة ودقيقة لتفعيل ما تتخذه من قرارات

وتوجهات استراتيجية جيدة وبخصوص تفاعلات بعينها تعبر بوضوح عن ذلك الانفصام - حتى في الرؤية المبدئية - بين الأكاديمي والدبلوماسي من واقع تلك المؤتمرات المشار إليها أسترجع هنا من وقائع مؤتمر الدوحة مقولة عالمنا الجليل الدكتور يوسف القرضاوى حين قال في كلمته عما ينبغي أن نفعله لإدارة ملف الفتنة بين السنة والشيعة من باب ألا نقع في براثن تلك الفتنة:

«إنني لن أتحدث تنظيريًا وأكاديميًا عما نحن فيه اليوم؛ لأن هذا الأمر قد يؤذى ولا يفيد الآن.. فلن أغرقكم في ذلك...» أما المقولة ذات العلاقة بما قاله القرضاوى ولكن من وقائع مؤتمر منظمة الباجواش حيث قال السيد عمرو موسى في كلمته ما يلي:

«إن قضية استخدام القوة في العلاقات الدولية على أساس المعلومات المفبركة وإخضاع العالم لمفاهيم لا تحظى بأى إجماع دولي حقيقي هي من أسوأ ما يتعرض له العالم كله اليوم؛ أي أن هناك معلومات خاطئة ينبغي الكشف عنها وأن هذا قد أدى إلى شيوع حالة من الإرباك وسيؤدى إلى فوضى دولية عارمة».

وأضاف السيد عمرو موسى قائلاً: إن صدام الحضارات ما هو في واقعه إلا صدام مع الإسلام، وإن الأمر قد أصبح أخطر بكثير من أن يترك للجامعات وللأكاديميين بل لابد من تصعيد الأمر إلى أن يتم استصدار قرار من مجلس الأمن لمنع ووقف الصدام الجائر والحادث...».

إن ما ذكره كل من د. القرضاوى والسيد عمرو موسى هو على درجة كبيرة من الأهمية وكلاهما له دوره المميز، لكن الطرحين، كما أوردنا، يتضمنان الإشارة إلى ما يعكس أننا لا نزال في مرحلة «تأمل الأدوار» ولم نصل بعد إلى مرحلة تفعيل الأدوار بعد

هندستها بعناية لنكون فرق عمل متكاملة (Task Forces) من الأكاديميين والدبلوماسيين والإعلاميين وغيرهم وكل ما تحتاجه عملية إدارة الصراع أيًا كان.. فالأمين العام يرى كما رأى د. يوسف أن أمر «الصدام» أو «الفتنة» أخطر من أن يترك للأكاديميين».. وهنا نقول ربما ما قُصد هو الارتكان إلى معنى «شائع خاطئ» فى تفاعلاتنا عن دور الأكاديميين حيث إن هناك تفاعلات فى واقعنا تشير إلى انعزال كثير من الأكاديميين مع الأسف عن الواقع المعيش والتوجه نحو «التنظير المجرد المبتعد عن التحليل الدقيق للواقع، وهذا فى صميم عكس ما تتطلبه كلمة «الأكاديمية المنضبطة» التى ينبغى لها أن تكون حركة دائرية من النظرية إلى الواقع إلى وصف إجراءات التحرك واتخاذ القرارات الدقيقة.. فالأكاديمية لابد لها أن تكون قاطرة التنمية على الأصعدة كافة، لهذا السبب، فى دول العالم المتقدم كافة وهذا عين ما دفع أكثر من ثلاثين من الحاصلين على جائزة نوبل أن يتحركوا ويشتركوا فى كتاب وفى حركة مدنية ويوجهوا الكتاب إلى الرئيس جورج بوش يدينون فيه سياساته الخاطئة بغزوه للعراق وأسلوبه فى ملفات أخرى وأن يقولوا هم الآخرون إن الأمر قد أصبح من الخطورة ويجب ألاَّ يترك فى أيدى «السياسيين فقط»!

أما ما ورد فى المؤتمر الثالث، والذى كان بعنوان «الدبلوماسية العربية وحوار الحضارات» (٣ ـ ٧ مارس ٢٠٠٧) فلقد تناولت كلمة أ. نادية مصطفى، وكذلك كلمة الصديق العزيز أ. د. سيف عبدالفتاح، طبيعة الانفصام القائم وطبيعة الجزر المنعزلة القائمة بين الأكاديمى والدبلوماسى من خلال عدد كبير من الأمثلة التى أدى

فيها هذا الانفصام إلى فقدانه القدرة على إدارة واستباق الأزمات وتفاقمها... ونادى د. سيف عبد الفتاح بأهمية السعى السريع لوقف ما أسماه «الفصام النكد» بين الدبلوماسي والأكاديمى الذى لا تزال تتعدد صوره كثيرة فى واقعنا، أما فيما يتعلق بطلب الكثيرين لاستصدار قرار من مجلس الأمن أو من الجمعية العامة للأمم المتحدة لإدانة وتجريم الإساءة للأديان وتجريم «الإسلاموفوبيا» بمعانيها وممارساتها المتعددة، والتى تعرضنا لها فى سياق تفصيلى سابق (على سبيل المثال مقال بجريدة الأخبار بتاريخ ١/٤/٢٠٠٧)، فإن هذا السعى أو المطلب يعطيه الأمين العام لجامعة الدول العربية اهتمامًا كبيرًا كما أوردناه فى مقولته فى مؤتمر منظمة الباجواش، وكذلك كان موضع طلب العديد من الشخصيات البارزة فى سياقات أخرى، ومنها ما حدث من وقائع فى المؤتمر التاسع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (٢٧ ـ ٣٠ مارس ٢٠٠٧)... ولا بأس من هذا السعى بالطبع، ولكننا بحاجة إلى تصور صدور قرار وليكن هو القرار الافتراضى رقم «١٧٩٩» الذى جاء فى العنوان فهذا يتطلب تصورًا دقيقًا لصياغته وكيفية استصداره فى ظل أوضاع مجلس الأمن المعروفة، وهل سنمتلك إدارة صياغته بالأسلوب الذى نراه إذا ما أضيف إليه من الأطراف الأخرى ما قد يمثل فخًا حيث من المتوقع إضافة أجندات أخرى وهذا بحاجة إلى سياق تفصيلى آخر... وربما يحتاج هذا إلى مناقشة ومحاكاة ومداخلات إعلامية من المعنيين بهذا التوجه، وأدعو أن تتبناها جريدة الأهرام... أما الأسلوب الآخر الذى أميل له فهو التوجه إلى تنشيط وتدريب الكوادر المؤهلة لتفعيل ثقافة إدارة شبكات التفاعل (NETWORKING) من خلال منظومة إعلامية

وتعليمية متكاملة الأركان وليركز ذلك من خلال مؤسسات جامعة الدول العربية والمعهد الدبلوماسي ومراكز إعداد القادة في مصر مع تفعيل طاقات المجتمع المدنى وأساليب الدبلوماسية الشعبية؛ فجمعية أهلية كجمعية (ASH) البريطانية هى التى هندست وقامت بتفصيل مسارات المعاهدة الإطارية لمنع التدخين، والتى صدرت عن منظمة الصحة العالمية ووقعت عليها ١٣٢ دولة بعد ما يقرب من ٤ سنوات من المفاوضات، ومثَّل مصرَ فيها وفود من وزارة الخارجية ووزارة البيئة ووزارة الصحة... ولهذا الأمر سياق تفصيلى آخر.. ولكن النقطة هى معادلة تقول فكرة مهمة تبنتها جمعية أهلية... تحولت إلى اتفاق دولى رسمى أقرته ١٣٢ دولة بعد جهود ممنهجة ومدروسة؛ هذا فقط لتبيان فكرة التشبيك والتأثير والتحرك على مستويات دبلوماسية المسار الثانى غير الرسمية مع دبلوماسية المسار الأول الرسمية؛ أى بعبور الجزر المنعزلة... فقرارات قمة الرياض الناجحة مثلاً بلا شك لا تمثل إلا قرارًا، وإسرائيل قد قامت بالرد من خلال أربع لاءات: «لا للعودة لخطوط ٦٧»، «ولا لحق العودة»، و«لا لترك مياه الضفة الغربية»، و«لا لعودة القدس الشرقية»!!

فقرار القمة الذى تم اتخاذه فى قمة الرياض يكاد يكون فى مستوى القرار «المفترض» رقم ١٧٩٩، والذى من شأنه تجريم وإدانة أفعال الإسلاموفوبيا وازدراء المسلمين والإسلام... فكل من القرارين الحقيقى والمفترض لا يزالان يحتاجان لإستراتيجيات وآليات تفعيلية عديدة وإطار زمنى محدد (Time Frame) وتفعيل طاقات جديدة غير مستغلة للأمة العربية والإسلامية لن يتم إلا بتجنب

«فخ الجزر المنعزلة» بين الدبلوماسي والأكاديمي وتجنب «فخ انعزال وتأثيرات مسارات الدبلوماسية الشعبية ومسارات الدبلوماسية الرسمية ودبلوماسية الإعلام» من خلال كوادر مدربة ومجموعات عمل Task Fotces تعمل على أساس مستمر ومتراكم وغير موسمي وليس على أساس طارئ وتسكيني... فهذا التوجه المتكامل يمثل أهم مصادر تفعيل قوة تفاوضية هائلة تجعل من المبادرة العربية للسلام التي أعاد العرب طرحها في قمة الرياض واقعًا يصعب على إسرائيل أن تتملص من التعاون الإيجابي معها وتفعيل مبدأ الأرض مقابل السلام، ويجعل كذلك من جوهر القرار الافتراضي ١٧٩٩ الخاص بإدانة وتجريم أفعال الإسلاموفوبيا واقعًا دوليًا مستجدًا... قد لا نحتاج معه لاستصدار هذا القرار الافتراضي... هذا والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان..

المثال الرابع: كيف وقع بابا الفاتيكان فى فخاخ الخطايا الأكاديمية السبع؟

فيما يلى مجموعة مقالات للكاتب تناظر محاضرة بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر التى ألقاها بجامعة ألمانية. (٣ مقالات) وتوضح فى مجملها عددًا من الفخاخ التى وقع فيها بابا الفاتيكان.

أولاً: محاضرة بابا الفاتيكان.. ورد من محاضرة للأمير تشارلز: (الأهرام ٢٠/٩/٢٠٠٦)

ورد فى محاضرة بابا الفاتيكان التى ألقاها فى ١٢ من سبتمبر الحالى لطلاب جامعة بيجنسبرج بألمانيا، عن العقل والدين، عبارات ومقولات خاطئة تماما عن حقيقة الدين الإسلامى، والمثير للدهشة ويستوجب التأمل والمزيد من الاستكشاف ما ورد فى محاضرة البابا.. وفيما يلى بعض من الأسئلة التى ينبغى أن تثيرها مقولات بابا الفاتيكان:

١- لماذا وردت عن البابا هذه المقولات الخاطئة التى أثارت مشاعر ملايين المسلمين فجاءت ردود أفعال كثيرة بخصوصها وليس فقط من العالم الإسلامى، بل من مواطنين أوروبيين من غير المسلمين ممن تعجبوا لهذه المقولات من حيث إن محاضرته كان من الممكن ألا تقحم أمر هذه المقولات المستفزة؟

٢- هل يمكن أن يكون هناك اجتزاء أو سوء نقل لبعض الفقرات من الأصل كما يذاع؟

٣- إذا كان الكلام صحيحا فلماذا لم يكن البابا حريصًا على مشاعر المسلمين وعلى الموضوعية الفكرية التى تحلى بها فى أكثر من سياق سابق حينما أدان مثلا الرسوم الدنماركية الشائنة التى أساءت لعقيدة المسلمين ورسولهم الكريم - صلوات الله وسلامه عليه؟

٤- كيف أورد مقولات تتسم بالمعلومات الخاطئة تماما عن الإسلام، خاصة أنها فى سياق محاضرة لطلاب الجامعة فى سياق أكاديمى لطلاب وأكاديميين ومن المفترض هنا أن يتسم الطرح بمعايير الدقة والموضوعية وتحرى مصادر المعرفة وأصولها الحقيقية وليس اللجوء إلى معلومات خاطئة تمامًا، بعضها من مستودع الكراهية التاريخية وأجواء الحروب الصليبية.. خاصة أن للفاتيكان لجنة للحوار مع الأزهر.. وكان يمكن اللجوء إليها لتحرى الدقة عند الحديث عن الإسلام؟!.. لأن أمر هذه المقولات الخاطئة قد أساء للبابا أولا وللمسلمين ولفكرة أى حوار إيجابى.. وكأن الحوار المطلوب هو حوار الإهانات.. وهو الأمر المرفوض تمامًا.

٥- يظل سؤال المقاصد والدوافع بخصوص ما ورد فى محاضرة البابا بحاجة إلى الاستكشاف والفهم، ولكن على سبيل التعليق الذى أراه ضروريًا على ما ورد فى تلك المحاضرة التى تمحورت حول أمور عدة تتعلق بالعنف، والحرب المقدسة والجهاد وطبيعة الذات الإلهية، أركز هنا فقط على ما ورد من معلومات خاطئة عن علاقة الدين والعلم؛ لأنها تمثل المحور الرئيسى فى محاضرة

البابا، ولأنها تمثل إحدى المقولات المتكررة والخاطئة تمامًا عن طبيعة الدين الإسلامى، حيث اشتركت المحاضرة هنا فى محاولة ترسيخ مقولات الحملات الجائرة التى تصف الإسلام بالنقيض للعلم والعقل، وكأن الفصل بين العقل والدين الذى يروج له البعض هو سمة من سمات الإسلام، ومن هنا أرى أن أعود إلى محاضرة أخرى ألقاها راعى الكنيسة الإنجليزية الأمير تشارلز، وكانت فى جامعة أكسفورد العريقة وكان عنوانها الإسلام والغرب ونشرتها الجامعة ولعل من الضرورى أن نرصد أهم ما ذكره الأمير تشارلز، وكأنه اليوم بمثابة الرد الموضوعى على المغالطات و المعلومات الخاطئة التى قد تكون وردت فى محاضرة البابا إن لم يتم توضيح ذلك.. وعمومًا أجد من المهم رصدها لأنها ترد على حملات جائرة وخاطئة عديدة موجودة بالفعل مع الأسف على الساحة وهى كما يلى:

١- بخصوص ما يجمع الناس على أرضية مشتركة يقول الأمير تشارلز: ومن الغريب، من عدة وجوه، أن يستمر سوء الفهم بين الإسلام والغرب، فالذى يربط بين عالمينا أقوى بكثير مما يقسمهما، فالإسلام والمسيحية يشتركان فى كثير من القيم مثل احترام المعرفة والعدل والرأفة بالفقراء، وأن الحياة الدنيا فانية وبالمسئولية عن أفعالنا والإيمان بالآخرة، واحترام الوالدين.. (ص ١٢)، وأكثر من ذلك الاحترام العميق للإسلام لعائلة مريم عليها السلام ـ سورة آل عمران، وحب مريم عليها السلام ـ سورة مريم.. من هنا يستشعر المسلمون أن الإهانة لدينهم أكثر من جائرة وعدوانية وغير مبررة خاصة من بابا الفاتيكان.

٢-عن عدم فصل العلم عن الدين فى الإسلام: لن نذكر هنا هذا الكم الكبير للغاية من آيات القرآن الكريم التى تعلى من شأن العقل والعلم والعلماء والدعوة للتدبر والتفكر إلى الحد الذى قاد الكثير من علماء المسلمين ومفكريهم إلى القول إن العلم فريضة والتفكير العلمى المنهجى والأخذ بأسباب العلم فريضة كما ذهب إلى ذلك، خاصة، عباس محمود العقاد ـ وهو صاحب كتب العبقريات ـ حيث كتب عن عبقرية محمد ﷺ وكذلك عن عبقرية المسيح عليه السلام.. يقول الأمير تشارلز ـ عن عدم فصل العلم عن الدين فى الإسلام ـ الكثير فيذكر حرفيًا أن «الإسلام يمكن أن يعلمنا طريقة للتفاهم والعيش فى العالم.. حيث يكمن فى جوهر الإسلام حفاظه على نظرة متكاملة للكون، فالإسلام يرفض الفصل بين الإنسان والطبيعة، والدين والعلم، والعقل والمادة، وقد حافظ على نظرة غيبية وموحدة للبشر والعالم من حولهم..» (ص١٩). جاء ذلك فى ختام ما رصده بإسهاب عن فضل العلوم التى أسسها علماء الإسلام. وساهمت فى انتشار أوروبا من حقبة العصور المظلمة وأسست لنهضتها العلمية الحديثة، حيث يقول: فإسبانيا فى عهد المسلمين لم تقم فقط بجمع وحفظ المحتوى الفكرى للحضارة اليونانية والرومانية، بل فسرت تلك الحضارة وتوسعت بها وقدمت مساهمة مهمة من جانبها فى كثير من مجالات البحث الإنسانى ـ فى العلوم، والفلك، والرياضيات، والجبر (الكلمة نفسها عربية)، والقانون، والتاريخ، والطب، وعلم العقاقير، والبصريات، والزراعة، والهندسة المعمارية، وعلم الدين، والموسيقى، وقد ساهم ابن رشد وابن زهر، على غرار نظيريهما ابن سينا والرازى فى الشرق، فى دراسة الطب وممارسته بطرق استفادت منها أوروبا لقرون عديدة بعد ذلك.

لقد شجع الإسلام البحث والتنقيب وحافظ عليهما، وثمة قول مأثور فيه: إن حبر العالم أقدس من دم الشهيد، لقد كانت قرطبة فى القرن العاشر أكثر المدن تحضرًا فى أوروبا، فنحن نعرف عن وجود مكتبات عامة فى إسبانيا، في الوقت الذى كان فيه الملك ألفريد يرتكب أخطاء جسيمة فى فنون الطبخ في هذه البلاد، ويقال إن مكتبة حاكم قرطبة كانت تضم ٤٠٠,٠٠٠ مجلد؛ أى ما يزيد على عدد الكتب فى جميع المكتبات فى بقية أوروبا معًا، وقد كان ذلك ممكنًا؛ لأن العالم الإسلامى اكتسب من الصين مهارة صنع الورق قبل أكثر من أربعمائة عام من حصول أوروبا غير المسلمة على تلك المهارة، كما أن كثيرًا من المزايا التى تفخر بها أوروبا العصرية جاء أصلاً من إسبانيا فى أثناء الحكم الإسلامى، فالدبلوماسية وحرية التجارة والحدود المفتوحة وأساليب البحث الأكاديمى وعلم الإنسان وآداب السلوك وتطوير الأزياء والطب البديل والمستشفيات جاءت كلها من تلك المدنية العظيمة، وقد كان الإسلام فى العصور الوسطى دينا يتسم بقدر ملفت للنظر من التسامح بالنسبة لتلك الحقبة، فقد منح اليهود والمسيحيين الحق فى ممارسة معتقداتهم الموروثة، وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها للأسف دول كثيرة فى الغرب. و المدهش هو مدى تشكيل الإسلام جزءًا من أوروبا لفترة زمنية طويلة، أولاً فى إسبانيا ثم فى البلقان، ومدى مساهمته فى الحضارة التى كثيرًا ما نعتقد خطأ أنها غربية بأكملها، إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا فى جميع مجالات البحث الإنسانى، وقد ساهم فى إنشاء أوروبا المعاصرة، إنه جزء من تراثنا وليس شيئًا منفصلا عنه (ص ١٩) هذا ما ورد فى محاضرة أكاديمية موضوعية دقق صاحبها فى المعلومات التى يذكرها عن الآخر المختلف فى الثقافة والدين، ومحتواها سيظل هو النقيض الموضوعى لكل أشكال المقولات الجائرة وغير الموضوعية أيا كان مصدرها.

ثانيا: الأزمة مع الفاتيكان ومعضلات «الخطايا السبع»! (الأخبار ٢٠٠٦/٩/٢١)

فجرت محاضرة بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر موجة من الغضب الشديد عبر أرجاء العالم الإسلامى كما فجرت موجة من الانتقاد والتعجب لكل أصحاب العقول المنصفة عبر العالم كله وأعلامه، حيث وصفت نيويورك تايمز الأمريكية تصريحات البابا التى ربطت بين الإسلام والعنف بأنها مفجعة وخطيرة ووصفتها لوموند الفرنسية بأنها تجاهلت دور العقل فى الإسلام، والذى ذكر فى القرآن الكريم ٤٥ مرة على حد تعبير اللوموند.

وعقب تفجر موجة الغضب هذه، دعيت من قبل هيئة الإذاعة البريطانية BBC فى برنامج حديث الشارع مع كل من الأب كريستيان فاسبن وهو كاثوليكى متخصص فى علم اللاهوت والدكتور محمد عمارة المفكر المعروف لكى نحدد ونناقش طبيعة الأزمة الى فجرتها تلك المحاضرة التى ألقاها البابا فى ٢٠٠٦/٩/١٢ فى جامعة ريجنسبرج الألمانية، والتى جاءت بعنوان «لقاء مع ممثلى العلم: الإيمان والعقل وذكريات الجامعة» ولقد ألقى هذا التفاعل حول هذه المحاضرة الضوء على عمق الأزمة الراهنة وترشحها للانفلات والتدهور إذا لم يتم إدارتها بحكمة ومنهجية وعدل.. فالنقطة الجوهرية هنا تتمثل فى إصرار الإخوة فى الفاتيكان إلى الآن على عدم الاعتراف بحجم الأخطاء الفادحة التى أظهرها طرح البابا فى محاضرته «الأزمة» وهذا ما جسدته تفاعلات الأب كريستيان فاسبن فى لقاء الـ BBC الذى أشرت إليه مع كل الاحترام لشخصه الكريم، بل إن ما يضيف إلى أبواب وفصول هذه الأزمة غير

المبررة، والتى لا يحتاج إليها كل من الفاتيكان والعالم الإسلامى هو الإصرار على أننا فى العالم العربى الإسلامى قد أسأنا فهم ما طرحه البابا، هذا بدلا من التحرك نحو الاعتذار الواضح والصريح و حذف ما ورد فى المحاضرة من مغالطات واعتباره كأنه لم يكن، فهذا المطلب قد أجمع عليه صفوة علماء ومفكرى العالم الإسلامى كالدكتور يوسف القرضاوى ود. سليم العوا وغيرهما؛ خاصة أن نص المحاضرة المتبادل الآن ليس فى شكله النهائى وليس مدونا بالمراجع إلى آخره.. وبالطبع لم يتم تدقيق معلوماتنا بكل تأكيد.. أتمنى أن تحدث هذه الاستجابة العقلانية من الفاتيكان فى المؤتمر الصحفى المتوقع انعقاده من قبل البابا يوم الأربعاء القادم؛ أى بعد أن أكون قد أرسلت هذا المقال للنشر وقبل أن أقدم تحليلاً سريعًا عن كيفية إدارة تبعات أو توابع هذه الأزمة الجديدة ومتطلبات تجاوزها على المدى القريب والبعيد ـ أود أن أرصد فيما يلى تلك الملامح التى تجعل من حدث هذه المحاضرة «أزمة» مع الفاتيكان حيث إن أحد تعريفات الأزمة يتمثل فى إنكار أحد أطرافها على الأقل لوجودها وعدم إدراكه لحجم الضرر على الطرف الآخر، ثم عدم التدخل المبكر لاحتواء مثل ذلك الضرر اللهم إلا إذا كان الأمر هو «الإدارة بالأزمات» لتحقيق هدف خفى غير ممكن عنه وهو هنا يكون غطاء دينيًا لتعميق اتجاه أنصار صراع الحضارات وافتعال الصراعات لأهداف معروفة لدى البعض فى عالمنا اليوم.

لقد وجدت هذه العناصر مجمعة، حينما تحدثت مع الدكتور هولسمان مدير مركز التفاهم العربى الغربى بخصوص نص المحاضرة وهل اختلفت الترجمات من لغة إلى لغة، فأفاد بأن هناك

اختلافات بين النص الألمانى واللغات الأخرى ولكنها اختلافات فرعية، ولكنه أرسل لى تجميعًا مع نص المحاضرة فى إطار سعيه إلى رصد الآراء فى الواقعين العربى والغربى للتفاعلات حول هذه المحاضرة، ولقد وجدت فى هذا التجميع ما أصفه بـ«عناصر الأزمة» أو أسميه بـ«الخطايا السبع» وأرصدها فيما يلى:

١- إن الطرح المتضمن فى محاضرة البابا لا يعتبر من الناحية الأكاديمية البحتة محايدًا، بل إن الطرح قد اتسم بالتحيز الصارخ ضد المسلمين، حينما استشهد بمصادر اتسمت بعدائها للإسلام والمسلمين، كما فى حالة الإمبراطور البيزنطى إيمانويل الثانى، وإنه لم يتوازن بالرجوع إلى مصادر محايدة أو إسلامية تعبر عن الحقائق، وهذا ضد المبدأ الأكاديمى المنضبط.

٢- إن من ضمن ما طرحه البابا مقولات وصفها هولسمان فى رصده تحت عنوان «مقولات مستفزة ومهينة» حينما استشهد بمصادر القرن الرابع عشر قائلا إن محمدًا لم يأت بجديد إلا بما هو شرير وغير إنسانى!! «والعياذ بالله».

٣- إنه قد ذكر الآية القرآنية ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على أنها نزلت على النبى ﷺ ورددها عندما كان ضعيفًا فى فترة بداية الدعوة.. وهذا خطأ فادح آخر، حيث نزلت هذه الآية الكريمة عندما كان الرسول قويا فى المدينة المنورة،، ولكن الاستشهاد الخاطئ هنا ربما جاء ليدعم مقولة «انتشار الإسلام بحد السيف» وهذه مغالطة أخرى تضمنتها محاضرة البابا.

٤- إن طرح البابا فى مقاله قد أخفق فى الاستشهاد بعشرات الآيات والمواقف فى حياة الرسول ﷺ المعبرة عن التسامح وقيم السلام

والعدل والمحبة والرحمة، والتى تنعكس فى عشرات المواقف التاريخية والنصوص القرآنية والأحاديث الشريفة.

٥- أخفق طرح البابا فى إنصاف الحقيقة بأن العلم والعقل من أسس الإيمان فى الإسلام وأن العلم والإيمان لا ينفصلان فى الإسلام، ولقد أقر هذه الحقيقة الأمير تشارلز فى محاضرته الشهيرة المنشورة من قبل فى جامعة أكسفورد بعنوان «الإسلام والغرب» والتى رصدنا لها تفصيلاً فى سياق آخر حيث يؤكد الأمير تشارلز على أن نزعة العقل والعلم فى الإسلام هى التى أسست حضارة العلم فى العالم الحديث وأن علماء المسلمين وأعمالهم هى التى أسست لعصر النهضة فى أوروبا وانتشلتها من عصور الظلام الدامس فى أوروبا فهذا كلام وشهادة راعى الكنيسة الإنجليزية الأمير تشارلز.

٦- إن طرح البابا قد استرجع ونبش فى أحداث تاريخية مؤسفة ولم يرجع إلى الإسلام كدين وقيم، وتمادى فى عدم الموضوعية بمقارنة هذه المواقف التاريخية ليذهب إلى تميز المسيحية بأسلوب مفتعل وغير علمى أو منهجى بالتقليل من شأن الإسلام.

٧- إن ما أثاره طرح البابا بخصوص النظر فى طبيعة الذات الإلهية طبقا للمسلمين قد انتابه التشويه والخطأ.. ولقد تصدى لهذه النقطة العديد من علماء المسلمين.. وسبحان الله العلى القدير.

الخلاصة: إن ما سبق من رصدنا «للخطايا السبع» أعلاه يفيد بأنها جوهر الأزمة الحالية، وخطورتها أنها ـ وإذا ما وسعنا مساحة النظر ـ تتصف بالقصور المنهجى ولا تصمد أمام التحليل الأكاديمى

المنضبط تمثل فى عمقها أسسا لحملة ممتدة وجائرة ضد الإسلام والغرب بطريقة أو بأخرى وأن مثل هذه الخطايا قد وردت فى حملات تحت مسمى «الفاشية الإسلامية» تارة و«العدو الأخضر» تارة والإساءات للرسول عليه الصلاة والسلام فى حادثة «الرسوم الدنماركية الشائنة» تارة أخرى ولكن اليوم ترد فى طرح رأس الكنيسة الكاثوليكية، وهذا مكمن الخطر.. والحل معروف وواضح وحدده علماء المسلمين وهو سحب عناصر هذه الخطايا السبع من نص المحاضرة وأن يأخذ الفاتيكان بذلك على سبيل التدقيق العلمى والمعلوماتى وأخذ الرأى الآخر الموضوعى لتخرج المحاضرة فى شكلها الأكاديمى المنضبط.. وهذا وارد وممكن ويؤدى إلى نزع فتيل تداعيات هذه الأزمة الخطيرة وأحسب وأحسن الظن بأن الإخوة فى الفاتيكان سوف يرحبون بتواضع بهذا الأمر..

ثالثا: خيوط إدارة توابع الأزمة مع الفاتيكان: (الأخبار ٢٠٠٦/٩/٢٨):

كما ذكرنا فى مقالنا السابق بعنوان الأزمة مع الفاتيكان ومعضلات «الخطايا السبع» (الأخبار ٢٠٠٦/٩/٢١) أن للأزمة تعريفات معقودة، ومن أهمها عدم إدراك أحد طرفى الأزمة أو كليهما بوجود الأزمة وطبيعتها وجذورها وهذا إن لم يتم احتواؤه تتفاقم الأزمة، وأضفنا أنه مما صعب ويصعب إدارة هذه الأزمة عدم التدخل السريع من الفاتيكان والاعتذار الواضح الذى ليس به لبس أو غموض بخصوص ما وصفته «سبع خطايا» ارتكبت فى حق المسلمين فى محاضرة البابا التى فجرت هذه الأزمة، والمشكلة التى لا يزال علينا إدارتها تتمثل فى عبء آخر وهو عبء محاولة البعض ـ خاصة فى الغرب وفى إعلامه وفى بيانات الكنيسة الكاثوليكية ـ إثبات «أن

المسلمين قد أساءوا فهم ما قاله البابا، فهو عكس ما أراد أن يقوله.. وفى لقاء لى مع صحفية هولندية حول هذا الأمر سألتنى سؤالاً «شبه استنكارى».. حين قالت: «يعنى العالم الإسلامى ترك نص المحاضرة الكبير عن «العقل والدين»، وركز فقط على نص صغير، فهل هذا يعتبر تناولا علميًا أو دقيقًا للحدث؟» ولقد تناول أيضًا نفس السؤال مع الصحفى المعروف هولسمان الذى أكد على مشروعية هذا السؤال، وكان ردى عليهما واضحا بأن أشرت إلى أهمية الرجوع إلى كتاب الراحل الكبير إدوارد سعيد ـ الذى قدم كتابا رائعًا بعنوان «العالم والنص» وانطلقت من هذا الكتاب إلى أن مفهوم «النص» فى أحد تعريفاته خاصة فى التواصل عبر الثقافات «هو ما يخصنى أساسًا من هذا النص أو ما يخص معتقدى أو ثقافتى، فهذا هو النص الأساسى وما عدا ذلك هو نصوص فرعية.. فالنص للعالم الإسلامى هو أساسًا ما ورد فى تتر الأخبار فى كل محطات الإعلام العالمى وتضمن بوضوح، لا لبس فيه، العديد من الإهانات التى أوضحت أنها سبع، فى مقال وسميتها «الخطايا السبع» وهى بالتأكيد ليست فقط مما يخص الإسلام، ولكننى أوضحت للصحفية ما لم أركز عليه فى مقالى السابق وأرصده هنا، فهى أصلا إهانات مع الأسف أكاديمية وعلمية فى المقام الأول ولا أريد العودة إليها تفصيلا بالطبع هنا، ولكننى أسميها هنا بمسميات أكاديمية وعلمية بحتة كما يلى:

الخطيئة الأولى تساوى التحيز والأحادية فى الاستشهاد بالمراجع، الخطيئة الثانية تساوى استخدام لغة مستفزة ومهينة تبتعد كل البعد عن اللغة الأكاديمية المتعارف عليها فى الأجواء الأكاديمية المنضبطة، الخطيئة الثالثة تساوى أكاديميًا خطأ الاستشهاد حيث إن

المحاضرة ذكرت أن ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وهى مدنية وهذا يؤدى إلى الإعداد للخطيئة الرابعة وهى «الإخضاع الخاطئ للنص» Manipulation فقد كان عدم الاستشهاد الدقيق مدعما لفكرة انتشار الإسلام بالعنف والسيف وهذا أدخل النص فى الخطيئة الخامسة وهى حمل معلومات مغلوطة لملايين البشر الذين يستمعون أو يقرءون المحاضرة Disinformation أما الخطيئة السادسة فهى معلومات خاطئة قد تكون غير مقصودة Misinformation.

كما فى فهم طبيعة الإسلام وقضية العقل و الإيمان فى الإسلام أما الخطيئة السابعة فهى ترتبط بالسادسة فى أسلوبها ولكن يزاد عليها عدم فهم الخصوصية الثقافية الدينية بخصوص إدراك الإنسان وإدراك الخالق وفكرة العقل الإنسانى وحدوده مهما كان مقارنة بالخالق عز وجل والإيمان بالغيب وبقدرة الله سبحانه وتعالى التى لا حدود لها.. وعدم فهم هذا البعد جعل بابا الفاتيكان يمارس نوعًا من التأثير الخاطئ أو الدقيق لطبيعة الدين الإسلامى وهذا ما نسميه Hasty Framing.. السؤال الآن هل كان التفكير الغربى، والذى عبرت عنه أقلام وعقول غربية لها وزنها مؤيدا لفكرة «أن المسلمين قد أساءوا فهم النص» أو أنهم تركوا النص الكبير وتوقفوا أمام جزء صغير من النص؟! الإجابة بالطبع لا.. وللعلم من المهم أن أشير هنا إلى بعض الكتابات الغربية من أصحاب العقول المنصفة والمتسمة بالمنهجية والموضوعية حيث تقول الكاتبة المعروفة أرمسترونج Karen Armstrong فى مقالها بجريدة الجارديان فى ٢٠٠٦/٩/١٨م والتى جاءت بعنوان «لا يمكن الاستمرار فى تبنى هذا الإجحاف القديم ضد الإسلام» ما يلى: « من العجيب أن يبدو الفاتيكان مندهشا

تجاه الغضب الإسلامى.. وأن يكون الرد أن الحبْرَ الأعظم كانت نيته أن يزرع مناخًا من الاحترام تجاه الأديان والثقافات الأخرى وتجاه الإسلام..» وتعلق كارين أرمسترونج قائلة: «إن مثل هذه النوايا الجيدة كانت بعيدة تمامًا عن الوضوح.. فكراهية الإسلام مع كل الأسف هى كراهية متجذرة فى الثقافة الغربية لا تستدعى إلا أجواء القتال: ولذلك فإن الإساءات التى حدثت فيما سمى بالرسوم الشائنة تتطابق مع ما ورد فى كلام البابا..» وتسترسل كارين فى رصد «التاريخ الأسود» للرعب من الإسلام Islamophobia إلى أوقات الحروب الصليبية.. وتذكر كيف أقامت هذه الحروب المجازر فى القدس باسم الدين.. حيث قتلت فى إحدى هذه المجازر حوالى ثلاثين ألفًا من المسلمين وكان فيهم بعض اليهود».. وانتقلت كارين إلى القول: «إن ما دفع بهذه الحروب الصليبية لا يزال متوغلا فى العقل الغربى وهو فى الأساس «الهاجس والخوف على الهوية المسيحية».. ولذلك نادى أكثر من بابا على مر تاريخ الحروب الصليبية بالدعوة لها وتأجيجها».. وتقول كارين: «إن هذا ليس من المسيحية الحقيقية فى شىء فإن المسيح يقول «أحبوا أعداءكم».

وتقول كارين أرمسترونج: إنه وفى هذه الأجواء؛ أى أجواء الحرب الصليبية خرجت كل المسميات التى تجعل مسيحيى الغرب يكرهون المسلمين، ومن بين ما راج من عبارات فى ذلك الوقت عبارة «إن الإسلام قد انتشر بحد السيف».. وتم الترويج الخاطئ عن محمد ﷺ بكل المسميات البشعة وغير الصحيحة.

فى نهاية هذا المقال نقول أن الإمساك بخيوط إدارة توابع هذه الأزمة إذن بحاجة إلى تفاصيل أخرى ولكن يكفى أن نرصد هنا

حقيقة تاريخية وحقائق أخرى راهنة تقول الآتى: «إنه ومع الأزمة القائمة فى الحوار، فإن المشكلة ينبغى أن نحافظ عليها فى أنها أساسًا بنديكت السادس عشر تحديدًا، فكثير من المسيحيين الكاثوليك لا يوافقونه، فالحوار لا يزال مستمرًا ويمكن أن يكون إيجابيًا فى مجمله مع كنائس المسيحية الشرقية الأرثوذكس والكاثوليك العرب والكنيسة الإنجيلية والإنجليكانية.. ولا تزال عناصر المجتمع المدنى الدولى المناهض للتمييز والعنصرية والهيمنة والعولمة المتوحشة تمثل رقمًا كبيرًا يمكن فى حالة عدم الانجرار الخاطئ إلى المربع الذى يريده كل مروجى صراع الحضارات.. أن يشكل مع جوهر القيم الإسلامية ـ مليار ونصف مليار مسلم ـ الاستمرار الإيجابى كحوار إنسانى راق رغم أنف الحاقدين والموتورين.

مناظرة لمقال فريدمان بعنوان «إذا كانت المشكلة مشكلة مسلمين، فإن على المسلمين حلها...».

المثال الخامس: مناظرة مع فريدمان: الإرهاب الدولى مسئولية من؟

كيف وقع فريدمان فى فخ أخلاق القرية؟

كعادته يطرح الكاتب الأمريكى توماس فريدمان موضوعات تثير الجدل وتستدعى المناظرة والحوار، ولاشك أن مقاله فى جريدة النيويورك تايمز بعنوانه الطويل«إذا كانت المشكلة مشكلة مسلمين، فإنها تحتاج إلى حل من المسلمين..» (٢٠٠٥/٧/٨).. والمقال يعبر عن اختزال كبير لمشكلة الإرهاب الدولية، وهو يعبر كذلك عن قطاع كبير من الإعلام الغربى ويتأثر به عدد كبير من صانعى القرارات والجمهور العادى فى الغرب، ومن ثم وجبت مناظرته وسنقدم هذه المناظرة من خلال مستويين هما:

أولاً: تحليل طرح فريدمان من منظور نظرية الإدراك الذهنى لأطر المشاكل التفاوضية، وهذه نظرية راسخة فى لغويات التفاوض؛ لأنها تمد أى مفاوض بالأدوات الرئيسية التى تمكنه من التعرف الدقيق على حجم الأطر التى يتعين عليه تحديدها للتعامل مع مشكلة ما.. ولقد ثبت أن هناك الكثير من عمليات التفاوض تخفق بسبب أن الأطراف لم يستعينوا بالعلم الموضوعى لتحديد أطر المشاكل البسيطة، فما بالنا بمشكلة مركبة ومعقدة كمشكلة الإرهاب الدولى..

لقد قدم فريدمان فى طرحه بالمقام المشار إليه، والذى دعمه بنفس أسلوب الطرح الأحادى فى مقاله أخيرًا بعنوان «فقر الكرامة وثروة الغضب فى ١٥/٧/٢٠٠٥) مشكلة الإرهاب ذات الأطر المتعددة على أنها مشكلة المسلمين وكلفهم مشكورًا بحلها، وإلا كانت العواقب الوخيمة. وهنا نرى خطأً علميًا واضحًا يتكرر عندما يتم اختزال المشاكل متعددة الأطر إلى مشكلة ذات إطار واحد مبالغ فيه يتسم بالتعميم والاختزال غير العلميين.

وخطورة هذا «الإطار الإسلامى» المختزل بمعرفة فريدمان لا يمثل خطأ علميًا فقط، بل يمثل نوعا من إثارة التعبئة الجائرة ضد كل المسلمين فى العالم، وهنا تتم عملية التلاعب والترابط مع أطر الحملة المعادية للإسلام والمسلمين فى الإعلام الغربى فيكون الإطار الإسلامى الأحادى لفريدمان بمثابة نوع من سكب مزيدٍ من الزيت على النيران التى أضرمتها أقلام إعلامية متحيزة وجائرة فى تناولها للإسلام والمسلمين، والأدبيات الغربية التى كتبها غربيون منصفون عن هذه الحملة الجائرة كثيرة، ولقد أكد ذلك كوفى أنان فى دعوته لتحالف الحضارات لا لصدامها ولهذا سياق آخر..

إننا، وفى مناظرتنا لطرح فريدمان وتحميل كل المسلمين تبعات الإرهاب الدولى، نقول إن هذا الجو لا يمنعنا من الاعتراف بأننا فى العالم الإسلامى يتعين علينا القيام بدور مهم للغاية لمقاومة التطرف والإرهاب والقضاء عليه فى كل مكان فى العالم بدافع أنه النقيض الأكبر للإسلام الذى بعث رسوله ﷺ رحمة للعالمين، والذى يكرس أكبر الاهتمام لنعمة الأمن وعدم «ترويع الآمنين» وإفشاء السلام وإطعام الطعام وكل القيم السامية التى تجعله الدين الأكثر انتشارًا فى العالم اليوم رغم كل المظالم والمفاسد التى نراها.

ولكن مع هذا الدور المسالم الذى تقوم به الغالبية العظمى من مسلمى العالم المسالمين فى صمت وأهمية المزيد من تفعيله فإن الدور الذى يؤديه الغرب فى تحمل مشاكل الإرهاب ومقاومته فى العالم هو الدور الأكبر. فالمسئولية الغربية أكبر من المسئولية الإسلامية بكثير؛ لأن الغرب قد صدر للعالم الإسلامى مشكلات عديدة، وأسهم فى تأسيس فوضى كبيرة على مدى قرون من عدم المصالحة التى آن لها أن تتم لصالح العالم أجمع.

وهذه المصالحة تستدعى النقاش والحوار العلمى المستمر والمنصف والعادل، وإذا كنا قد بدأنا بأهمية نظرية تناول الأطر التفاوضية العلمية الصحيحة والمساعدة على حل مشكلة الإرهاب ـ موضع النقاش هنا ـ وكما انتقدنا طرح فريدمان نشير إلى الطرح الصحيح الذى لا يتناقض مع هذه النظرية، والذى تجلى فى ردود الفعل البريطانية التالية:

١- رد فعل تونى بلير عقب تفجيرات لندن، التى تؤكد على أنها جريمة شنعاء قام بها مجرمون، والتى حرص من خلالها على الفصل بين الإسلام والإرهاب.. بل عبر عن فخره بإنجازات الجالية الإسلامية فى إنجلترا وأشار إلى أن مشكلة الإرهاب هى مشكلة ذات أبعاد متعددة، ولها ارتباط كذلك بأهمية حل عادل لمشاكل الشرق الأوسط وتحتاج إلى معادلة متكاملة وهذا كلام يضع المشكلة فى أطرها المتعددة بعيدًا عن الاختزال الأحادى.

٢- كذلك صرح أحد رجال الأمن البريطانيين عقب التفجيرات أن هذا وقت عصيب لنا جميعًا وعلى الجاليات أن تتوحد، وأن العمل الإجرامى الذى استهدف لندن كان عمل المتطرفين والمجرمين،

من هنا فإن علينا التأكيد، أنه يتعين على الجميع ألا يصم أو يسيء إلى أى جالية أو أن يجعلها مسئولة عن الإرهاب.

٣- فى البرنامج الشهير الذى تقدمه الـBBC بعنوان الحوار الصعب (Hard Talk) فى ٢٠٠٥/٧/١٣، قال السيد فرانكو فراتينى - ممثلُ مفوضية الاتحاد الأوروبى لشئون العدل والأمن، فى رده على سؤال متحيز جاء كما يلى: «هل ستقومون فى دول الاتحاد باتخاذ إجراءات صارمة وتصعيدية ضد الجاليات المسلمة؟!

فكانت إجابة السيد فرانكو بعيدة عن تفخيخ السؤال.. ومتميزة حين قال: «الإرهابيون أفراد فقط» وليسوا جاليات وكرر هذه العبارة للتأكيد عليها، وأعتقد أن هذه الإجابة تصلح شعارًا ينبغى ترديده فى جميع وسائل الإعلام المنصفة.. وأضاف مؤكدًا أن مشكلة الإرهاب مشكلة دولية معقدة ومركبة وتحتاج إلى معادلات متكاملة. ومتوازنة.. دقيقة وعادلة.

.. ولعل فى النقاط الثلاث السابقة ما يصحح خطأ الإطار الأحادى الذى وقع فيه فريدمان.

فريدمان ومباريات المعلومات الخاطئة.

ثانيًا: المستوى الثانى من التحليل والمناظرة لطرح فريدمان والمعبر عن قطاع كبير من الميديا الأمريكية خاصة يتمثل فى البعد العلمى التفاوضى الخاص بما يسمى بمباريات المعلومات.

ذكر فريدمان معلومة خاطئة حينما قال: «لم يطلع علينا وإلى اليوم أى من شيوخ المسلمين أو أى مجالسهم بفتوى تدين إرهاب وفكر بن لادن..» لكن هذا غير صحيح، فهناك مئات من علماء المسلمين ومجالسهم ممن أدانوا الإرهاب بكل أشكاله فى كل حدث

مؤسف وأدانوا فكر ابن لادن بوضوح شديد، وشبكة الإنترنت زاخرة بهذه البيانات وعليه أن يدخل على أى موقع إسلامى ليرى بنفسه.

فريدمان و«فخ أخلاق القرية»!!

ثالثا: من الأجزاء الطريفة فى مقال فريدمان تلك الأجزاء التى كرر وأكد فيها أهمية دور القرية وكبرائها فى العالم الإسلامى وما ينبغى لها أن تؤديه فى توضيح العيب والمباح ودعم التصرفات السوية ومنع التصرفات المشينة.. وطالب العالم الإسلامى والقرية وكبراءها بأداء دور التأكيد على العيب و«اللى ما يصحش!».

ولعلى ألفت نظر الأستاذ فريدمان لخطب الرئيس الراحل أنور السادات رحمه الله التى كان لا يخلو العديد منها من الإشارة إلى «أخلاق القرية» مما يدل على عمق وتأصل معرفتنا لدور القرية والأخلاق الإنسانية والشهامة التى يتسم بها أهل القرى عندنا؛ أى وبصراحة نحن لا نريد من يعرفنا بهذا الأمر.. ولكننى أطالب الأخ فريدمان أن يكتب فى مقالاته القادمة إجابات للأسئلة التالية عن أخلاق القرية:

١- أين كانت أخلاق القرية ومَنْ أهلُها وكبراؤها وما نوعها فى الغرب ممن قاموا بأبشع صور التصرفات التى يندى لها جبين الإنسانية فى سجن أبو غريب؟!

٢- أين كانت أخلاق القرية ومن هم أهل القرية الذين دنسوا القرآن الكريم فى جوانتنامو ودنسوا وانتهكوا حرمة المساجد فى العراق وفى فلسطين المحتلة وفى أماكن أخرى فى العالم؟

٣- أين كانت أخلاق القرية، ومن هم أهل القرية الذين قتلوا مئات الآلاف من العراقيين وحاصروا ملايين أطفالهم الأبرياء وضربوهم بقنابل

محرمة وخلقوا فوضى عارمة غير مسبوقة فى العراق، وتسببوا فى مقتل وإصابة الآلاف من الجنود الأمريكيين الذين كان لهم ولأمريكا أن يعيشوا بلا هذه الخسائر الكبيرة بدون حرب افتقدت إلى كل مقومات الشرعية الدولية، وأوجدت فى تبعاتها التى حذرت مصر وحذر الكثير من المنصفين فى العالم منها.. وكان آخرها هذا العمل البربرى الهمجى الذى يكتنفه الغموض لمقتل سفيرنا فى العراق ـ رحمه الله؟!

٤- مَن أهلُ القرية ومن كبراؤها ممن صنعوا تنظيم القاعدة.. وأتذكر هنا قلمًا أمريكيًا متميزًا عن الخيال العلمى كان بعنوان «كيف تصنع وحشًا كاسرًا؟!!

إن قائمة الأسئلة قد تمتد كثيرًا على هذا المنوال، ولكن يكفى أن أدعو فريدمان لقراءة كتاب أمريكى متميز للباحث الأمريكى سام كين بعنوان «وجوه العداء» وهو كتاب رائع لفهم «عقلية الحرب» وعقلية الإرهاب وأهمية تفكيكهما.. وأهم ما يقوله فى سياقنا هذا مايلى:

«إذا أردنا أن نجد حلولاً جديدة لمشكلاتنا المعقدة فإن علينا أن نتحمل المسئولية لما خلفناه فى الماضى».

«كتاب وجوه العداء» لهاربر أندرو.. ١٩٨٦ ص ١٦٩».

فهذا السبيل لحل المشاكل.. فهل يتضح لفريدمان ولكل مؤيديه فى الرأى.. أهمية الأطر الأخرى المولدة لسياقات الفوضى والإرهاب وتساقط «الغبار اللاحضارى ويعد كل أحداث الحرب والإرهاب وأهمية المحافظة على شعور غالبية المسلمين وإنصافهم، لأنهم أكبر قوة حقيقية بحكم توجههم الطبيعى لأن يقولوا ألف «لا» للإرهاب بكل أشكاله فى كل مكان من هذا العالم!!

المثال السادس: في الملف السياسي وبمناسبة مرور الذكرى الثلاثين لمبادرة السادات

هل وقع السادات في فخ كيسنجر أم أن كيسنجر قد وقع في فخ السادات؟!

هذا سؤال من الأسئلة المركبة؛ فأي حدث تاريخي بمثل حجم ما حدث في إدارة أزمة حرب أكتوبر رمضان وما أعقبها مباشرة يحتاج إلى أن يكتب بعد خمسين عامًا كقاعدة معروفة تسمح بأن تنجلي الحقائق بدقة أكبر.. بعيدًا عن الانطباعات الإطلاقية أو التحليلات الانطباعية التي تزخر بها تفاعلات كثيرة... ولذلك فإنني سوف أثير أكبر قدر من الأسئلة المحورية بخصوص «من الذي وقع في فخ من؟» وأحاول تقديم بعض الإجابات أو بمعنى أدق مؤشرات للإجابة.

ولنبدأ في هذا النشاط التفكيري في هذا الصدد، برصد مقولة إن كيسنجر قد وقع في فخ السادات...

ويتمثل ما يدعم هذا الاتجاه فيما يلي:

١ - كتاب حديث صدر عام ١٩٩٩م لجوزيف فينكليستون وهو كاتب يهودي إسرائيلي الجنسية ويعمل في جريدتي الخبر ومعاريف اليهودية بلندن، وهو خبير بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة أكسفورد وجاء الكتاب بعنوان «السادات: وهم التحدي»

(وهو من إصدارات الدار العالمية للكتب والنشر طبعة ١٩٩٩) حيث يصف ما أسماه «بالخدعة الكبرى» ويقصد حرب رمضان ١٣٩٣هـ أكتوبر ١٩٧٣م وكيف مارس السادات فنون الخداع الاستراتيجى إلى أن باغت إسرائيل بأول هزيمة عسكرية فى تاريخها، ويتحدث هذا الكاتب عن أساليب السادات فى الخداع مع خصومه... كما يعتبر أن السادات قد خدع كيسنجر... هذا من ناحية.

أما من ناحية أخرى ـ وقبل زيارة السادات للقدس ـ ارتبك موردخاى جور رئيس الأركان فى جيش الدفاع الإسرائيلى بشكل كبير لدرجة أنه صرح فى مقابلة له عن اعتراضه وتحذيره من زيارة السادات للقدس، وكان ذلك دون إذن من وزير الدفاع الإسرائيلى حينذاك وهو عيزرا وايزمان بشأن الحوار للصحف، وكان ذلك بمثابة مشكلة كبيرة بينهما... ولكن موردخاى جور فعل ذلك من ارتباكه وخوفه مما أسماه «بخداع السادات»، فلقد كانت المعلومات كلها تؤكد أن الجيش المصرى سيقوم بشن حرب جديدة عام ١٩٧٨ لاستكمال تحرير سيناء وأن إعلان السادات عن زيارته للقدس لا يعدو إلا أن يكون مجرد حركة خداع استراتيجى أخرى، خاصة وأنه صاحب ذلك مناورات واسعة للجيش المصرى، ولقد كان ذلك قبل زيارة السادات لإسرائيل بخمسة أيام فقط، حيث زخرت تلك المقابلة التى نشرتها صحيفة «يديعوت أحرونوت» وتناقلتها صحف ووكالات أنباء عديدة بأوصاف لموردخاى جور تحذر من «خداع السادات» وأنه كان غير معجب بتوجيه بيجين للسادات لهذه الزيارة التى حرك الطلبَ لها الساداتُ عكس كل التوقعات، ورأى جور فى تلك المقابلة أنه حتى وإن كانت نية السادات هى السلام وليس خدعة

الحرب، فإن الزيارة ستجعله «أشهر رجال السلام فى العالم» وهذا سيجعل عدم الوصول إلى سلام مع إسرائيل يقع على مسئولية إسرائيل أمام العالم كله.

لقد دب خلاف كبير بين عيزرا وايزمان ورئيس أركانه حينذاك، حيث غضب وايزمان؛ لأنه فوجئ بآراء رئيس أركانه منشورة فى الصحف دون إذن منه، ولكن كان دفاع جور عن نفسه من جراء هذا الانتهاك للقواعد هو أن يطلق «صرخة تحذر من خداع السادات»، خاصة وأن إسرائيل قد عانت كثيرًا عندما أُخذت على حين غرة بسبب ممارسة السادات لأساليب معقدة فى الخداع الاستراتيجى قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣م رمضان ١٣٩٣هـ.

وإذا كان ما ذهب إليه جور من تخوفاته من خداع السادات وخدعه التى لا تنتهى - وهو الأمر الذى جعل رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية (عميد شلومر جازيت) يقول: «إن السادات يشبه بطل سباق الحواجز الذى تجاوز جميع الحواجز ووقف عند خط النهاية».. وهذا الوصف أعجب وايزمان وزير الدفاع لدقته من وجهة نظره.

وإذا كان هناك كل هذه المقولات والتشبيهات عن خداع السادات لإسرائيل، فإن كتاب چوزيف فينكليستون يذهب إلى أن السادات قد مارس هذا الخداع مع كيسنجر كذلك؛ أى وبمعنى مصطلحات هذا الكتاب أن هناك ما يشير إلى أن كيسنجر قد وقع فى فخ السادات..

أما الأدبيات والآراء التى تقول إن السادات قد وقع فى فخ كيسنجر وفخاخ عملية السلام برمتها، فهى أدبيات كثيرة جدًا فى واقعنا العربى، خاصة وإنه قد أقدم على «أم المصائب» كلها، فهى

كثيرة، ومنها ما هو انفعالى وغث، ومنها ما اتسم بمحاولة جادة للتحليل الذى يخلص إلى أن السادات قد وقع فى فخ كيسنجر وغيره، وأحد أهم هذه الأدبيات كتاب مهم لوزير خارجيتنا الراحل إسماعيل فهمى الذى عمل عن قرب من الرئيس السادات واستقال من وزارة الخارجية اعتراضًا واختلافًا مع أسلوب الرئيس السادات فى زيارته للقدس أو فى توقيعه لمعاهدة السلام، والكتاب بعنوان «التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط»، ولقد نشرت دار الشروق طبعة حديثة منه فى عام ٢٠٠٦م وقدم له كل من الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى، ود. محمد البرادعى المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، والكتاب يرصد كثيرًا من نواحى الخلل فى نهج السادات وبمصطلحات كتابنا هذا.. فإن مثل هذا الكتاب يصل إلى أن السادات هو الذى وقع فى الفخ، خاصة عند رصد إسماعيل فهمى للمواد المجحفة فى اتفاقية كامب ديفيد وتحليله لها...

ولكن عندما كنت أناقش هذا الأمر أو بمعنى أدق هذا السؤال: مَن وقع فى فخ مَن؟ ذهبت الأغلبية المطلقة لثلاثين من طلاب الدراسات العليا فى كورس «المفاوضات السياسية الدولية» الذى أقدمه فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة بالإجماع الآتى:

١- أن السادات نجح فى الحصول على حقوقنا واسترداد سيناء التى كانت «الجائزة الكبرى لإسرائيل بما فيها من موارد وعمق استراتيجى وأبعاد توارثية» بغض النظر عن نصٍّ هنا أو نص هناك أو هذه المادة أو تلك، وأنه فتح مجال السلام لجميع الأطراف العربية ولكنها هاجمته..

٢- ذهب بعض المشاركين فى الكورس إلى أن من أهم ما يميز السادات أنه قد ضرب لعبة «إفشال السلام» وتفريغه من مضمونه، خاصة فى اللحظات الأخيرة من قرب حدوث انفراجة، فهذا نمط اشتهر به المفاوض الإسرائيلى على مدى كل عمليات السلام بمسمياتها المختلفة الكثيرة، والتى دخل العرب فيها... ولكن حينما حاول المفاوض الإسرائيلى إفشال مسعى السادات النهائى - وقد حدث وبعدة طرق ملتوية - كان السادات لها بالمرصاد وبالدهاء فمنع ذلك المفاوض من ممارسة لعبة الإفشال..

ويبقى أن ننهى هذا الجزء بعناصر أهم ملامح الحوار التفاوضى الصراعى بين كيسنجر والسادات وهو ما رصدتُهُ فى مقال سابق، وأترك لخيال وحكم القارئ أن يقرر: من وقع فى فخ من، وذلك فيما يلى:

حرب ٧٣ وقراءة فى حوار صراعى بين السادات وكيسنجر

حاولنا فى المقالين السابقين ٥/١٠/٢٠٠٦ و١٢/١٠/٢٠٠٦ تقديم رؤية تحليلية لتفاعلات لها مغزاها الخاص فى خضم إدارة الأزمة الدولية التى فجرتها حرب رمضان ١٣٩٣هـ أكتوبر ١٩٧٣م المجيدة، وذلك من خلال ما توافر من وثائق وتفاعلات لم يتم إخضاعها كلها للتحليل العلمى، أو تم إغفالها وينبغى إظهارها واستدعاؤها لاستخلاص الدروس المستفادة بدقة، بل إن الأسوأ من ذلك أن تعرضت وقائع وتفاعلات من تفاعلات تلك الأزمة إلى التحليل الناقص أو الخاطئ أو المشوه للحقائق سواء فى مقالات وكتابات فى الواقع العربى أو الواقع الغربى.. من هنا قدمنا دراسات أكاديمية سابقة فى هذا السياق، وأشرنا لبعض هذه الوقائع فى

المقالين السابقين، ففى مقالنا بعنوان «جمع البغى حشوده» فى ٢٠٠٦/١٠/٥ أوضحنا كيف تعاملت القيادة السياسية والعسكرية المصرية مع مجموعة موانع عبور القناة، وهى عديدة، مع التركيز الأساسى على مانع كان له طبيعته الخاصة، وهو المتمثل فى عملية تخلص مصر من «الخبراء الروس» بعد أن تحولوا إلى ما يماثل «أحد موانع» أو عوائق تفعيل معركة العبور المجيدة.. كذلك كان الهدف من المقال الثانى فى هذه السلسلة بعنوان «حرب ٧٣ وسبب الوصول لحالة التأهب النووى» ٢٠٠٦/١٠/١٢ هو تقديم رؤية مبنية على تحليل ملابسات حادث «التأهب النووى الدولى» خاصة أن الكتابات والطروحات التى تناولت هذا الحادث لم تتناوله من أبعاده المتعددة وتم اختزاله واعتباره ولو بأسلوب غير مباشر وكأنه خارج سياق «الإدارة المصرية الفاعلة للأزمة».. من هنا واستكمالاً لتوضيح هذا النهج ومنظومة التفاعلات التى جسدته، نرصد بالتحليل الموجز فى هذا المقال وثيقة وحوارًا من أهم تفاعلات تلك الأزمة وذلك فيما يلى:

١- وثيقة الاعتراف بالانتصار المصرى بتوقيع الرئيس الأمريكى نيكسون: وتعتبر هذه الوثيقة والمتمثلة فى ذلك الخطاب الذى أرسله ريتشارد نيكسون إلى السادات بعد العبور الناجح لقواتنا الباسلة والعصف بقوات العدو شرق القناة وتدمير خط بارليف، وثيقة على درجة كبيرة من الأهمية، خاصة للرد على حملات تزييف نتائج هذه المعركة.. حيث يقول نيكسون فى ذلك الخطاب ما يلى بالنص: «إن الولايات المتحدة تريد إنهاء القتال الدائر على جبهة قناة السويس؛ لأن هذا من شأنه تسهيل الأمور نحو الوصول

إلى السلام وإلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى. إن القوات المسلحة المصرية قد حققت وأنجزت الكثير على أرض القتال، وإن شعور الهزيمة الذى شعر به المصريون والعالم العربى كله عقب حرب ١٩٦٧، قد تم محوه تمامًا.. فلقد بزغ اليوم موقف استراتيجى جديد يؤكد على عدم إمكانية أى طرف الاعتماد على القوة العسكرية فقط، بل إن ذلك قد أصبح من الأوهام» ولقد ورد نص هذه الوثيقة فى كتاب هنرى كيسنجر بعنوان «سنوات الغليان» ص ٥٣٠ ـ وهو نفس عنوان لكتاب للأستاذ هيكل ولكن كيسنجر كتب هذا العنوان فى تاريخ أسبق ـ ويستمر الخطاب حتى يتضمن فى آخر فقراته ما نصه حرفيًّا «أن على الجانب المصرى بالتالى أن يسعى نحو السلام، وأن يتخذ قرارًا فى هذا الاتجاه؛ لأنه لو أصرت مصر على التركيز إلى أقصى حد على أرض المعركة العسكرية فقط، فإن الجانب الأمريكى لا يعرف كيف ستكون النتائج النهائية لهذا السعى» لقد كانت هذه الفقرة بمثابة نوع من التهديد الضمنى للسادات، وكان يدعم هذا التهديد ما هو خارج نص الخطاب، حيث كان هناك الكوبرى الجوى الذى استنفد كل مخازن الجيش الأمريكى حيث ألقت أمريكا بأرتال ضخمة من الأسلحة التى وضعت عليها نجمة داود لإنقاذ إسرائيل من الهزيمة الساحقة.. لقد كانت هذه الوثيقة بمثابة الاعتراف بالنصر والاعتراف بأن زمام المبادأة كان فى يد القيادة المصرية العسكرية والسياسية معًا.

وإذا كان هذا التفاعل يسجل أول تهديد ضمنى ولو أنه صيغ بأسلوب ذكى وغير مستفز، إلا أن الجولة التى تلت مرحلة ما بعد الثغرة، والتى تم حصارها حيث كانت خطة «شامل» جاهزة للتنفيذ

لتدمير هذه الثغرة فى ديسمبر ١٩٧٣م قد شهدت حوارًا صراعيًا للغاية بين كل من الرئيس السادات رحمه الله ووزير الخارجية الأمريكية هنرى كيسنجر الذى فوضه نيكسون تفويضًا كاملاً.. وفرض هنا ذلك الحوار الممتد على فترتين إحداهما فى نوفمبر ١٩٧٣م والثانية فى ١١ ديسمبر.. ففى لقاء نوفمبر حيث كانت أول زيارة لكيسنجر لمصر جاء الحوار هكذا:

كيسنجر: «أنت أزمت الموقف دوليًا، وأنا جاى لك لكى نحل هذه الأزمة سويًا».

السادات: «أنا عاوز خط ٢٢ أكتوبر؛ أى ما قبل امتداد الثغرة حيث إننى أحاصر قوات إسرائيل ٤٠٠ دبابة بـ٨٠٠ دبابة مصرية وأمام كل دبابة صواريخ مضادة للدبابات وإنهم محاصرون تمامًا ومدخلهم ٦,٥ كيلو متر فى شرق القناة عند نقطة المفصل الفارغة بين الجيشين الثانى والثالث فى شرق القناة وإننا قادرون فى حالة استئناف القتال أن نغلق هذا المدخل تمامًا.. يعنى هذه القوات مقضى عليها تمامًا.. مش عاوزة جدال.. وهنا اتفق الطرفان بعد حوار تفصيلى امتد ثلاث ساعات على ست نقاط كان من بينها أن تبدأ محادثات على الكيلو ١٠١ من أجل فصل القوات.. وقد حدث ذلك بالفعل، ولكن عندما أخفقت المفاوضات فى الوصول إلى نتائج حاسمة كما كان يريدها الجانب المصرى الذى كانت له اليد العليا.. أشار السادات إلى أنه على استعداد لتصفية ثغرة الدفرسوار، خاصة أن القوات المصرية لم تتوقف عن تضييق الخناق على قوات الثغرة يوميًا منذ «وقف القتال» رسميًا حينذاك، وهنا تدخل كيسنجر مرة أخرى وحضر بنفسه فى ١١ ديسمبر ٧٣ ودار الحوار التالى بينه وبين السادات:

كيسنجر: أنا قبل أن أحضر إليك عارف إنك جاهز.. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطوني تقريرًا كاملاً عن الموقف العسكري، ونعلم أنك فعلاً تستطيع أن تصفي هذه الثغرة.. ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا فإن البنتاجون سيتدخل على الفور.. وأضاف أن البنتاجون سيتدخل بكل قوة، لأنه لن يسمح بذلك.

وانتهى ذلك الحوار الصراعي بأن أكدت الولايات المتحدة على أنها تريد أن تكون الوسيط الإيجابي لتحقيق تسوية سلمية في الشرق الأوسط، وبدأت العجلة تسير في تفاصيل عملية السلام المعروفة، والتي امتدت لفترة طويلة إلى أن تم في بداياتها استعادة سيناء كلها وتدمير ١١ مستعمرة إسرائيلية كانت تدل على نية إسرائيل في البقاء الطويل «إلى ما لا نهاية» في سيناء الحبيبة.. ويبقى للحوار ولتحليل العملية السلمية بعد ذلك - وإلى ما وصلت إليه اليوم من صمود وانهيار - سياق تفصيلي قادم.. والله ولي التوفيق وهو وحده المستعان.

المثال السابع: أنابوليس بين دوافع التفاوض وفخاخه العشرة:

التفاوض عملية شاقة وطويلة الأجل وثقافة التفاوض الإيجابى تحتاج منا إلى أن نزرعها فى مناهجنا وإعلامنا لإدارة الكثير من الصراعات والمواقف التى تحتاج إلى إدارتنا. واجتماع أو مؤتمر أنابوليس الذى عقد مؤخرًا فى الولايات المتحدة وبرعايتها قد ضم حشدًا كبيرًا من الأطراف والمؤسسات والمنظمات الدولية كما شهد ملمح اشتراك سوريا فى فاعلياته بعد أن كانت الإدارة الأمريكية تعتبرها (جَوْرًا) من دول محور الشر!! إذن فإن دوافع التفاوض وأچندته قد تفاوتت بتفاوت مواقف كل الأطراف المشاركة.. بما فى ذلك التفاوت الواضح بين مواقف أمريكية تنتمى إلى مؤسسة الخارجية الأمريكية ومواقف «صقور اليمين» المتمثلة فى ديك تشينى وفريقه.

نعم هناك دوافع متفاوتة حتى فى الداخل الأمريكى ذاته، كذلك من المهم أن نقر أنه فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى فإن هناك صراعًا وتأرجحًا لسيناريوهات أربعة محورية الأول: «الأرض مقابل السلام» وهو الذى تمثله الأچندة العربية، والثانى: «السلام مقابل الأمن». وهو إسرائيلى فى الأساس. والثالث: هو تسكين يعنى توقف تدهور الأمور من خلال «عملية السلام» حتى ولو كانت

«شكلية» للتسكين والتهدئة بدلاً من انفجار الأوضاع ووصولها إلى الأسوأ وهو الأمر الذى حدث بالفعل كما حدث باندلاع الحرب الإسرائيلية اللبنانية عام ٢٠٠٦ أما السيناريو الرابع والأخطر وهو التفتيت؛ أى تفتيت المنطقة وإدارتها من خلال «الفوضى الهدامة إياها» هذه هى السيناريوهات الأربعة المحورية لهذا الصراع، ولذلك فإن التحدى الرئيسى أمام المفاوض العربى هو جذب وتحريك التفاعلات فى اتجاه السيناريو الأول؛ أى الأرض مقابل السلام، أى السلام العادل بعيدًا عن متاهات ومخاطر السيناريوهات الثلاثة الأخرى، كما أن على المفاوض الممثل للواقع العربى أن يعى حقيقة أن تدشين مسارات ابتكارية لبناء القوة العربية بكل ما تعنيه الكلمة من تكتلات اقتصادية وتفعيل للقاعدة العلمية والتعليمية ينبغى أن يكون هو الهم والهدف الرئيسى لهذا المفاوض العربى؛ لأن هذا هو المسار الرئيسى الفعال لرد الأمور لنصابها نحو «السيناريو الأول» وتحقيق السلام العادل، وفى إطار هذه الرؤية الكلية لمسارات وسيناريوهات الصراع نتحدث هنا عما أسميه «الفخاخ العشرة» التى يمكن رصدها من ملفات التفاعل حول مؤتمر أنابوليس بهدف التعامل الحريص والواعى معها فى مسارات التفاوض و«اللاتفاوض» الوعرة، خاصة فى إطار هذا الصراع العربى الإسرائيلى الممتد وهنا نرصد ما يلى:

١ـ فخ «يهودية الدولة العبرية» وهل يعنى بلغة مراوغة «خطة التهجير»؟!

هذا الفخ أو هذا اللغم من أكثر الفخاخ أو الألغام خطورة فلقد صرحت وزيرة الخارجية الإسرائيلية «تسيبى ليفنى» بتصريح يبدو

براقًا، ولكنه خطير ومستفز فى دلالاته، حينما قالت: «إن الدولة الفلسطينية ستقدم الحل لحاجات الفلسطينيين عبر العالم بما فى ذلك حاجات الإسرائيليين العرب.. فكل هؤلاء سيجدون الإيفاء بطموحاتهم وحاجياتهم الوطنية عند إنشاء هذه الدولة الفلسطينية». انتهى كلام «ليفنى» الذى يبدو جيدًا فى ظاهره أمام العالم، ولكن من لا يربط هذا التصريح بالأچندة الإسرائيلية المحورية والأغرب فى تاريخ العلاقات الدولية؛ والمتمثلة فى رفع سقف الدين فوق كل سياسة هو «السعى إلى إقرار مبدأ يهودية الدولة»، ومن خلال تبنى هذه الأچندة فى اجتماع «أنابوليس» ومما زاد الطين بلة تطوع بوش بوصف تأكيدى لإسرائيل «بأنها وطن للشعب اليهودى» وخطورة طرح الثلاثى ليفنى وأولمرت ومعهما بوش لذلك وفى سياق افتتاح مؤتمر للسلام ـ يجعله طرحًا يضرب فى الصميم ويسقط حق عودة اللاجئين الفلسطينيين.

بل الأخطر من حق عودة فلسطينيين من الشتات عبر العالم هو أن عرب إسرائيل يربطون هذا الأمر ويرونه على أنه بداية للسعى لأن يتم تهجير ما يقرب من مليون ونصف عربى من عرب إسرائيل إلى تلك الدولة الفلسطينية الذى يتحدثون عنه لتحقيق الحلم الصهيونى، بإنشاء «دولة يهودية خالصة» والسؤال الراهن هنا: هل ما تحدثت عنه وزيرة الخارجية عن «الدولة الفلسطينية إياها» وما تحدث عنه أولمرت عن «يهودية الدولة العبرية» يدخل فى «أسلوب مراوغ للتعبير عن سياسة التهجير التى رفضها المجتمع الدولى.. وهل وعد بوش المتفق مع أولمرت يتضمن فى طياته هذا «الفخ»!!

«فخاخ التفاوض» العشرة وأنواع «الهزائم» فى أنابوليس..(٢)

تحدثنا فى المقال السابق بعنوان: «أنابوليس بين دوافع التفاوض وفخاخه العشرة (الخميس ٢٠٠٧/١٢/٦) عن الدوافع المختلفة للمجتمعين فى مؤتمر أنابوليس المنصرم وأشرنا إلى المقصود بـ«فخاخ التفاوض» وأشرنا إلى فخ «يهودية الدولة العبرية» وأوضحنا أبعاد هذا الفخ الذى يعيد للأذهان وبأسلوب مراوغ جريمة «التهجير» Transfer التى وقف العالم ضدها.. حيث يعتبر «فخ يهودية الدولة» غطاءً لتفعيل تهجير فلسطين وعرب الداخل الإسرائيلى والبالغ عددهم مليون ونصف تقريبًا إلى «الدولة الفلسطينية» حسب التفصيل الإسرائيلى...

وفى هذا المقال فرض الفخاخ التالية:

٢ـ فخ «المباراة الصفرية الإسرائيلية» ومربع «هزمنا فى أنابوليس»!!

من خلال الاطلاع على ملف المقالات التى كُتبت عن مؤتمر أنابوليس توقفت أمام مقالة للكاتب الكبير فهمى هويدى بعنوان: «هُزمنا فى أنابوليس بوثيقة قاصمة» (الأهرام ٢٠٠٧/١٢/٤)

وهى تعبر عن مقالات أخرى كثيرة تعبر عن نفس المعنى الواضح فى العنوان: «وهى أننا كعرب سواءً المفاوض الفلسطينى أو الأطراف العربية قد تلقينا هزيمة قاصمة ساحقة، ورغم أن الأوضاع على الأرض والواقع يمكن تفسيرها هكذا إلا أنه يمكن القول كذلك بأن المؤتمر لم يحقق أى شىء يذكر وأن ننادى بالتحفظ على أى نتائج مترتبة عليه بدلاً من الوقوف على مربع الهزيمة، فى إطار هذا الصراع

العربى الإسرائيلى الفلسطينى؛ لأن ذلك سيزيد من شراسة العدو الإسرائيلى ولن يكون مفيدًا أن يتم ترسيخ هذا المربع وتأصيله، فأسلوب المفاوض الإسرائيلى على مدى التاريخ الطويل يتسم بانتهاج «المباراة الصفرية» بأشكالها وتنوعاتها SUM - ZEROGAME.. وهذه المباراة تعنى الحصول على كل شىء على حساب الطرف الآخر ومصالحه وأن مباراة المكسب للجميع (WIN – WIN) النقيضة لذلك لا تدخل فى قاموس مثل هذا اللاعب السياسى... ولكن من المعروف علميًّا وواقعيًّا أن إدارة المباراة مع مثل هذا النوع من المفاوضين لا تكون بناء على «حسن نيته» بالطبع أو التوقع بأن يغير من سلوكه طواعية، بل إن هناك مباراة ينبغى أن يدار من خلالها مثل هذا الصراع وهى (VARIABLE SUM) أى تلك المباراة التى لا يجد مثل هذا اللاعب الصفرى مخرجًا له سوى الإذعان لمباراة يُجبر فيها بحزمة من الأساليب الفعالة على تقبل مباراة «غير صفرية»... وهذا يحتاج إلى أن يكون جهد المفاوض العربى منصبًّا أساسًا على كل ما يقوِّى أوراقه ووضعيته التفاوضية وحالته النفسية كذلك والمتمثلة فى أبجدياتها فى عدم الوصول إلى مرحلة اليأس، وهنا لابد من بذل كل الجهود من أجل إعادة اللحمة بين غزة والضفة... وتعظيم التقارب العربى العربى على الأصعدة المختلفة خاصة لتعويض الخلل الهيكلى الذى حدث باحتلال العراق وحصاره تداعيات لا تزال خطيرة كذلك من أهم متطلبات هذا المسعى رفض الوقوف على هذا المربع المسمى بـ«هزمنا فى أنابوليس» أو ما على غرار ذلك هنا أو هناك لأن ترسيخ الوقوف على هذا المربع على المستوى النفسى العام فى النفسية العربية هو من أهم ما يسعى إليه المفاوض الصفرى الإسرائيلى لترسيخه، فهذا

المفاوض لم يتأخر عن التأكيد على شراسته الصفرية حيث أطلق أولمرت لاءات ثلاثة فور انتهاء المؤتمر بخصوص «عدم الالتزام بجدول زمنى للانتهاء من المفاوضات فى نهاية ٢٠٠٨م بحيث يمكن أن تتم إلى ما لا نهاية ودون حسم».

و«الاعتراض الواضح على حق العودة للفلسطينيين» و«تأكيد يهودية الدولة.. ولا للتفاوض على «قبة الصخرة» ووضع القدس، ثم جاء قرار استمرار الاستيطان فكان الحرج وملامح الهزيمة، ففى أى نتيجة، ولو شكلية، لأنابوليس كما ظهر فى كلمة كونداليزا رايس التى أدانت هذا الاستئناف، وقالت إنه لا يخدم «إجراءات بناء الثقة»، وفى الحقيقة كانت هذه لغة هى الأخرى قمة فى المواربة... ففى الحقيقة أن إسرائيل قد هزمت محاولات الإدارة الأمريكية الحالية (وصاحبة التاريخ المؤسف فى فعل كل ما يهدم أى ثقة سواء فى الصراع العربى الإسرائيلى أو فى التحركات الأمريكية فى المنطقة) ... ولكن الهزيمة الفعلية هنا من جراء «الشراسة التسلطية البدائية للمفاوض الإسرائيلى تمثلت فى إذلال جورج بوش نفسه وحرمانه من محاولة «تسكين الصراع ولو لحين؛ لينتهى من «الفخ رقم (٣) وهو فخ التسكين فى الصراع العربى الإسرائيلى من أجل مباراة أكثر أهمية للإدارة الأمريكية مع إيران وممارسة المزيد من الجهود فى هذا الاتجاه الصراعى، بحيث يكون «أنابوليس» غطاءً فقط لإدارة صراع مع إيران... وهو ما أفشله أولمرت.

الهزيمة هنا إذن مُقَسَّمة ـ ولو بنسب مختلة ـ فمنها ما يعتبر هزيمة حتى للأجندة المخادعة الأمريكية لجورج بوش الذى أراد شيئًا (فى نفس يعقوب) من وراء المؤتمر فضرب أولمرت هذا الهدف «المراوغ» على عكس رغبة بوش... والنقطة هنا ما دام هناك مَن «انهزم»

فبالتأكيد هناك مَن انتصر.. فهل انتصر أولمرت هنا «الضعيف» حقًا؟! والمهزوم فى حرب لبنان باعتراف إسرائيل.. (٢٠٠٦).

... أتذكر مقولة تاريخية مهمة هنا عندما طُلب من أحد القادة المنتصرين فى الحرب العالمية بأن «يسوى ألمانيا بالأرض» فقال: إذا كان هناك تعبير يقول «ويل للمهزوم».. فإن هناك تعبيرًا آخر حقيقى وهو «ويل للمنتصر» بمعنى أن من ينتصر لأچندته بأسلوب صفرى إقصائى... فإن هذا يولد طاقة الانتقام ولو بعد حين، وعادة يولد طاقات لا قِبل بها لأى «محتل غاشم» عبر التاريخ كله.. فالظلم لا يحقق الانتصار لأنه دائمًا إلى حين..

فالجميع منهزمون بدون السلام العادل... والصراعات قد تمتد لعقود فى حياة الأمم.. المهم ألا تصل إلى مرحلة الهزيمة النفسية...

٤ـ فخ التوقيت وإدارة الوقت:

من فخاخ التفاوض المعروفة هو إهدار الوقت وعدم التحرك فى التوقيت المناسب، وهذا الموضوع له أهمية خاصة فى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى، وسوف نتناول هذا الموضوع فى سياق تفصيلى آخر... حيث يمكننا أن نضع أحد عناوينه ليكون أكثر وضوحًا فنقول مثلاً: ما بين «أنابوليس» و«ميناهاوس» حيث كانت دعوة السادات لكل الأطراف للتفاوض فى ظل تأثير نصر أكتوبر ١٩٧٣م رمضان ١٣٩٣هـ وسلاح البترول والتوحد العربى حينذاك بمثابة توقيت كان لابد من استغلاله من الجميع، ولكن المفاوض الفلسطينى ممثلاً فى الرئيس الراحل عرفات فى ذلك الوقت لم يكن مدركًا للموقف ولم تكن له رؤية صائبة... ولكن إدراكه للموقف جاء بعد ذلك متأخرًا للغاية فدخل باب التفاوض السلمى بعد عشرين عامًا من دعوة السادات له.. واليوم دخلت سوريا فى عام ٢٠٠٧م

لمفاوضات أنابوليس وخرجت خالية اليدين.. وليس الهدف من هذا هو الحديث عما مضى بقدر ما هو إشارة لتجنب المزيد من فخاخ التوقيت غير الملائم والسعي لإدارة الوقت بأسلوب يحقق الأچندة العربية والحقوق العادلة.. فهل يتم الإعداد لإنجاح حقيقي ومطلوب لقمة دمشق العربية في مارس (٢٠٠٨م) بعد كل ما حدث... لهذا الحديث بقية... والله ولي التوفيق.

٥ـ فخ الوقوع في براثن وتداعيات «الحروب الجائرة»

من ضمن فخاخ أنابوليس (وليست كلها فخاخ للعرب) هو ظاهرة قيام الجماعات المناهضة لحروب المحافظين الجدد في الولايات المتحدة بمظاهرات خارج قاعات مؤتمر أنابوليس... ضد المؤتمر... ومن يفوته تحليل هذه المظاهرة ذات الدلالة المهمة لا يتنبه إلى ذلك الفخ الذي وقع فيه الرئيس الأمريكي بوش... وهو أنه، وبحروبه الجائرة في كل من أفغانستان والعراق وقتله لمئات الآلاف من الأبرياء، أصبح مطلوبًا من هذه الجماعات الأمريكية كمجرم حرب... ومهما تحدث عن السلام ـ من وجهة هذه الجماعات خاصة ـ فهو حديث للكذب والمراوغة.. فهذه الجماعات المتظاهرة خارج قاعات أنابوليس.. تأكد لها أن مؤتمر أنابوليس ما هو إلا شعار آخر كاذب ليقوم بوش بتحضير المنطقة لحرب أو صراع مع إيران... فهو من وجهة نظر هذه الجماعات «مجرم حرب بالأساس» ولا يمكن تصديق أي حديث له عن أي سلام... وهكذا نصب بوش لنفسه فخًا من أفعاله فوقع فيه في أنابوليس وكان مكشوفًا عندما أيد «يهودية الدولة العربية» ولم يمارس أي دور حقيقي لتنفيذ وعده الهلامي بإنشاء دولتين!

٦ـ هل هو فخ محاربة الإرهاب وفك بِنَى الإرهاب «الفلسطينية» أم نسميه بفخ تعميق حرب أهلية فلسطينية كأحد تداعيات «أنابوليس» «الضمنية» إن لم يحترز منها المفاوض الفلسطيني؟!

المقصود هنا أن شرط إسرائيل لتنفيذ «آلية خريطة الطريق» هو نفس شرط إسرائيل للتقدم في أي مسعى «براق» لإنشاء الدولة الفلسطينية (على الطريقة الإسرائيلية).

وهو مطالبة فتح وعباس بتصفية «بؤر الإرهاب» و«بِنَاه التحتية» والمقصود هنا «حماس»... فحتى إذا حدث مثلاً وقبضت فتح على عناصر كانت تخطط لعملية إرهابية «هنا أو هناك فهذا غير كافٍ ولا يجعل إسرائيل تتحرك نحو أي التزام لتأسيس وإنشاء «الدولة الفلسطينية إياها» بل إن المطلوب هو بمثابة شنٍّ حرب أهلية واقتتال فلسطيني فلسطيني حتى «تقر عين المفاوض الإسرائيلي...»!!

ولقد أكد «الراعي الأمريكي» في وعده على مثل هذا الشرط عندما صرح بوش في نصوص «وعده» بأن ساوى في أنابوليس «على طريقة السم في العسل» بين «تفكيك إسرائيل للتوسع الاستيطاني» (مشكورًا) و«تفكيك عباس للبِنَى التحتية للإرهاب».. وطبعًا البداية بعباس!!

٧ـ «فخ التطبيع المجاني»:

دأبت إسرائيل ومنذ بدايات عملية السلام على محاولة جر المفاوض العربي إلى تطبيع مجاني تحصد من خلاله حصدًا كل ما تراه من مزايا دون أدنى التزام حقيقي بعملية سلام حقيقية وعادلة وبالطبع لم يكن «مؤتمر اجتماع أنابوليس استثناءً... وهو ما جعل الوفد السعودي مثلاً يرفض مصافحة الوفد الإسرائيلي في المؤتمر...

والتأكيد العربى على ما جاء فى «المبادرة العربية» بربط التطبيع بحلول واضحة وعادلة على أرض الواقع وفى إطار زمنى محدد، فلا يمضى التفاوض على طريقة شامير الذى قال بوصفته السحرية منتقدًا الذين انتقضوا قبوله للتفاوض ومنعوه، بعدم تجديد الانتخاب له بسبب ذلك حين قال: «كنت سأفاوض العرب لعشر سنوات تتغير فيها الأوضاع على الأرض بحيث لا يمكن علاجها... ويبدو أن وصية شامير قد نُفذت بحذافيرها.

٨ـ فخ المرجعيات:

حيث ذكرت كل المرجعيات المعروفة كلاسيكيًا فى التمهيد للمؤتمر ولكن المؤتمر ترك كل هذه المرجعيات بما فيها المبادرة العربية وركز على «خريطة الطريق» التى لا تعتبر مرجعية بقدر ما هى آلية للتفاوض وهى «خريطة» سيئة السمعة استخدمت كعنوان لشروط إسرائيلية مجحفة لتفعيلها، ويؤدى تنفيذها إلى اقتتال فلسطينى فلسطينى إن لم تتوحد كلمة الفلسطينيين وينهضوا من كبوتهم الراهنة.

٩ـ فخ الوسيط المنحاز:

ما دام أن الوسيط الأمريكى لا يقوم بأى ضغط لتحقيق «سلام متوازن» كما حاول ذلك كارتر وكلينتون وبوش الأب، ونجح فقط كارتر الذى كان حاسمًا للغاية مع مناحم بيجين... ويتضح موقف كارتر هذا كوسيط متوازن وحاسم من خلال كتابه الأخير «فلسطين والفصل العنصرى» الذى أوضح من خلاله وبجلاء شديد أين يقع الخلل، حيث أشار إلى أن الإدارة الأمريكية الراهنة هى سبب رئيسى فى انهيار أى سلام عادل بانحيازها الأعمى لإسرائيل وموافقتها على كل ممارساتها غير الشرعية، كما أدان التعنت الإسرائيلى وحمَّل

إسرائيل فى ذلك الكتاب مسئولية تدهور الأمور فى الشرق الأوسط والحالة المزرية التى يعانيها الفلسطينيون.

١٠ـ فخ الإفشال الإسرائيلى للسلام:

دأب المفاوض الإسرائيلى وعلى مدى الصراع العربى الإسرائيلى ومواقعه، خاصة تلك المواقع السلمية من مؤتمر مدريد إلى اليوم.. على إفشال كل ذلك، ولقد حمَّل كارتر مسئولية هذا الفشل أو «الإفشال» لإسرائيل فى كتابه «فلسطين والفصل العنصرى» والذى أثار ضجة كبيرة حين صدوره وهجومًا إسرائيليًا وصهيونيًا حادًا ضده... لقد دأب التفاوض الإسرائيلى على السعى إلى إظهار أن إفشال السلام يقع دائمًا على الجانب العربى الذى ينبغى أن يحمل نتائج فشل المفاوضات، وبالتالى على العالم أن يترك الفلسطينيين للافتراس الوحشى لأسوأ احتلال فى التاريخ...

هذا الأمر لا يعنى أن يتصور المفاوض العربى، خاصة الفلسطينى، بعض المسئولية عن إخفاق عمليات السلام؛ لأنه قد أضعف من ذاته بالانقسام البشع الذى حدث بين الضفة وغزة، بين حماس وفتح فحقق لإسرائيل أغلى أحلامها... ولكن هذا لا يمنع من السعى لإعادة ترتيب الصف العربى والتحرك الإعلامى الواعى على الصعيد الدولى لكشف أساليب المفاوض الإسرائيلى ومسئوليته الأولى عن إفشال كل مساعى السلام وهو ما تعرضنا له بأمثلة سابقة فى عدد كبير من المقالات، ولهذا سياق تفصيلى آخر.. والله ولى التوفيق.

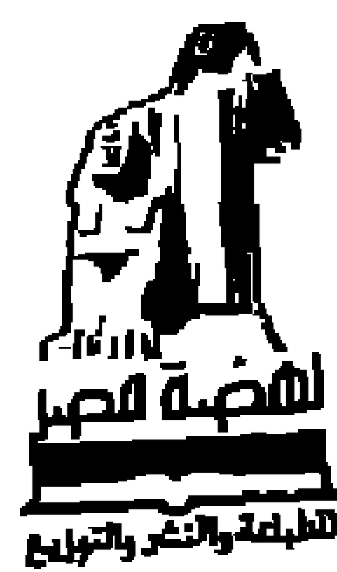
مسرد بمصطلحات الدراسة حسب ورودها:

- السيناريوهات الحاضنة Nesting Scenarios
- تفاعلات النظم Systems Dynamics
- فخاخ التفاوض Negotiating Traps
- الخريطة الذهنية Cognitive Map
- تحديد مسار الحجج Argumentation Analysis
- السيناريو المعيارى Normative Scenarios
- الحجج الحاضنة Nesting Arguments
- تفاعلات الخبراء وتسجيل أحكامهم Group Dynamics & Expert Judgment
- أداة التقييم الاستراتيجى Strategic Assesement Tool
- خطاب المناقشة والمساجلة الثيولوجية
Discourse of Pure Theological Discussions & Debates
- سمات الخصوصية التفاعلية Interactional Features
- القائد المغير Transformational Leader
- أفعال القول Speech acts
- عمليات الإقناع Persuasive Processes
- غسيل المخ Indoctrination
- نشر الدعوة Probagation
- التبشير والوعظ Proselytising
- التحول من دين لآخر Converting
- كمائن حوار الأديان Interreligious Dialogue Traps
- الأجندة المتخفية Hidden Agenda
- مبدأ كشف الأوراق التفاعلية Disclosure

- التفاوض على أساس المصالح المشتركة Interest-based Negotiation
- الجلطة المعلوماتية Infoclut
- الانفجار المعلوماتى Information Explosion
- المعلومات الناقصة Missing Information
- المعلومات المضللة Disinformation
- المعلومات الخاطئة Misinformation
- المعلومات الصحيحة Correct Information
- التثاقف Acculturation
- الإحلال الثقافى Cultural Displacement
- الهيمنة الثقافية Cultural Hegemony
- التقمص الإيجابى Empathy
- الفاشية الإسلامية Islamo Fascism
- إخراج الكلام عن سياقه Decontextualization
- أسلوب الاستشهاد لتحقيق المصداقية Testimonial
- أسلوب الإلحاق الأوسع بما هو شائع Bandwagoning
- المذهب الانتصارى Triumphalism
- الهروبية Escapism
- الثنائيات الإطلاقية Absolutist Dualities
- الحجج المحتضنة Nested Arguments
- قواعد المطارحات Grammar of Discourse
- صياغة وبناء السيناريو Building Scenarios
- الأرضية المشتركة Commom Ground
- حرب المعلومات الناجحة Perfect Information War
- فخ منطقة الأمان Comfort Zone Trap
- فخ المادية المجحفة Blunt Materialistic Trap

الفهـرس

ف: 161 ن:29/1/2009



فخاخ التفاوض
وحروب المعلومات

هذا الكتاب

يركز على فهم أنواع «فخاخ التفاوض»، خاصة فى إطار حروب المعلومات بسماتها المختلفة، وفى هذا الإطار يجيب عن عدد من التساؤلات:

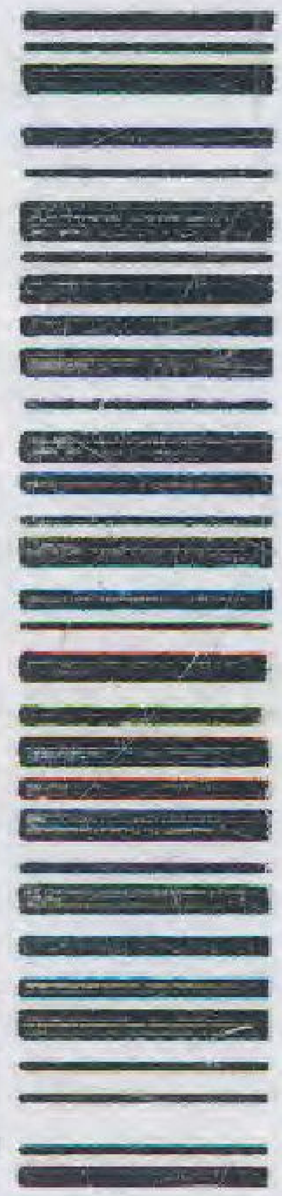
- كيف يتجنب المفاوض الفعال هذه الفخاخ؟
- كيف يتعامل معها ولا يسقط فيها، سواء كان التفاوض فى ملفات سياسية أو إدارية أو اجتماعية أو عبر الثقافات؟
- ماذا عن فخاخ التفاوض السياسى؟
- هل وقع السادات فى فخ كيسنجر أم العكس؟
- ماذا عن الفخاخ العشرة لـ «أنابوليس» ؟
- ماذا عن فخاخ حوار الحضارات العديدة؟
- كيف سقط بابا الفاتيكان فى واحد منها؟
- ماذا عن الفخاخ التى تتسبب فى عدم القدرة على صنع الأرضية التفاوضية المشتركة والصعبة مع الآخرين سواء فى واقعنا الثقافى أو على المستوى الدولى؟

الناشر



أ.د. حسن محمد وجيه

- حاصل على الدكتوراه من جامعة جورج تاون الأمريكية فى اللغويات والعلوم السياسية والعلاقات الدولية.
- حاصل على درجة الماجستير فى علوم اللغويات النظرية/ التكاملية من جامعة جورج تاون.
- حاصل على درجة الماجستير فى اللغويات التطبيقية من جامعة تكساس الأمريكية.
- رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر.
- حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاقتصادية ... فرع العلوم السياسية.
- ساهم فى تأسيس ... التفاوض على المستوى ... عشرات الأبحاث والك... الصحفية.
- عضو المجلس الأعلى لل... ومستشار معهد إعداد الق...





نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع